

خَالِص جلبي

الاستبداد المعاصر

مدارك

سلسلة في العلم والسلم

الاستبداد المعاصر

خالص جلبي

الكتاب: **الاستبداد المعاصر**

المؤلف: **خالص جلبي**

التصنيف: **أدب**

الناشر: **دار مدارك للنشر**

الطبعة الأولى: مارس (آذار) 2012

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ISBN 978-614-429-007-1



Madarek مدارك
Madarek Publishing House دار مدارك للنشر
www.mdrek.com - read@mdrek.com

دبي:
مجمع إعمار للأعمال، شارع الشيخ زايد، دبي - الإمارات العربية المتحدة
P. O. Box: 333577 Dubai - UAE
Tel.: 00971 4 361 5177 - Fax: 00971 4 361 5178

بيروت:
فرن الشباك، الطريق العام، سنتر غاريوس، بيروت - لبنان
P. O. Box: 50074 Forn Elchebbak - Lebanon
Tel.: 00961 1 282075 - Fax: 00961 1 282074

سلسلة في العلم والسلم

خالص جلبي

الاستبداد المعاصر

لو كان الاستبداد رجلاً وأراد أن ينتسب لقال:

«أنا الشر، وأبي الظلم، وأمي الإساءة، وأخي الغدر، وأختي المسكنة، وعمي الضرر، وخالي الذل، وابني الفقر، وابنتي البطالة، ووطني الخراب، وعشيرتي الجهالة».

من كتاب طبائع الاستبداد
عبدالرحمن الكواكبي

المحتويات

قصة الحكيم كونفوشيوس 9

في معنى ضرورة المجتمع للإنسان 13

تجربة الإمام الغزالي 27

السجون الأربعة 37

سفر الخروج من نفق الديكتاتورية إلى فضاء الحرية 43

الانتخابات والاجتماعات والمؤتمرات في فضاء العالم العربي 51

مائة بالمائة؟ 57

حقيقة صدام 63

الأمن الاجتماعي بين العدل والحريات 71

أسباب الطغيان 85

الدورة التاريخية الخالدة 89

«تجربة ستانفورد» حول السيطرة والاتباع 103

الإدمان على مورفين القوة 113

شطرنج القوة 123

الوسط والفرد وحقول التبادل 1 31

في الطبيعة البشرية 139

المعرفة والسلطة 145

علاقات القوة والجنس 153

المثقف وعلاقات القوة 163

سيكولوجية الطغاة 173

الجنون الاجتماعي 183

صناعة السحر 193

القادة والأتباع 203

جدلية المستضعفين والمستكبرين 213

المخاض الكوني 223

هل يمكن «للفكرة» أن تواجه «القوة»؟ 241

القابلية للاستبداد 251

الأساس الأخلاقي لفكرة اللاعنف 257

تعريف الموت عند جحا 259

قصة الحكيم كونفوشيوس والمرأة والنمر

تقول القصة إن «كونفوشيوس» مرّ على مقربة من جبل «تاي»، فأبصر امرأة تقف إلى جانب أحد القبور وتبكي بمرارة وحرقة، فسارع إليها، وبعث بتلميذه «تسي - لو» يسألها: إنك لتبكين يا امرأة وكأنك احتملت من الأحزان فوق الأحزان. فردّت المرأة تقول: وكذاك الأمر فقد قتل نمر من قبل والد زوجي في هذا الموقع، وقد قتل زوجي أيضاً. وها هو ولدي قد مات نفس الميتة أيضاً. فقال المعلم: ولماذا... لماذا لم تتركوا هذا المكان؟ فردّت المرأة: ليست هنا حكومة ظالمة. فقال المعلم آنذاك: «تذكروا قولها يا أولادي، إن الحكومة الظالمة أشد فظاعة من النمر». نعم إن الحياة في غابة أفضل من الحياة في مجتمع بدون قانون. ويعقب الفيلسوف البريطاني «برتراند راسل» في كتابه «السلطان» على هذه الواقعة للتأكد من «كون الحكومة أقل فظاعة من النمر» فيرى أن مشكلة ترويض السلطان موضوع قديم: «وظن الطاويون أنها مشكلة لا تحل فنصحوا بالفوضوية... وجرب العالم الحكم العسكري المطلق، والثيوقراطي، والملكية الوراثية، وحكم القلة، والنظام الديموقراطي، وحكم القديسين. ويدل كل هذا على أن مشكلتنا لم تحل بعد».

ويذكر «إمام عبدالفتاح إمام» تجربة اجتماعية رهيبة في كتابه في كتابه «الطاغية» ص54 أن العادة جرت في بلاد فارس قديماً «عندما يموت الملك أن يترك الناس خمسة أيام بغير ملك وبغير قانون بحيث تعم الفوضى والاضطراب جميع أنحاء البلاد، وكان الهدف من من وراء ذلك هو أنه وبنهاية هذه الأيام الخمسة، وبعد أن يصل السلب والنهب والاغتصاب إلى أقصى مدى، فإن من يبقى منهم على قيد الحياة بعد هذه الفوضى الطاحنة سوف يكون لديهم ولاء حقيقي وصادق للملك الجديد، إذ تكون التجربة قد علمتهم مدى رعب الحالة التي يكون عليها المجتمع إذا غابت السلطة السياسية».

ويرى «راسل» أن الدولة يمكن أن تمارس ضغطها الساحق في صور شتى كما في علاقتنا بالحيوانات، سواء بتعليق الخاروف بحبل وشده بعنف وهو السلطان العاري، أو عندما يلحق الحمار الجزرة مقتنعاً أن مصلحته في أن يفعل ما نريد، أو الحيوانات التي تتقن «التمثيل» وسطاً بين هذين الصنفين، أو بصورة مغايرة كما في قطعان الأغنام عندما نريد حملها إلى البواخر فنجر قائد القطيع بالقوة فلا تلبث حيوانات القطيع الأخرى أن تسير وراءه راضية مختارة. وحسب «راسل» فإن: «حالة الخاروف تتمثل في سلطان الشرطة والقوات العسكرية. وتمثل حالة الحمار والجزرة سلطان الدعاية. وتظهر الحيوانات الممثلة قوة التعليم، فتؤدي الجماهير التحية للقائد البطل. أما القطيع الذي يتبع قائده المقهور على إرادته فيتمثل في السياسات الحزبية عندما يكون زعيم الحزب أو قائده موثوقاً إلى زمرة من الناس».

ويرى «راسل» أن المخلوقات البشرية لا بد لها من أن تعيش على نحو جماعي، ولكن رغباتها: «خلافاً لرغبات النحل تبقى فردية، ومن

هنا تنشأ المتاعب والحاجة الماسة إلى قيام حكومة». وعند هذا الخيار الموجع بين «فوضى الغابة» و«طغيان الدولة» ولدت الحكومات، ولكن مع عدم التكافؤ في السلطان: «إذ إن من يملكون أكثره يستخدمونه لتحقيق رغباتهم التي تتعارض مع رغبات المواطنين العاديين. وهكذا فإن الطغيان والفوضى يتشابهان في نتائجهما المدمرة». أو كما قال «أفلاطون» في كتابه «الجمهورية»: «إن عقيدتي هي أن العدالة لا تخرج على أن تكون مصلحة الأقوى».

وقصة كونفوشيوس مع المرأة تفتح الباب لفهم سيكولوجية الطغيان. فالطغيان مرض اجتماعي إنساني؛ فلم نسمع أن نحلة مثقفة هتفت بالحرية ضد الظلم؛ وإذا حاولت نحلة أن تدعي الثقافة فترقص لقطيع النحل فقد يستمتعون برقصها، ولكن مفهوم الطغيان قد يضيع وقتهم عن جمع الرحيق وإنتاج العسل.

والعقارب تعيش على وجه الأرض منذ 400 مليون سنة. ولكن لم يحدث أن حصل انقلاب عسكري بين صفوفهم يقوده الرفاق الثوريون، كما لم نسمع عن ثورات في مجتمع النمل.

والحيوانات والحشرات والطيور ودواب الأرض وبنو البشر يعيشون في مجتمعات. وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم. ولكن المجتمع الإنساني مفتوح، وبقية المجتمعات مغلقة تعيش برتابة. المجتمع الإنساني يتطور، ومجتمعات السمك والحشرات والأفاعي لم تغيّر سمتَها منذ نصف مليار سنة، منذ أن بدأت عديدات الخلايا في الظهور في الانفجار الثاني البيولوجي الذي حدث قبل 530 مليار سنة، بعد الانفجار الكوسمولوجي الذي حدث قبل 15 مليار سنة.

في معنى ضرورة المجتمع للإنسان

وهذه الحقيقة الأولى تقودنا إلى شرح الفكرة الثانية التي أوردها «ابن خلدون» في مقدمته، وأثبتها علم «الأنثروبولوجيا»، عن «ضرورة» المجتمع الإنساني. فالحصان أو العجل ينزل من بطن أمه فيمشي فوراً، والطفل الرضيع يحتاج سنة حتى يقف على قدميه. ويأتي الإنسان إلى الحياة وهو أضعف المخلوقات قاطبة، ليتطور لاحقاً فيرسل مركبات فضائية إلى المريخ، ويكشف الكود الوراثي، ويمتلك طاقة النجوم، ويسحق الزمن إلى الفيمتو ثانية، ويتخاطب بسرعة الضوء، ويكشف عن المركبات دون الذرية من الكواركز واللبتونات.

نظرية ابن خلدون

و«ابن خلدون» ينطلق من نظريته عن ضرورة الاجتماع الإنساني من نقطتين: الغذاء والدفاع. فلا يمكن لإنسان أن يطعم نفسه رغيفاً من الخبز لولا تعاون سلسلة لانهائية من الصناعات والمهارات، مثل حراثة الأرض بسكة الحديد التي تحتاج بدورها إلى صناعة تعدين الحديد، والأخرى بدورها تتطلب مهارة جيولوجية وتقنية صناعية. وهكذا فلقمة الخبز البسيطة ليست بسيطة، بل تتعاون شبكة لانهائية

من المهارات حتى نصل إلى إنتاجها. ولكن مع إنتاج لقمة الخبز تبرز مهارات لانهائية من الصناعات، ويأمن الإنسان على نفسه من خوف ويطعم من جوع، فهذه هي الحضارة. والحضارة هي مجتمع المدينة. وفي المدينة توجد كل التخصصات، كما يذهب إلى ذلك «دوركهايم» في كتابه عن تقسيم العمل أنه ثمرة مجتمع المدينة، ومنها تخرج كل الصناعات، ويحصل تقاسم العمل، ونمو المجتمع باطّراد.

ومن الجميل الاستشهاد بفكر ابن خلدون وكيف وصل إلى هذه النتيجة. ويشرح ابن خلدون نظريته على الشكل التالي:

جاء في مقدمة «ابن خلدون» في فصل العمران البشري ص41 أن «الاجتماع الإنساني ضروري. ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم: الإنسان مدني بالطبع». ثم ينطلق ابن خلدون لتفكيك هذه الظاهرة: «إن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من الغذاء غير موفية له بمادة حياته، ولو فرضنا أقل ما يمكن فرضه، وهو قوت يوم من الحنطة مثلاً، فلا تحصل إلا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ، وكل واحد من هذه الأعمال الثلاثة يحتاج إلى مواعين وآلات لا تتم إلا بصناعات متعددة من حداد ونجار وفاخوري. وهب أنه يأكله حباً من غير علاج، فهو أيضاً يحتاج في تحصيله أيضاً إلى أعمال أخرى أكثر من هذه من الزراعة والحصاد والدراس الذي يخرج الحب من غلاف السنبل، ويحتاج كل من هذه آلات متعددة وصنائع كثيرة أكثر من الأولى بكثير، ويستحيل أن تفي بذلك كله أو بعضه قدرة الواحد، فلا بد من اجتماع القدر الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم، فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف».

ثم يمضي ابن خلدون بنفس الطريقة للبرهنة على موضوع حماية الإنسان نفسه من الطبيعة، فالحيوانات مزودة بما تستطيع بها أن تدافع به عن نفسها خلاف الإنسان. وكل ذلك يتأتى للإنسان «باليد والفكر» والاجتماع الإنساني.

بين الغابة والدولة
تفكيك الفكرة عند برتراند راسل

في هذه النقطة يدخل الفيلسوف البريطاني «برتراند راسل» على الخط، فيرى أن اجتماع بني البشر ضرورة، وأن الإنسان إذا عاش مع الحيوانات خرج حيواناً ولا يصبح إنساناً، كما جاء في قصة «صبي أفيرون الوحشي» الذي تحدث عنه «بيتر فارب» في كتابه «بنو الإنسان». والمجتمع هو الذي يجعل من طينة الآدمي بشراً سوياً، يتكلم ويتواصل ويتقن المهارات، ويتعلم في سنوات ما كسبه الجنس البشري في ملايين السنين. ولكن المشكلة كما يراها برترند راسل أن اندماج البشر في وحدة اجتماعية يتولد منه مشكلة الطغيان. فالإنسان يحوي الفردية، ولكنه في المجتمع يخسر فرديته لصالح آخرين يتحكمون بمفاتيح القوة. وهذا التناقض بين الحرية الفردية والضغط الاجتماعي هو الذي يولد إشكالية الطغيان من فرد على فرد أو مجموعة على مجموعة أو من فرد على مجموعة. وإن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم، إنه من المفسدين. وحتى في الديموقراطية الحالية يرى «توكفيل» أن الأقلية مهددة بطغيان الأكثرية. وأكبر تحدٍّ يواجه الديموقراطية هو توازن حكم الأكثرية مع عدم الطغيان على الأقلية. وأرسطو كان مناوئاً

للديموقراطية، وأفلاطون شجبها، وخسر سقراط حياته على يد الديموقراطية، حينما صوتت الأكثرية بفارق صوت واحد على إعدام أعظم عقل أنتجته الثقافة الإغريقية. ويرى «غيتانو موسكا»، وهو من الحجج في هذا العلم، أن الديموقراطية ليست إلا واجهة تخفي حكم الأقلية، وهي تتطابق في قسم منها مع فكرة المؤرخ البريطاني «جون آرنولد توينبي» في كتابه «مختصر دراسة التاريخ» أن من ينشئ الحضارة هي الأقلية المبدعة التي تمشي خلفها الأكثرية بآلية التقليد والمحاكاة، كما يتهادى قطيع الغنم على أنغام مزمار الراعي. وعند انقلاب محاور الحضارة تتحول «الأقلية المبدعة» إلى «أقلية مسيطرة» تسوق الجموع بالقوة والإكراه. وهنا ينقلب «مزمار الراعي» إلى «سوط كزركسيس» وتنهار الحضارة. وكما جاء في الإنجيل أن ما قبل السقوط يأتي الكبرياء. والله توعد أن يصرف عن آياته الذين يتكبرون في الأرض. وتلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين.

وعند جدلية الفرد والمجتمع نحتاج إلى وقفة خاصة للقيام بتفكيك اجتماعي لفهم هذا القانون، وكيف يتدخل المجتمع في صناعة الفرد، كما تفعل الصناعات في المواد الخام. ومن خام الحديد يمكن أن تخرج سيارة مرسيدس أو حاوية قمامة.

قصة صبي أفيرون الوحشي

والقصة التي أشرنا إليها عن صبي أفيرون الوحشي تحتاج إلى تفصيل خاص لأهميتها. وجاء ذكر القصة في كتاب «بنو الإنسان» ص210 لـ«بيتر فارب» من كتب سلسلة عالم المعرفة الكويتية. وهو من

الكتب التأسيسية؛ فبعد اندلاع الثورة الفرنسية بعشر سنوات، وقبل أن يغلق القرن الثامن عشر بعام واحد، ضجت فرنسا والأوساط العلمية من حدث صُدم له المجتمع الفرنسي وترك الناس حيارى في التفسير والتعليق، وسببه العثور على إنسان عارٍ في غابة «أفيرون» أشبه بالذئاب منه بالإنسان. ففي شتاء ذلك العام (1799) ظهر للناس طلباً للدفء والغذاء صدفة، فأمسكوا به بعد عناء، كما هي في قصة ماوكلي الطفل الذئب الذي عرض في مسلسل للأطفال.

كان الطفل في حدود الثالثة عشرة من العمر، قذراً، تفوح منه الروائح المقرفة، عارياً تماماً من أي لباس، لا يعرف معنى العورة، شرساً، يعض ويخمش يد كل من يقترب منه، لا يمشي بشكل منتصب، بل منحنٍ وأقرب للحيوان، ويهز جسمه طول الوقت، يروح ويغدو وكأنه في قفص الحيوانات، وبين الحين والآخر تعتري جسمه تقلصات مخيفة، كما كانت تعبيرات وجهه تخلو من أي مشاعر رحمة أو تودد.

وقف الناس ينظرون إليه متأملين، فهو يمثل من زاوية «التكيف الممتاز» مع الطبيعة، أي يمثل الصنف المتوحش النبيل، كما كان يدعو إليه المفكر الفرنسي «جان جاك روسو» بالعودة إلى الطبيعة لأن الحضارة هي المرض! فالطفل كان ذا بنية مدهشة قوية ومقاومة للمرض، فقد استطاع أن يقاوم الموت كل السنوات الطويلة وهو عارٍ، ونحن نسقط للرشح أو التهاب الصدر مع لفحة هواء وبرد بسيط. ورأى فيه فريق آخر الهوة المرعبة التي يمكن أن يهوي إليها الإنسان في عريه المطلق وقذارته البهيمية؛ عندما يعيش لوحده محروماً من المجتمع، في حين حمد الله الفريق الثالث على نعمة العيش في مجتمع

إنساني مظلل بالأمن والرفاهية. والشيء المهم في هذه الحادثة أنها كانت محرضاً للدكتور «جين مارك إيتار» في دراسة هذا المخلوق، حيث اختلف فيه فريقان: هل هو أبله رماه ذووه في الغابة؟ أم هو إنسان قد عاش في الغابة منذ أيامه الأولى؟؟ وأصرّ الدكتور إيتار على أن هذا الكائن ليس بإنسان «أبله» في حالٍ من الأحوال، فهو لا يتصرف كإنسان أبله، بل هو شيء مختلف تماماً، إنه إنسان لم يتصل «بالمجتمع الإنساني» منذ أن بدأت حياته على هذا الكوكب.

صمّم الدكتور إيتار على تجربة مثيرة للغاية، هي إعادة هذا المخلوق إلى حظيرة المجتمع، وأعطاه اسم «فيكتور» ومرت التجربة لعدة سنوات.

حصيلة تجربة الدكتور إيتار مع فيكتور!!

لم تكن التجربة سهلة، فهو لا يعرف الانتصاب، ولا لبس الثياب، ولا تناول الطعام أو قضاء الحاجة، لا أصول التعامل أو آداب اللياقة الاجتماعية، وقبل كل هذا لم يكن ينطق بكلمة فرنسية واحدة.

ومن خلال تربية طويلة ولعدة سنوات تقدم الصبي قليلاً، فأصبح يعرف كيف يزرر ملابسه، أو يتبوّل، ينتصب نوعاً ما، ويتصرف بشكل معقول، ولكن الشيء الذي استعصى هو اختراق «حاجز اللغة»!! كانت اللغة هي العائق الرهيب الذي تحدى الدكتور «إيتار» على الرغم من كل المحاولات المضنية خلال عدة سنوات. نعم، استطاع الطفل أن يفهم بالسماع بعض الكلمات الفرنسية، ولكن شفتاه انحبست عن نطق أي كلمة، كما انعقل لسانه عن التعبير بأي جملة واضحة سليمة التعبير،

وكانت النتيجة التي خرج بها الدكتور إيتار أن المصيبة التي حلّت فوق رأس هذا الصبي ليست بلهاً أو قصوراً عقلياً، بل العزلة الاجتماعية التي طوّقت مصيره بظلمات غير قابلة للانفكاك، فكتب يقول: «يأتي الإنسان إلى هذه الكرة الأرضية بدون قوة جسدية وبدون أفكار تولد معه، وغير قادر بذاته على متابعة قوانين طبيعته الأساسية التي ترفعه إلى قمة المملكة الحيوانية، ولا يستطيع الوصول إلى المركز المرموق الذي اختصته به الطبيعة إلا إذا كان في وسط مجتمع، وبدون حضارة يكون الإنسان واحداً من أضعف الحيوانات وأقلها ذكاءً». وقصة الصبي المتوحش في فرنسا ليست الأولى في تأكيد الأثر الاجتماعي في «تشكيل» الإنسان، فهناك قصة مثيرة عن الملك «فريدريك» حاكم صقلية من القرن الثالث عشر للميلاد.

تجربة الملك فريدريك القاسية

في القرن الثالث عشر للميلاد حكم صقلية ملك موهوب فنان هو فريدريك الثاني، الذي كان يجيد التكلم باللغة العربية، وذا ملكات متعددة من نظم الشعر والعناية بالمفكرين والفلاسفة.

وفي أحد الأيام استولت عليه فكرة عجيبة عن أصل اللغة وكيف تكلم بها الإنسان منذ القدم؟ ومن أين تعلمها؟ وكيف تعلمها؟ وهل تولد معه بالفطرة؟؟ وللوصول إلى أي الأفكار هي الأصح قام بتجربة بشرية قاسية؛ فأحضر مجموعة من الأطفال حديثي الولادة ودفع بهم إلى نساء حاضنات يقمن بإطعام وتنظيف الأطفال ولكن «على الساكت» بدون نطق أي كلمة؛ فنشأ الأطفال في عالم أخرس لا مكان

للكلمة فيه، وجلس الملك فريدريك متوتراً ينتظر النتيجة ليرى ماذا ينطق الأطفال عندما يكبرون وبأي لغة سيتحدثون ويتفاهمون؟؟ هل هي العبرية أصل التوراة؟؟ أم اليونانية لغة الإنجيل التي بها كتب؟؟ أم العربية التي نزل بها القرآن؟؟ أم هي اللغة العامية التي يتحدث بها أهل صقلية؟؟

والذي حصل أن الأطفال الذين خضعوا للتجربة لم يتكلموا لغةً قط، بل طواهم جناح الموت الرهيب!! فيبدو أن اللغة والكلام ومناغاة الطفل تشكل غذاءً ثانياً به يعيش وبدونه يلاقي حتفه!!

وهناك تجربة أخرى قام بها فرعون من مصر هو بساميتك الأول، حسبما نشرته مجلة «P.M» الألمانية في عددها الأنثروبولوجي. ذكرت القصة بالكامل في المجلة الألمانية العلمية «P. M. PERSPIKTIVE - DAS WUNDER DER EVOLUTION - 044 / 96» ص 72.

تجربة الفرعون بساميتك الأول (PSAMMETICH I):

استولت فكرة عجيبة على ذهن الفرعون لم تغادره ليلاً نهاراً، مفادها لو تركنا الأطفال بدون أن نعلمهم لغتنا فهل سينطقون باللغة الأصلية للإنسان؟ وهل ستكون نفس اللغة الهيروغليفية أم ستكون متباينة؟ وإذا اختلفت فأي لغة ستكون؟ كان ذلك قبل 2600 سنة من الآن، فانطلق الفرعون «بساميتك الأول» بعد أن استولت عليه الفكرة تماماً إلى ميدان التجربة اللغوية «الألسنية».

يذكر المؤرخ اليوناني «هيرودوت» (HERODOT) عن هذه التجربة المثيرة أن الفرعون أخذ طفلين حديثي الولادة، فدفعهما إلى عائلة راعٍ تحت رقابة مشددة، بحيث تمت تغذية الطفلين بدون لفظ كلمة واحدة لهما، وكان الفرعون يتفقدهما شخصياً ليرى نتائج تجربته، ولعلّ هذه التجربة الألسنية الأقدم في هذا الاتجاه، لمعرفة أصل اللغات بواسطة التجربة البشرية.

وبعد مرور سنتين تذكر الرواية أنهم نطقوا شيئاً يشبه لفظة «بيكوس»(BEKOS) وعندما سأل الفرعون الحكماء حوله عن شعب ينطق هذه اللفظة ذكروا له الشعب «الفريجي» (PHRYGIER) الذي يعيش في آسيا الصغرى، ويعرفه المؤرخون أنه كان من الشعوب الهندية الجرمانية، وأن هذه الكلمة تعني الخبز في لغة الشعب الفريجي!! فهل لغة هذا الشعب هي فعلاً أصل كل اللغات؟ لو صدق هذا لحُلّت هذه المشكلة بأبسط السبل، ولكننا نعلم اليوم أن الشعب الفريجي الذي كان يعيش قبل ثلاثة آلاف سنة ليس شيئاً في عمر الزمن مع الإنسان الذي أثبتت عظامه المرمية في طبقات الأرض في شرق أفريقيا، أنه يعود ليس إلى خمسة آلاف سنة؛ بل سبعة ملايين من السنين حسب آخر الكشوفات الأنثروبولوجية في تشاد!!

وهناك تجربة أخرى وهي تجربة ملك سكوتلاند يعقوب الرابع.

تجربة ملك سكوتلاند يعقوب الرابع (JAKOB - IX - OF SCOTLAND):

تروي المجلة الألمانية المعنونة «معجزة التطور» (P. M. P. DAS WUNDER DER EVOLUTION) قصة مشابهة أخرى

مثيرة قام بها ملك سكوتلاندا قديماً، بعد ثلاثة قرون من تجربة الملك فريدريك الثاني حاكم صقلية، لاكتشاف جذر اللغات واللغة الأصلية، التي تحدث بها الإنسان، تحت وهم أن نطق الإنسان كان بالأصل موحداً، وأن اللغة في حالة كمٍّ ثابت غيرِ متطور. ويزعم مراقبو التجربة أنهم، أي الأطفال، تكلموا في خاتمة المطاف اللغة العبرية، ولا غرابة، لأن أهل كل ثقافة يعتبرون لغتهم هي سرة العالم وأصل اللغات وسر الكون، وأنهم أفضل ما خلق الله.

وفي ضوءِ القصص السابقة يمكن أن نفهم مثلاً قصة «حي بن يقظان» التي كتبها الفيلسوف الأندلسي «ابن طفيل» الذي عاصر الفيلسوف ابن رشد، ووصل فيها من خلال من عاش وحيداً في الجزيرة يرضع من لبن الغزال، إلى تعلم اللغة وإدراك الحقائق العقلية الكبرى بدون مجتمع بشري!! يا ترى ما مدى رصيد هذه القصة من الحقيقة؟؟

الخرافة في قصة حي بن يقظان وروبنسون كروزو!!

تلعب الأسطورة دوراً كبيراً في إثارة الخيال عند الإنسان، ومنها قصة حي بن يقظان، وكذلك قصة روبنسون كروزو بشكل أخفّ، وإن كانت تمشي على نفس الوتيرة، وكذلك قصة «ماوكلي» طفل الغابة الذي يعيش مع الذئاب «لالا» و«سورا» والفهد «باجيرا» الذي يعلمه حكمة الحياة، والدب «بالو».

وتدخل تحتها أيضاً أسطورة «روميولوس وريموس» اللذين رضعا من لبن الذئبة على نهر التيبر، وهما اللذان بنيا روما بعدها.

ففي كل هذه القصص نكتشف أن الإنسان الذي ينشأ محروماً من المجتمع -في ضوء ما قدمناه- من المفترض أن ينشأ «لا شيء»

ويصبح «لا إنسان»، فالمجتمع في الواقع يشكل الإنسان ويعطيه البعد الجديد، فلا يكفي أن يولد الإنسان من أبوين منتسبين لمجتمع إنساني كي يصبح الإنسان عالماً ناطقاً متحضراً، فـ«الثقافة» هنا لا تنتقل عبر الجينات (المورثات)، بل هي أمر كسبي بحت، وهي كذلك حتى اليوم، فلا بد للإنسان من نشأته ضمن مجتمع حتى ينتقل من «معادلته البيولوجية» إلى «معادلته الاجتماعية».

وفي الآية القرآنية إشارة إلى هذا المعنى ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾ (النحل: 78). فالإنسان عندما يغادر رحم أمه إلى الأرض الجديدة يحمل الاستعدادات لا أكثر، أو هي على حدّ تعبير القرآن ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾ (النحل: 78)، أو في مكان آخر ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ (الشمس: 7). فالنفس الإنسانية لها تشكيلة أو تسوية خاصة بها، فأمامها رحلة تطورية خاصة بها يمكن أن ترتفع خلالها أو تهبط، فهذه القدرة «الكُمُونية» (POTENTIAL) هي وضع الفطرة التي أشار إليها الحديث بأن المولود يولد على الفطرة، والذي يتدخل في هذا الاستعداد فيشكل الصورة الجديدة هو المجتمع؛ فالمجتمع هو الذي يمنحنا وجودنا الجديد الذي لا نشعر به بوعي واضح بكل أسف، فنحن ولدنا ولا نعرف كيف تعلمنا الكلام والتصرف والسلوك اليومي، ونظن أننا غريزياً ننظف أنفسنا كما تفعل القطة وهي تلحس شعرها، فالذي يريد أن يغيّر المجتمع عليه أن يفهم أموراً حيوية من مثل: ما هو المجتمع على وجه الدقة وعلى وجه التحديد؟ وكيف يعمل؟ وما هي القوانين التي تتحكم في حركته؟ وهل يخضع لقوانين عموماً؟ وهل يمشي في حركة رتيبة أم حركة ديناميكية متغيرة؟؟ وفي ضوء هذه الأشياء يفهم أيضاً

مرض المجتمع بالطغيان. ولكن قبل فهم سيكولوجية الطغيان علينا أن نفهم الظاهرة النفسية الاجتماعية.

لقد كشفت الأبحاث «الأنثروبولوجية» أن الفرد لن يستطيع النطق واستعمال اللغة بدون الانخراط في مجتمع، وبحرمانه من تعلم اللغة الأولى لن يقدر على تعلم أي لغة أخرى، وبالعكس، فإن تأسيس اللغة الأولى سيمنحه تعلم لغات جديدة بدون حدود، بل إن تعلم كل لغة جديدة يسهل عليه تعلم لغات أخرى خلافاً لما يظن البعض أن الدماغ سيحتشد باللغات، بل ويتمكن الدماغ الانتقال بسهولة من لغة إلى أخرى، تماماً كما في الـ«دوس» (DOS) في الكمبيوتر، فالكمبيوتر يمكن أن يتقبل أي لغة على الإطلاق، وبذلك أمكن إنطاقه باللغة الإنكليزية والإسبانية والعربية وسواها، وهذا ينطبق أيضاً على العقل الإنساني. ويبقى السؤال: لماذا يعجز الإنسان عن تعلم اللغة إذا فاته ذلك في السنوات الأولى من عمره كما حصل مع صبي أفيرون الوحشي الذي تجاوز الثانية عشرة من العمر؟؟!!

يرى العلماء أن سنوات العمر الأولى حتى السابعة قبل دخول المدرسة وبواسطة السمع تلعب الدور الحاسم في تثبيت ملكة اللغة عند الطفل، ولا يعرف على وجه الدقة من الناحية الأنثروبولوجية متى بدأ الإنسان في التصويت واستخدام الصوت في الترميز. ولعل حركات أيدينا ووجهنا أثناء الكلام توحي بوجود بقايا من تلك اللغة القديمة، وهي اللغة التي يستعملها حتى اليوم البكم، كما أن حنجرة الطفل في السنة الأولى من العمر تشبه حنجرة الشمبانزي، إلا أن التطور البيولوجي بعد السنة الأولية هو الذي يمنح حنجرة الطفل

الشكل المتطور الذي يستطيع به التصويت البشري المعهود. والمدرسة تضيف إلى هذا البعد الأساسي تطويراً جديداً هو تعلم الكتابة الذي هو اختراع بشري حديث العهد، فالكتابة قام بتطويرها الإنسان منذ حوالى خمسة آلاف سنة، في حين أن التصويت والترميز يرجع ربما إلى مئات الآلاف من السنوات، فاللغة هي أربع وظائف: وظيفتان أساسيتان وهما السمع والنطق، وهي التي تعتمدها المدارس الحديثة في إتقان اللغة على وجه سليم، ثم الوظيفتان اللاحقتان، أي الكتابة والقراءة (بصوت أو بدون صوت).

والوظيفتان الأوليان مرتبطتان بجهاز السمع، والأُخريان بجهاز البصر، والأوليان أهم بلا شك بدليل نمو الإنسان الأعمى خلاف الأصم. فالمجتمع حين يمنح الطفل اللغة فهو ينقل إليه في الواقع كل محتويات الثقافة، فاللغة هي مجموعة التصورات والمفاهيم، وهي الوعاء الاجتماعي المقدس بكل تراثه وأساطيره وقصصه ومغامراته التاريخية الكبرى، فهي الذاكرة الاجتماعية، فينشأ الطفل متقناً اللغة ومعها كل المقدسات والمحرمات والقيم العليا الموجهة للنشاط الإنساني.

تجربة الأمام الغزالي في اكتشاف قانون الفطرة

في الرحلة العقلية التي خاضها الإمام أبو حامد الغزالي في نهاية القرن الخامس الهجري قصة طريفة جديرة بالتأمل بين الحين والآخر، فالرجل في تعطشه لإدراك الحقائق التي كان مولعاً بها منذ نعومة أظفاره استطاع أن يكسر حاجز التقليد والعقائد الموروثة، كما يذكر ذلك بشكل مفصل في كتابه «المنقذ من الضلال»، وتجربته في الواقع جديرة بوضعها تحت مجهر التحليل، فوقف أمام ظاهرة «الفطرة» فقال: «إذ رأيت صبيان النصارى لا يكون لهم نشوء إلا على التنصر وصبيان اليهود لا نشوء لهم إلا على التهود وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلا على الإسلام، وسمعت الحديث المروي عن رسول الله (ص) حيث قال: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه»، فتحرك باطني إلى طلب حقيقة الفطرة الأصلية وحقيقة العقائد العارضة بتقليدات الوالدين والأستاذين والتمييز بين هذه التقليدات وأوائلها تلقينات وفي تمييز الحق منها عن الباطل اختلافات، فقلت في نفسي إنما مطلوبي العلم بحقائق الأمور فلا بد من طلب حقيقة العلم ما هي؟».

فهنا نرى أثر المجتمع في تشكيل عقلية الإنسان وإعطائه المفاهيم الأولية والقيم الأساسية التي يبني عليها لاحقاً، وهذه شكلت عند الإمام الغزالي مشكلة عقلية كبرى، فطالما لعب التلقين الدور الأساسي في هذه الأفكار كان لا بد من نفض هذه الأفكار وغربلتها من جديد للتأكد من صحتها قبل كل شيء، لأن التلقين يحمل إمكانية نقل الأخطاء، وهذه مشكلة ضخمة في تقدم المجتمع أو تحجره وموته.

ما الذي يفعله المجتمع؟
ما الذي يشكله؟ ما الذي يمنحه؟

وصل العلامة ابن خلدون قديماً إلى هذه الحقيقة، فأمسك بها وسطرها في مقدمته الشهيرة، واعتبر أن «الاجتماع الإنساني ضروري، ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم: الإنسان مدني بالطبع». وعندما أراد تأسيس هذه الفكرة اعتمد قاعدتين، هما ضرورة اجتماع البشر لـ«تأمين الغذاء» وتحصيل «الدفاع عن النفس» كما ذكرنا سابقاً، فلا يمكن تحصيل هذين الأمرين بدون اجتماع الإنسان. وبهذه الفكرة لمس ابن خلدون مفتاح الثورة الزراعية والانبثاق الحضاري في كلمته الأخيرة، لأن تحرر الإنسان من الخوف من الموت جوعاً بفائض الغذاء كان بعد الثورة الزراعية، التي ولدت مجتمع المدينة تلقائياً، التي أفرزت التخصصات، ومنها قيام النظام السياسي ممثلاً في الدولة، التي هي استيلاء شريحة من المجتمع على دفة القيادة والتي ولدت إشكالية تاريخية لا يزال الجنس البشري يعاني منها حتى اليوم، لأن تبادل السلطة السلمي وجو الديموقراطية وتعاون كل شرائح المجتمع في العملية الاجتماعية؛ هي أم المشاكل التي يقوم بتنظيرها الفلاسفة

والمفكرون والمصلحون الاجتماعيون فضلاً عن السياسيين، في محاولة لإدراك الآلية السوية لعملها.

دخول الإنسان مرحلة الخلق الآخر

وإذا كان لا بد من وجود الإنسان في الجماعة للتأمين (البيولوجي) على الشكل الذي شرحه ابن خلدون قديماً، فإن هذا الانضمام يقود إلى التشكيل الثقافي الإنساني وهو الذي عكفت عليه الدراسات الأنثروبولوجية الحديثة، فبواسطة اللغة ونظام الرموز دخل الإنسان مرحلة (الخلق الآخر) الذي أشارت إليه الآية، وهذا يقود إلى مفاهيم خطيرة ومزلزلة، لأنه ومن خلال اللغة يتشكل الإنسان ثقافياً، فيأخذ القيم والعادات والدين، وهذا يعني أن حظوظ الإنسان في الولادة في مجتمع ما، تعطيه -على الأغلب- تشكيله الكامل بغير وعي منه، بل ويتعلق به ويدافع عنه حتى الموت، ولا يقبل أو يريد تغييره أو تعديله، وعندما ألمس هذا الموضوع مع بعض الإخوة أشعر أن الأرض تميد من تحت أقدامهم، فلو ولد أحدنا من رحم امرأة ألمانية أو دانماركية فيا ترى كيف سيتشكل ثقافياً وما هو الدين الذي سيعتنقه؟

إن فهماً من هذا النوع انقلابي تماماً، ويعطي نظرة جديدة إلى الحياة، ويبني روح المسؤولية، وجرأة السؤال، وحرية الفكر، وعدم الخوف من البحث، وإطلاقة الضمير، والتسامح مع التعددية، وهذه الفكرة هي التي زلزلت الإمام الغزالي قديماً حتى كاد أن يموت، ويئس الأطباء من علاجه، عندما دخل دوامة الشك فأصيب بالدوار عندما طرح السؤال: أين الفطرة؟ أين العلم الحقيقي؟ «إذ أقفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس، فكان لساني لا ينطق بكلمة واحدة

حتى أورثت هذه العقلة في اللسان حزناً في القلب بطلت معه قوة الهضم ومراءة الطعام والشراب، وتعدى إلى ضعف القوىٰ حتى قطع الأطباء طمعهم في العلاج، وقالوا: هذا أمر قد نزل بالقلب ومنه سرى إلى المزاج، فلا سبيل إليه بالعلاج، إلا بأن يتروح السر عن الهم الملم».

ضغط المجتمع وعبقرية الأفراد
(هامش الخلاص التاريخي)

وإذا كان المجتمع، وهو يعصر الأفراد ضمن قالب المجموعٍ (نظامٍ الجيش) ويشكلهم على الشكل الذي يريد، فإنه يستخدم ضغطاً ساحقاً لإزالة أي بوادر انشقاق اجتماعية، فهو يتصرف كما يفعل الجسم أثناء نقل الدم أو زرع الكلية، فالمريض الذي ينزف وتصرخ كل خلية بحاجتها إلى الدم قد يصاب بصدمة مزلزلة تقتله إن لم ينقل وفق شروطه البيولوجية الخاصة، وكذلك يرفض الجسم الكلية وهو غارق في الأوساخ والقذارات الذاتية التي تحتاج إلى من ينقيها ويغسل الدم من كل هذه المخلفات اللعينة، يرفض الجسم الكلية إن لم تكن وفق الشروط البيولوجية المناسبة للبدن.

إن الحياة الثقافية هي من نفس النوعية، فالمجتمع يحافظ على مجموعة من القيم والأفكار ويدافع عنها باستماتة أمام أي خطر ثقافي محدق به، بل إن النقل الثقافي بدون شروطه الثقافية قد يؤدي إلى صدمة ثقافية رهيبة، فكما يرتج البدن وترتعش العضلات وترتفع الحرارة وتبدأ الاختلاجات من وراء اختلاف زمر الدم، كذلك تحصل التوترات الاجتماعية والثورات الثقافية والزلازل الاجتماعية حين دخول أفكار جديدة لا يتحملها البدن الاجتماعي وليست ضمن إطار شروط الإدخال الثقافي.

إن فكر المجتمع يتشكل من عطاء الأفراد ونشاطهم وعبقريتهم الخاصة بهم ؛ فهو يستقبل هذه الأفكار ويتبناها، ثم وبضغطه الماحق يقوم بتطبيقها على الأفراد، فليس أمامهم إلا الالتزام بهذه القيم والمحرمات، مع هذا فإن المجتمع لا يتقدم بدون «الطفرات» (MUTATION) الفردية في المجتمع.

يقول بيرسي كوهين في كتابه «النظرية الاجتماعية الحديثة»: «وطبقاً لهذه النظرية يوجد النظام العام في المجتمع بصورة واسعة نتيجة لممارسة القوة، حيث يستلزم إذعان وخضوع بعض الأفراد للبعض الآخر، والأفراد ينفذون ما يُتوقع منهم من أعمال لأنهم أجبروا على فعل ذلك من جانب بعض الأفراد المحتكرين لوسائل القهر والإلزام». وفي الوقت الذي يشذ فيه الفرد عن محرمات المجتمع يقع تحت قانون «الدجاجة المجروحة».

قانون الدجاجة المجروحة في قن الدجاج وطفرة الأفراد

تروي لنا والدة الدكتور الصناديقي في مدينة الملوي المصرية أن الدجاجة التي تلد البيض فتصاب بأي نزف أو جرح بحيث تبصر بقية الدجاجات هذا الدم، فإنها تأتي إلى المكان المجروح فتستمر في نقره حتى تموت الدجاجة المسكينة بيد صديقاتها من نفس مجتمع الدجاج!! لذا تُعزل الدجاجة المجروحة فوراً إنقاذاً لحياتها.

والأفراد الذين يشذون عن القانون الاجتماعي قد يتعرضون للموت في مخالفة قوانينه، والفرد يستطيع -بل يجب- أن يتعرى في الحمام، ولكنه لا يستطيع أن يخطو شبراً واحداً خارج بيته عرياناً!! كل

هذا بسبب الأصول التي تعارف عليها المجتمع ونظام المحرمات. وهو الذي جعل الشريعة الإسلامية تعتمد العرف أيضاً أحياناً كمصدر من عشرة مصادر للتشريع، ولكن المجتمع يسبح في اللحظة الواحدة بين ثبات القيم والأفكار وتطوير الأفكار، وفي ركود الأفكار يتحنط المجتمع ويتحول إلى شكل «مستحاث جيولوجي»!! فيمكن فهم المجتمع إذاً بين الوضع «التشريحي» (ANATOMICAL)، الراكد (الاستاتيك)، وبين الوضع «الفيزيولوجي» المتحرك (الديناميك)، فالمجتمع يبقى على حاله، فلا يتغير إلى قرون إن لم يقم بعض الأفراد في عمل ريادي لتطوير أفكار المجتمع والتحرر من الأفكار السلبية الضارة، وهو الموقف الإبراهيمي في النقاش الذي دار مع قومه حين ركبوا رؤوسهم مع كل وضوح الحجة تحت ضغط الفكرة «الآبائية». فالأفراد هنا يلعبون دور «الطفرة البيولوجية» ولكن في المجتمع، فالطفرة هي ذلك التغير الطفيف نحو الأحسن في التكيف البيولوجي، وهذا هو قانون أنطولوجي وجودي، فالكائنات تتقدم والحياة تتطور، والدول تكبر ويشتد عودها، والجماعات تتسع وتنضج، والحضارات تزدهر وتشمخ، والجنس البشري في مجموعه العام يمشي نحو الأفضل. وكذلك المجتمع، فهو من خلال امتصاص وتبني هذه الطفرات الفردية «المجنونة»!! يكتب له التقدم، فسورة «نون والقلم» بدأت بكلمة الجنون ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ (القلم: 2)، وخُتمت بكلمة الجنون ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ (القلم: 51).

ما هو الجنون؟ ما هو السحر؟
ما هو الشعر؟ ما هي الكهانة؟

ما معنى الجنون؟ ما معنى السحر؟ ما معنى الشعر؟ ما معنى الكهانة؟ إلى ماذا ترمز هذه الكلمات؟ لقد كانت كلها تهما سُلّطت

على نبينا محمد (ص)!! ونال كل الأنبياء والمصلحين الاجتماعيين ورواد الفكر والفلاسفة والعلماء وأصحاب الأفكار الانقلابية نصيباً من هذه التهمة تزيد وتنقص!! لماذا يا ترى؟ وماذا يكمن تحت هذه الكلمات؟؟!!

الجنون هو الانفكاك عن الواقع! السحر هو التأثير المدهش بدون حدود على العقول! والشعر هو ذلك القول المفرز من الروح في غاية الدقة والجمال والتوازن والرشاقة وكأنه أغنية كونية تنساب من تضاعيف الوجود، والكهانة هو القول غير المفهوم، وهي حالة الأفكار الجديدة التي تهجم على العقل فيصاب بصدمة فلا يفقهها من أول نطق.

كان الفيزيائي المشهور «نيلز بور» يناقش زميله الألماني «فولفجانج باولي» عندما شرح له فكرته: لا... لا... إن الفكرة غير صحيحة، إنها لا تحتوي قدراً كافياً من الجنون! ويجيب «باولي»: أقسم لك يا سيدي إنها تحمل من الجنون الكفاية!

ولو لم يعرج بالرسول (ص) لينفك عن الواقع ويراه بصورة ثانية لما تهيّأ لاستقبال الوحي.

وبعد الاستعراض التاريخي لفك إشكالية الفرد والمجتمع، وكيف تورط الجنس البشري في وضع يديه في القيد الاجتماعي كمخرج لا مفر منه، نكون قد حررنا ثلاث نقاط، ووضعنا أيدينا على العين الحمئة التي ينبع منها الطغيان:

(1) الإنسان كائن اجتماعي ولا يصبح الإنسان إنساناً بدون مجتمع.

(2) المجتمع هو الذي يغير معادلة الفرد من مادة خام إلى كائن اجتماعي، فيتبرمج الفرد، وهنا يبقى هامش الحرية محدوداً، وهي مفاجأة لمن لم يشتغل على الموضوع ويظن أن الفرد يتمتع بكامل حريته. وهي القضية التي كرس لها عالم النفس السلوكي «سكينر» كتاباً كاملاً بعنوان «ما خلف الحرية والكرامة»، وترجم إلى اللغة العربية بعنوان «تكنولوجيا السلوك الإنساني» ونشر الكتاب في سلسلة كتب عالم المعرفة الكويتية.

وسوف أفصل بعد قليل فكرتي عن هامش الحرية الفردية والتطور الاجتماعي، وهي فكرة مفصلية تأسيسية.

(3) الاجتماع الإنساني يشكل ضرورة. ولكن الإنسان من هذا الاجتماع يستفيد ويدفع ثمناً باهظاً من حريته. ومن هذا الاجتماع غير السار والذي لا مفر منه تم تقييد الإنسان وحشره في مجتمعات الديكتاتورية.

وللخروج من هذا النفق سوف أحاول في النهاية أن أشير إلى محاضرة «رياض الترك» التي ألقاها في مونتريال في الأول من أكتوبر من عام 2003، وكنت حاضراً فيها وكتبت عنها مقالة في جريدة الشرق الأوسط بعنوان «سفر الخروج من نفق الديكتاتورية إلى فضاء الحرية»، واستعرت كلمة سفر الخروج من خلاص بني إسرائيل من فرعون وتسجيل ذلك في التوراة بمقطع توراتي متميز بعنوان «سفر الخروج». ومن عانى من الديكتاتورية يعرف قيمة هذا المعنى. ولذا كانت الكتب المقدسة عموماً كتب تحرير للإنسان ما لم يتدخل على تفسيرها الكهان فيحولوها إلى سجون جديدة، من حيث جاءت

لتخليص الإنسان من عبودية العباد إلى عبودية الله رب العباد. وإلا كيف نفسر توطن الديكتاتورية في العالم الإسلامي؟

ولشرح فكرة هامش الحرية وجدلية تطور المجتمع بين الضغط الاجتماعي والإبداع الفردي فسوف أعرض لفكرة السجون الأربعة، وهي فكرة متألقة وجميلة.

السجون الأربعة

نحن نولد مسجونين بحكم مؤبد في قفص البيولوجيا، مربوطين إلى سلاسل النسبية للبعد الرابع (الزمن). أسرى في أغلال الثقافة وإكراهات المجتمع المتتالية. نحن خلقناهم وشددنا أسرهم. ندخل أجسادنا فنتسربل فيها محكومين بالجينات تشكل قدرنا من صحة ومرض وجمال وتشوه. و«الجينات» هي الشيفرة السرية للخلق تعطينا لون العينين وطول القامة وقسمات الوجه ولحن الصوت، كما تحدد طول العمر من خلال ساعة مبرمجة على رنين منبه الموت مع كل انقسام كرموسومي. والجينات في الخلايا تحدد العمر والاستعداد لمرض السكر والميل للتسرطن وخلل فقر الدم المنجلي.

نحن سجناء عالم بيولوجي بقفل أثقل من نجم نتروني في قدر لا فكاك منه. علينا أن نتنفس وإلا اختنقنا، أن نأكل ونشرب وإلا هلكنا، وأن نمارس الجنس وإلا انقرضنا، يطحننا المرض وتفترسنا الشيخوخة. علينا أن نمشي على الأرض بقانون الجاذبية فلا نستطيع الانتقال بسرعة الضوء في استحالة يفرضها قانون النسبية باستهلاك طاقة لانهائية وتوقف كامل في مربع الزمن.

نحن نرزح تحت ثقل قوانين الفيزياء تحكم بقبضتها على رقابنا في أغلال إلى الأذقان فهم مقمحون. نحن نأتي إلى الحياة بدون إرادتنا، ونخرج منها بدون إرادة ورغبة بعد أن ذقنا حلاوتها، في نقطة ضعف تسلل منها الجبارون لمسك رقاب العباد.

نحن نولد في «عصر» نعيش ثقافته لا نتحكم في وقت المجيء إليه في ثانية واحدة منه تقديماً وتأخيراً، تدفعنا يد جبارة إلى مسرح الأحداث فنشارك على خشبة مسرح، ثم ينتهي دورنا فنمضي وندلف إلى مستودعات النسيان فلا تسمع لهم ركزاً.

اعتبر الفيلسوف الفرنسي «باسكال» أن الإنسان يسبح في اللحظة الواحدة بين العدم واللانهاية، فهو كل شيء إذا قيس بالعدم، وهو لا شيء إذا قيس باللانهاية، وهو بعيد كل البعد عن إدراك الطرفين؛ فنهاية الأشياء وأصلها يلفهما سر لا سبيل إلى استكناهه، وهو عاجز عن رؤية العدم الذي خرج منه واللانهائي الذي يغمره.

نحن لا نستطيع ركوب آلة الزمن فنعود إلى زمن الأنبياء، كما لا يمكن القفز فوق حاجز الزمن فنعيش بعد ألف سنة. نحن محكومون بأجل لا فكاك منه، وزمن نعيشه مفروض علينا لا يخترق إلا بطريقة واحدة: الخيال. هكذا تصور دافنشي الطائرة، وكتب جول فيرن قصة عشرين ألف فرسخ تحت الماء، ورفض المسيح (عليه السلام) مملكة بيلاطس بقوله: مملكتي ليست من هذا العالم.

نحن أسرى «ثقافة» ننتسب إلى حوض معرفي يبرمج عقليتنا، ويمنحنا الدين الذي نمارس طقوسه، ويشكل شجرة المعرفة عندنا محروسة بلهيب نار وسيف يتقلب. نحن نستحم فنخلع كل ملابسنا،

ولكننا في الشارع نلبس كل الملابس، تحت مفهوم اجتماعي هو ستر العورة. المجتمع يمنحنا الدين فنعتنقه. من يولد في بافاريا في جنوب ألمانيا قد يخرج كاثوليكاً، ومن يولد في طوكيو قد يكون من جماعة سوجو جاكا البوذية، ومن يولد في جنوب العراق قد يكون شيعياً.

كذلك كان الانتساب إلى منطقة ما قدراً ندفع فيه الثمن من مصائرنا؛ فمن يولد في الربع الأخير من القرن العشرين في راوندا يهرس كموزة في حقل في الحرب الأهلية، أو يمشي بساق خشبية وذراع معدنية في أفغانستان، ومن كان ألبانياً في التسعينات من القرن العشرين في كوسوفو يخسر كل شيء ليقرر مصيره أساطين السياسة في لوكسمبرغ، أو يعتلي صهوة سيارة «جيمس» في الخليج، ترجع رفاهيته إلى صدفة جيولوجية أكثر من عرق الجبين، ومن يحالفه سوء الحظ فيولد في بعض مناطق العالم العربي قد يكون رهين الاعتقال لأنه فتح موقعاً للمعارضة على الإنترنت، لا يرى خروجاً من ظلماتٍ بعضها فوق بعض. يعيش حالة استعصاء ثقافية بدون أمل في الخروج من النفق المسدود، لا يستطيع فتح فمه إلا عند طبيب الأسنان، أو هارباً خارج وطنه بجواز سفر من الدومينيكان أو الأرجنتين، أو لاجئاً سياسياً في السويد وألمانيا، أو مهاجراً كندياً إذا أسعفه الحظ والمال، أو قد يكون من السعداء النجباء من شريحة الـ 5٪ له كل المال وكل الامتيازات، يساق له رزقه رغداً بالعشي والإبكار، في بلد هي مزرعة له ولعائلته وللعصابة من أوغاد السلطة.

مع هذا فإن هامش الحركة في «المكان» و«لفكر» و«اللغة» أفضل من البيولوجيا؛ فقد يفر عراقي إلى بريطانيا مبدلاً وطنه، وقد يعتنق

فنان بريطاني الإسلام مغيراً عقيدته، كما قد يتعلم طبيب أردني يختص في الغرب اللغة الألمانية، ويرتفع الإنسان بالعلم بدون حدود فيتخلص من الطبقة والفقر.

نحن نظن أننا أحرار في المجتمع، وهذا أكبر من هلوسة؛ فنحن في الواقع مكبلون بأشد من أصفاد اليدين والرجلين؛ فالوسط ينحت لغة الطفل في تلافيف الدماغ، وآباؤنا يحددون لنا القدر البيولوجي لأجسادنا، ومعها المجال مفتوح لكل الاحتمالات والاستعدادات. والمجتمع يهبنا المعادلة الاجتماعية بعد البيولوجية، فيجعل من الفرد بشراً سوياً، كما يفرض علينا السلوك السوي، ويعاقبنا إذا خرجنا عن القانون بأشد من معاملة الدجاج وهي تبصر الدم في دجاجةٍ مجروحةٍ فتنقرها حتى الموت، وعندما يشذ الفرد عن القطيع يعامل بالسخرية والأذى والاتهام بالجنون والنفي على ثلاثة أشكال: من ظهر الأرض إلى الدفن في قبر السجن، ومن دفء الجماعة إلى برد العزلة، أو من شاطئ الحياة إلى سفينة الأموات مع أنوبيس في العالم السفلي.

هامش الحرية -كما نرى- كالصراط يوم القيامة، أرفع من الشعرة وأحدّ من السيف، ونحن نعيش إكراهات متتالية من المهد حتى اللحد، في قبضة «الجينات» وزنزانة «الزمن» وقفص «الثقافة» ومعتقل «المجتمع». نعيش خلف أسوار تطوقها أسوار وقضبان أربع مرات.

مع هذا فلا يتقدم المجتمع إلا بهامش الحرية الضئيل هذا من خيال الأفراد المبدعين، يتجاوزون بخيال مجنح إشكاليات القضبان والمعتقلات، فيتنسم في حديقة الدماغ رؤى المستقبل في إمكانيات جديدة، واختراعات مبتكرة، ونشأة محدثة في تطور سفر الإنسان.

وعند هذه الزاوية الضيقة تتشكل جدلية الحركة بين ثبات المجتمع كعلاقات تشريحية وحركته كفيزيولوجيا وتطور.

العقارب تعيش على ظهر البسيطة بدون تغير يذكر في نمط حياتها منذ 400 مليون سنة. ولكن الحيوانات محكومة بنسيج فولاذي آسر للتصرفات تعيد دورة إنتاج نفسها برتابة بدون أي تقدم، مثل القطار المحكوم بالمشي على القضبان لا يخرج منها إلا إن أراد أن يواجه حادثاً مروعاً.

العجل يمشي بعد الولادة بساعات، والأرانب تنضج في شهر فتسعى، ويبقى الإنسان الكائن الوحيد الأضعف طراً في مملكة الحيوان، ولكن الفرد يمتص خلال سنوات قليلة خبرة كل الجنس البشري المتراكمة في ثلاثة ملايين من السنين؛ فينطق ويحمل الكراهيات وأخطاء الثقافة من خلال ثلاث لغات متتالية: «سيميائية» من تكشيرة الوجوه وحركات اليدين، و«صوتية» بالصراخ أو الاستحسان، وثالثة بـ«الكتابة» وهي القشرة السطحية لنقل النظام المعرفي، وتبقى الطبقات الكتيمة العفوية من التشكل الآركيولوجي الثقافي خلف الكثير من سلوكنا اليومي.

نحن والحيوانات نعيش على ظهر الأرض منذ ملايين السنين، ولكن الإنسان وضع قدمه على القمر، ونزلت مراكبه على سطح المريخ، ويرسو اليوم على ظهر الكروموسومات؛ فيكتشف أسرار الشيفرة السرية للوراثة وتصرفاته الحافلة بالأسرار، ويعرف أن 95٪ من حركة الإنسان يقودها «لاوعي» أعمى.

ثقب العين صغير ومنه يرى الإنسان العالم، ومن هذا الثقب لا يرى إلا الضوء العادي في شق ضيق من عالم فسيح من طيف الموجات، ما يرى منه عشر معشار ما لا يرى، لم يكن غريباً أن أقسم القرآن على ما تبصرون وما لا تبصرون.

ومع كل هذه المحدودية للرؤية فإنه يفهم قوانين الكون ويطور ببصيرته بصره، فيرى توهجاً لامعاً للنجوم من عمق المحيط الكون على مسافة تسعة مليارات سنة ضوئية، ويسحق الزمن إلى الفيمتو ثانية، ويكشف عن المكونات دون الذرية من الكواركز واللبتونات، ويعرف أن الإنسان بدأ حياته قبل أكثر من سبعة ملايين من السنين.

الإنسان كمبيوتر مختزل لكل الوجود في داخله، يحمل إمكانيات تطور بدون توقف، نفخ الله فيه من روحه. ففيه شريحة كمبيوترية من روح الله إن صح التعبير، مزود بوثيقة وكالة عامة من الخالق لاستخلاف الكون.

كان الفيلسوف إقبال يناجي ربه حزيناً عندما يرى الظلم الفادح في الحياة وقصور العدالة الأرضية فيقول: يا رب هذا الكون لا يعجبني!

فيأتيه الجواب: اهدمه وابْنِ أفضل منه.

ومن الجميل أن نذكر التعليق على محاضرة الترك في سفر الخروج من نفق الديكتاتورية إلى فضاء الحرية، وهو قد يكون من الأفضل أن يذكر في النهاية عند حل إشكالية الطغيان، ولكن حتى يتمتع القارئ بما حدث في مونتريال من كندا. وها هو تعليقي على محاضرته عن سفر الخروج:

سفر الخروج من نفق الديكتاتورية إلى فضاء الحرية

في الأول من أكتوبر 2003 كان السياسي المخضرم «رياض الترك» يناقش في أقصى الأرض معضلة الاستبداد في أدنى الأرض.

كان رياض الترك يتكلم في مدينة «مونتريال» الكندية في صالة «القناطر» إلى جالية عربية فرَّت من سفينة العروبة الغارقة إلى شاطئ الحرية بين جريح وكسيح. واجتمع في هذا اللقاء طيف متناقض من الأديان واللهجات والأحزاب يحدوهم سؤال واحد: أين الخروج من نفق الاستبداد؟

و«رياض الترك» يرى أن هناك استعصاء في الحالة العربية، فالنظام الشمولي الذي أشرف على بنائه مجرمون محترفون «نظام غير قابل للإصلاح»!

ورياض الترك يرى ثانياً أن ما يحكم النظام الشمولي «توازن الضعف»، فالحكومة ضعيفة عاجزة، والمعارضة مفككة، وكل تغيير وزاري هو تقليع موظف انتفخت جيوبه بالرشوة إلى موظف جديد فارغ الجيب، والشعب ينتظر الخلاص بالدعاء واللعنات، مثل من يريد إطفاء حريق هائل بالاعتماد على سحابة صيف عابرة.

ورياض الترك يرى ثالثاً أن النظام الشمولي ظاهره الرحمة وباطنه العذاب. فهو يلعن أمريكا جهراً بقدر ما يتعاون معها سراً. والمهم أن تبقى العصابة في الحكم بأي ثمن ولأطول فترة.

ورياض الترك حنَّكَته الأيام والسجون، فهو طلَّق الشيوعية الستالينية مع «المعلم» بكداش، ولم يعد يأبه بالاشتراكية، ويعتبر أن «أم المعارك» في الشرق المنكوب هي معضلة «الاستبداد»، ولكنها مشكلة تشبه حالة المريض المصاب باليرقان في قرية اجتمع عليه الفلاحون وقرروا أن سبب الإصابة فزع ألمّ به، وحتى يزول المرض فلا بد من إدخال فزع أعظم عليه، كي يشفى من علّته.

وفي يوم كتب الكواكبي قبل قرن كتاباً كاملاً عن «طبائع الاستبداد»، وهو موجود في كل المكتبات العربية بدون أن يستفيد منه أحد بشيء، كمثل الحمار يحمل أسفاراً.

كما أنه يذكِّر بكتاب «العبودية المختارة» الذي كتبه الشاب الفرنسي «أتيين لا بواسييه» عام 1562، وتُرجم بعد أربعة قرون ونصف إلى اللغة العربية. وهذا الفيلسوف قام بتشريح مذهل لآلة الطغيان وكيف تعمل. وأن الطاغية لا يعمل منفرداً، بل تتعاون معه عصابة قليلة العدد تتقاسم معه الأرباح والجريمة، كما فعل صدام حينما قتل الرفاق بيد الرفاق، وأن هذه العصابة لا تتجاوز في العادة العشرة، تعمل بينها بتنسيق ونظام داخلي في ما يشبه المجلس الملّي السري، وأن كل فرد منهم مرتبط بعشرة، وكل بدوره «يتمفصل» مع عدد أكبر، بحيث تتشكل آلة جهنمية في النهاية مثل شبكة العنكبوت تتحرك بإرادة العصابة كما يفعل الدماغ مع الشبكة العصبية في الجسم.

وفي القرآن قصة تعطي هذا الوصف عن الرهط في المدينة ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ﴾ (النمل: 48)، أنهم تقاسموا (بالله) على قتل (نبي الله) وأنه سيحلفون بعد الاغتيال أننا ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (النمل: 49).

ورياض الترك دعا إلى التغيير الديموقراطي بعد أن قال إن النظام الشمولي نظام غير قابل للإصلاح، فكان مثل القديس الذي يخاطب مجموعة من الأوغاد أن يتحوّلوا إلى أنبياء.

ومشكلة النظام الشمولي أنه يشبه البالونة المنتفخة، إذا انثقب في أي مكان انكمشت وتحوّلت إلى قطعة تافهة من المطاط. وحتى ذلك الوقت يموت الناس بالجملة والمفرق.

وفي يوم قفز جندي بين حدود بلدين ثوريين من نفس الحزب لرؤية قريب له، فكانت قفزته إلى النار، فسلمه والده إلى المخابرات دفعاً للشبهة، ولكن التحقيق والتعذيب امتدّا ثلاث سنوات ليخرج الشاب المرح شيخاً محطماً، استبدل جلده بجلد السناجب من شدة لسع الكهرباء وإطفاء السجائر فيه، أقرب إلى الجنون، صامتاً لا ينطق بحرف مما جرى معه، مذهولاً عما حوله، سادراً في بؤس وشقاء لا نهاية لهما. وفي النهاية لم يعد يطيق الحياة أو يجد لها معنى، فقام بمباشرة طقوس الموت، وخلع نعليه وألقى بنفسه في بئر عميقة، فمات غريقاً جريحاً مختنقاً، ولم يستطع والده أن يخرجه منه إلا بحفر بئر موازية لمدة ثماني ساعات وهو ينتحب ويبكي ويضرب رأسه طوال الوقت. فهذه هي بركات الأنظمة الثورية الشمولية.

وفي محاضرة الترك تبارى المتحدثون بين غاضب، وحزين، وناقم، ويائس، ومتفائل بالقانون الأخلاقي، ولكن قانون التاريخ يمشي بقوته الذاتية ولا يأبه لكل ما نقول. والأمم لا تتعلم بالكلمات بل باللكمات.

وحاول الكواكبي قبل قرن أن يضع ثلاث معادلات للخلاص من الاستبداد: أن الأمة التي لا تشعر بالحرية لا تستحقها؛ وأن التغيير يتم بالتدريج واللين؛ وأنه ليس المهم استبدال الحاكم، بل فرملته، وما لم يكن البديل جاهزاً فلا معنى للتبديل. فننتقل من الديكتاتورية إلى الفوضى كما يحصل في العراق حالياً. والتخلص من الاستبداد هو نصف المشكلة، والأهم البديل.

ومشكلة الطغيان هي ليست بقتله لأن من أخذ بالسيف بالسيف يهلك، ومن أزال القوة بالقوة استبدل فرعون بهامان وصدام بمصدوم.

وفي محاضرة الترك قام شاب فقال: أنا لا أؤمن بدين ولكن لا مانع عندي من تولي الإسلاميين الأمر. ولكنه قد يستبدل السل بالإيدز والصداع بالمغص.

والقرآن أرشدنا إلى أن التخلص من الطاغية ليست بقتله، بل بعدم طاعته. ولكننا ندخل مشكلة جديدة كما صوّرها كتاب «جدار بين ظلمتين» للزوجين العراقيين «رفعة الجادرجي» و«بلقيس شرارة»، فالرجل اعتُقل بكلمة وأطلق بنصف كلمة من فم طاغية دجلة. لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب. فأصبح مصير المهندس اللامع في السجن يفترسه القمل الأبيض والأسود، مما دفعه أن يخلع ملابسه

ويلتحف ببطانية قذرة، ولما اهترأ سرواله من الخلف لم يبقَ ما يحمي عورته من الإمام إلا خرقة بالية. والطغيان وباء فيقتل الأمة قتلاً. والموتى يبعثهم الله. وإذا أصاب هذا الوباء أمة حولها إلى قطيع من البؤساء اليائسين الخائفين المتملقين.

وهذا المرض ليس عربياً، بل هو إنساني. ويروي «هانس آبل»، السياسي الألماني المخضرم، عن هامبورج في الحرب العالمية الثانية أن الحلفاء قتلوا في أسبوع بالقصف الجوي ثلاثين ألفاً، وهدمت منازل أكثر من 800 ألف من السكان، وعندما حضر مارشال الجو «غورنج» لتفقد المدينة حيّته الجماهير «بالدم بالروح نفديك»، فالرعبُ أخرسَ الأفواه.

ويبدو أن قانون الطغيان مثل العصور الجيولوجية، فإذا انتهى الأجل ذاب الثلج وبزغ الربيع. وعندما مات «برجينيف» لم يصدق الناس، وعندما انفلت تابوته وهو يدلى إلى حفرته وقع فتحطم فلم يكترث إنسان وألقوه حطاماً. وما حدث للاتحاد السوفياتي الذي وُضع في براد الموتى حصل نظيره للأنظمة الثورية العربية التي ماتت اليوم، وشيعت جنازة البعث إلى مثواها الأخير، والبقاء لله العلي القدير.

والديكتاتورية تشبه الشجرة، يسهل اقتلاعها في أول نموها ويستحيل في أوج قوتها، ثم تدخل دورة الحياة، فتشيخ وتجف، فتسقط بضربة صغيرة كما في دابّة الأرض التي أكلت منسأة سليمان فخرّ إلى الأرض.

ونحن في العالم العربي نعيش حالياً مرحلة انتقال الأنظمة الشمولية إلى خريف العمر. ولا يعني التخلص منها أن شمس

الديموقراطية سوف تشرق علينا، بل الأرجح أننا سندخل مرحلة الفوضى كما هو الحال في الصومال والعراق وأفغانستان، فلم يبق دولة أو بنية تحتية. وقد يطول هذا قرناً من الزمان، تنمو خلالها أنظمة راديكالية أصولية تمتاز بالعنف دون القدرة على إنشاء نموذج حضاري. وعندما تصاب الأمة بالإحباط والفشل تميل إلى التشدد من أجل وضع قدمها على أي مربع ثابت في عالم الدوار والاهتزاز. وأثناء هذا سوف تدمر إسرائيل بعد أن انتقل الصراع من خارجها إلى داخلها كما في انتقال المرض من التهاب الجلد إلى المغص الكلوي، فلا يستويان مثلاً.

وهذا يعني بكلمة ثانية أننا أمام ثلاثة فصول: انتهاء الديكتاتوريات المتفسخة حالياً؛ وسطوع نجم أنظمة شمولية متشددة للخارج عاجزة في الداخل، ومعه ستدمر إسرائيل تدميراً؛ ثم ندخل عصر الظلمات الخاص بنا. ومن رحم الظلمات قد يولد فكر تنويري جديد. وسبحان من يخرج الحي من الميت ذلكم الله فأنى تؤفكون.

ومن هذا العرض الفلسفي نخلص إلى أن المجتمع الإنساني يتطور خلاف كل المجتمعات والأمم الأخرى من دواب وطير. والطغيان هو مرض اجتماعي بأخذ فرد أو مجموعة من حقوق الآخرين أثناء هذا الاندماج الاجتماعي. وحين تعلن الانتخابات في العالم العربي أن رئيس جمهورية أوحد نال 97٪ من الأصوات بدون منافس فهذا معناه أن الأمة المكوّنة من ملايين الأشخاص أصبح حجمها 3٪، وأن هذا الفرد الوحيد ابتلع كل الأمة والدولة وأصبح حجمه 97٪ مقابل الملايين، وهو ما يذكّر بعالم «جوليفر» العملاق بين الأقزام في دولة «ليلي بوت»، أي أن الفرد هنا أصبح ديناصوراً، وأن بقية الأمة استحالت إلى نمل

وحشرات تدب على الأرض بذل وفقر. وانقلاب النسب بهذه الطريقة لا يبقي الحاكم حاكماً ولا الأمة أمةً. وعندما تكون نسبة انتخابات صدام 100٪ فهذا يعني أنه مسح الأمة كلية، ومن مسح الأمة مسخ نفسه، فاستحال فأراً يُنتشل من حفرة قذرة، كما كانت قصة اصطياد صدام على الطريقة التي رأيناها على يد الأمريكيين.

وليس الغريب في نهاية صدام، ولكن الغريب تطوع قبيلة كاملة من المحامين الأردنيين للدفاع عن قضية مفلسة مثل الطاغية صدام، وهو يقول: إن في صدر الكثير منا صدام جاهزاً للانقضاض. فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور. وهو يقول أيضاً: إننا نستحق صدام. أو كما يقول «عبدالرحمن الكواكبي» في كتابه «طبائع الاستبداد» عن قوانين تغيير الاستبداد: «إن الأمة التي لا تعرف الحرية وتعشقها لا تستحقها».

وأمام هذه النقطة من الجميل أن نتناول شرح ثلاث أفكار: ظاهرة الانتخابات والمؤتمرات في العالم العربي، والظاهرة «الصدامية» مائة بالمائة 100٪، وأخيراً حقيقة «صدام»، وهي رواية كل طاغية في عالم العربان. وسوف نشرح كل فكرة على حدة.

الانتخابات والاجتماعات والمؤتمرات في العالم العربي

في عام 325 للميلاد حصلت أزمة عقائدية في العالم المسيحي بعد فوز المسيحية بالحكم والإطاحة بالنظام القيصري. فبعد أن زال الاضطهاد اختلف حراس العقيدة حول الشخصية الجوهرية في المسيحية هل هو إله أم بشر. ومن أجل هذا دعا الإمبراطور قسطنطين، لحل هذه الإشكالية، إلى مؤتمر في نيقية حيث تركيا الحالية، فاجتمعت نخبة الأدمغة العقائدية من الحزب الجديد للتعريف بحقيقة المسيح.

كان عدد مفكري وقساوسة العالم المسيحي المجتمعين من كل أصقاع الإمبراطورية 2048 مفكراً، ولكن ما خرج به المؤتمر، حسب ما جاء في كتاب «تاريخ الأمة القبطية»، هو ما قرره سيف الإمبراطور، حيث اقتنع بفكرة مجموعة بلغ عددها 318 تقول: «إن الجامعة المقدسة والكنيسة الرسولية تحرّم كل قول بوجود زمن لم يكن ابن اللّه موجوداً فيه، وإنه لم يوجد قبل أن يولد، وإنه وجد من لا شيء، أو من يقول إن الابن وجد من مادة أو جوهر غير جوهر الأب، وكل مَن يؤمن أنه خُلق أو من يقول إنه قابل للتغيير ويعتريه ظل الدوران». وبذلك خلقت الكنيسة من البشر إلهاً متعالياً مع أنه لا يوجد نص واحد في الإنجيل يصرح بهذا.

وهناك من اعترض في المؤتمر مثل آريوس على هذا الاختلاق، ولكنه أُخرس ضرباً بالعصي على الوجوه والأدبار، ثم تمّت إدانته بمجمع لاحق، ولوحق وأتباعه وكتبه في كل الإمبراطورية. فهذه هي سخرية التاريخ.

وفي معركة صفين تواجه فريقان: من قضى عمره في بناء الإسلام، ومن أنفق عمره في حرب الإسلام، ولكن من ربح لم يكن أنزه الطرفين، ورفع المصاحف على رؤوس الرماح كي يعطل المصحف.

ونحن نعرف في الكيمياء العضوية أن الفرق بين الترياق والسم هو في قلب بسيط في تركيب المادة بدون إضافة على المادة، وأن الفرق بين الفحم والسكر والألماس هو طبيعة تراص الذرات الداخلي، ومنه نذوق الحلاوة، أو يتلألأ الألماس، أو يوسخ الثياب «شحار» الفحم. والفرق بين البشر والشمبانزي في الكود الوراثي (DNA) لا يزيد عن 1٪، مع هذا فمن هذا الفرق يخرج بنو آدم مكرمين أو قردة خاسئين.

وفي عام 1816 دخل إبراهيم باشا، ابن الثعلب الكبير محمد علي باشا، الذي خلف نابليون في مسك رقاب المصريين، فجاءته التعاليم السلطانية من خليفة رب العالمين السلطان العثماني محمود الثاني بالقضاء على الوهابية في جزيرة العرب، فدخل الدرعية بالمدافع والسيوف، ثم تظاهر بأنه يريد جمع شمل المسلمين، فدعا إلى مؤتمر عام في الدرعية في الجامع الكبير حضره 500 من علماء الوهابية وفريق من علماء الأزهر المصريين، ودام الاجتماع ثلاثة أيام وإبراهيم باشا ملتزم بأدب الحوار، فلم ينبس ببنت شفة سوى أنه كان يتلمس مقبض سيفه. وفي اليوم الرابع قال لشيخ الوهابية باللهجة

المصرية: أيها الخنزير، أترى أن دينك هو الصحيح والوحيد؟ قال: نعم. عندها التفت إليه كما يذكر «الوردي» في كتابه «تاريخ العراق الحديث» فقال: أليست الجنة عرضها السموات والأرض؟ أفلا يوجد مكان لآخرين من غير شيعتكم؟ ثم حل الخلاف بسرعة بالطريقة العسكرية، فأمر بذبحهم من الوريد إلى الوريد جميعاً ودفنهم في حفرة جماعية في صحن المسجد بما يذكّر بالبوسنة.

وفي عام 1755 اهتزت الأرض في لشبونة ومات في عيد «كل القديسين» بضربة واحدة أكثر من ثلاثين ألف ضحية أوحت لفولتير أن يكتب قصته الرائعة «كانديد»، فصرخ المغاربة أن الله انتقم لهم من محاكم التفتيش، ولكن أكبر مسجد في الرباط خرّ على وجهه بنفس الزلزال. أما البروتستانت في بريطانيا فقد أثلج صدورَهم ما حصل، وقالوا: كانت إرادة الله هائلة في البطش بهولاء الكاثوليك. ولكن لم يطل الوقت كثيراً، فبعد 18 يوماً قُتل من البروتستانت أكثر في مدينة بوسطن بزلزال أعتى.

وفي حرب عجفاء دامت ثماني سنوات بين العراق وإيران، هلك فيها مليون إنسان وكانت الخسارة 400 مليار دولار، كان صدام يسمي معاركه «القادسية» و«الأنفال»، وكان الإيرانيون يسمونها «بدراً» و«كربلاء»، وفي النهاية أباد صدام الإيرانيين بالغازات السامة بمساعدة أمريكية في حملة «الساجدات العابدات».

والكل يوظف الله إلى جانبه مسلَّحاً بالأدلة العقلية والنقلية، والفقهاء منهم من اشتُروا بدراهم معدودة، ومنهم من لا يفقه من الفقه سوى عمامة كبيرة. وهناك من رفع اسم الله على علمه، وهناك

من احتكر اسم الله لحزبه. والله غير حزبي، ولا يعترف بالحزبيين أكثر من كونهم زبراً كل حزب لما لديهم فرحون.

وفي حرب الخليج الثانية اجتمع فقهاء الحركات الإسلامية في جدة وبغداد، وكلٌّ جنّد الكتاب والسنّة في جيشه. ولكن الذي حل المشكلة لم يكن الكتاب والسنّة، بل روما باللجيونات وصواريخ البلطة.

وفي عام 1975 اجتمع الشاه وصدام في جو حميم من العناق والقهوة، ووقعا اتفاقاً أن يقتسموا شط العرب بينهم بالسوية. ولكن الاتفاق لم يساوِ الحبر الذي كتب فيه. وفي سبتمبر من عام 1980 زحفت 11 فرقة عسكرية إلى إيران من أصل 12 فرقة يملكها العراق على أمل أن يصبح بطل الأمة العربية، ولكنه كُتب الآن في الأذلين ويوم القيامة هو من المقبوحين.

وعندما دعا محمد علي باشا المماليك إلى سهرة عائلية لم يرجع منهم أحد إلى عائلته. وعندما زحف أبو ليث الصفار باتجاه بغداد، وكان زعيم العيارين في خراسان، قيل له: اتقِ الله في بيعة الخليفة، فنادى أحد أصحابه الأشقياء، فقال: هات لنا عهد الخليفة نقرأه على الناس، فأحضر له سيفاً ملفوفاً بخرقة، فأشهره ثم صاح: هذا ما أجلسَ الخليفة في بغداد على عرش الخلافة، وهو الذي جعل مني سيد العيارين.

وفي عدن ذبح الرفاقُ الرفاقَ في اجتماع حزبي، ومن تبقى خرج يزحف كالسلحفاة. وفي بغداد قتل صدام كل القيادة الحزبية من الرفاق المناضلين مصوراً بشريط فيديو مثل حفلات أعياد ميلاده.

وعندما اجتمع صدام مع الملا مصطفى البرازاني لحل الخلافات نشبت المعركة في نفس الغرفة بالقنابل والسكاكين، ونجا البرازاني بأعجوبة. ولم تجتمع قريش في تاريخها إلا لقتل النبي، ولم تحصل وحدة عربية إلا في معركة الخندق لإبادة الإسلام وأهله. ويقول «ابن خلدون» في «المقدمة» إن الخراب يسرع إلى الأمصار إذا وضعت العرب يدها عليها، وهو حُكم لا يخلو من عنصرية، ولكن الرجل عالم اجتماع يجب الاستماع لرأيه. لماذا؟

واليوم يدعو حاكم عربي صدام إلى الاستقالة، ولكن يجب أن يطبق الآية القرآنية ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ (البقرة:44)، فيجب أن يستقيل حكام العرب أجمعون. ولكن الاستقالة تعني كامل الفوضى فيما لو طُبقت، ولن تقع. ومنذ العصر العباسي وصل الفقهاء إلى مخرج للأزمة السياسية فقالوا: حلال على الشاطر، فمن يستطيع التغلب وقهر العباد ركب على ظهرهم حتى يأتي من يتغلب أكثر بعصبية أشد بأساً وأشد تنكيلاً. وهو نفس الكلام الذي كرره عزيز في العراق: نحن قوم ثوريون وصلنا إلى الحكم بالدبابة والبندقية فمن يريد أن يجرب حظه فليتفضل.

وحاصل هذا الكلام أن الانتخابات مهزلة، وأن المجالس نكتة كبيرة لا يضحك لها أحد، وأن القواعد توضع لخرق القواعد، وأن الاجتماعات تستخدم لمنع أي تجمع، وأن المؤتمرات تعقد للتآمر، وأن توظيف النصوص لحل المشاكل لا يقترب إلا بعداً عنها، وأننا أمة أميَّةٌ نخضع للسيف ونعبد القوة، وأننا في زمن التيه التاريخي، ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ (الرعد: 11).

مائة بالمائة؟

جاءت نتيجة الانتخابات الرئاسية في العراق في خريف عام 2002 مائة بالمائة. هذه المرة ليس 99،99٪ وليس 99،97، بل تم تدوير الرقم حرصاً على الكمال إلى مائة بالمائة. وهو مؤشر خفي إلى أن اكتمال الأشياء هي بداية النقص. وعندما يكتمل البدر فهو في طريقه أن يصبح كالعرجون القديم. وقبل السقوط تأتي الكبرياء. ومن يغفل عن سنن الله فإن سنن الله لا تغفل عنه. وعندما يأذن الله بموت الأمم فلها واحدة من ثلاث نهايات: اجتياح خارجي، أو تحلل داخلي، أو تجمد في مربع الزمن.

نحن نعرف أنه ليس هناك «انتخابات» في العالم العربي، بل مبايعة الخليفة «القاهر» للعباد في حضور المخابرات. نحن نعرف أنها «مهزلة»، ولكن الكوميديا لون مسرحي يحضره الناس منذ أيام «بركليس» في أثينا. نحن نعلم أن الأنظمة الثورية تحولت إلى مَلَكية، وهي ليست مرض العراق وحده، فهناك من سبق العراق إليها. والكل يتلمظ في العالم العربي أن يبني سلالات حاكمة مثل أليخانات أباطرة المغول. ومن الغريب في هذه الكوميديا أن هناك حرصاً على الديكور في إخراج السلطان بلباس جمهوري، كمن يريد من اللص أن يرتدي

عباءة النبي. نحن نعرف أن العالم العربي يمشي على رأسه بدون أن يشعر بالدوار، ونحن نعلم أن من يمشي على رأسه يفقد رأسه ورجليه معاً. ونحن نعلم أن العراق مسموح الحديث عنه، فهو مستباح، ولكن المرض العربي واحد مثل حمى الدماغ الشوكية، فمنهم من يصاب بالخرس، وآخر بالعمى، وثالث بالجنون.

مع هذا فهي ظاهرة جديرة بالدراسة أكثر من الحزن أو الضحك أو الشتم. والأطباء يفرحون عندما تأتيهم حالات «مثيرة» وهي لصاحبها مصيبة مثل سرطان المستقيم أو شيخوخة البروجيريا. وكما يهتم علماء الطبيعة والحيوان بدراسة الظواهر الفيزيائية الشاذة والحيوانات المنقرضة والقبائل البائدة واللغات المختفية، كذلك فإن العالم العربي يشكل ظاهرة فريدة جديرة بالدراسة مثل دراسة الماموث أو أفاعي الأناكوندا، ولهجات أهل الأسكيمو، وحجر الرشيد.

إنها فرصة تاريخية كما نرى لتأمل المجتمع العربي بعد أن حافظت أمريكا على الأوضاع كما يفعل علماء الطبيعة بالحفاظ على بقايا الخرتيت في كينيا، وتخصيص سفاري لها خوفاً من الانقراض. والمجتمع العربي اليوم هو في حالة سفاري تسرح فيها بقايا حيوانات ضارية محمية بأسلاك أمريكية.

والسؤال: لماذا يحدث استعصاء تاريخي في مسيرة مجتمع، فيتوقف في مربع الزمن أيام الفرعون بيبي الثاني؟

إن المشكلة ليست في العراق. وإذا كان العراق قد انفرد برفع نسبة الانتخابات إلى المطلق فقد سبقه مَن ضَربَ بالمعول في القانون،

فأحدث ثغرة تناسب حجم السلطان، يصوت عليها مجلس لا يحسن إلا التصفيق. وعندما يتضخم الحاكم إلى هذا الحجم الفلكي فإنه يعني آلياً انكماش الأمة بالاتجاه المعاكس. وإذا كانت نسبة الانتخابات لشخص واحد فرد 99٪ فهو يعني أن الأمة انكمشت إلى 1٪. وعندما يقفز السلطان إلى المطلق فإن الأمة تهبط إلى الصفر. والصفر يعني العدم في الرياضيات، والصفر رياضياً لا يتمتع بأي قيمة رياضية، وحاصل ضرب الصفر بالصفر يعني صفراً، والصفر يعني العدم، والعدم يعني الموت للأمة. وعندما نرى النسر الأمريكي يحلق في الأفق فلأنه رأى جثة عند بابل.

هذه المسألة حيّرت كل من درس المسألة الإنسانية. كيف أن شخصاً واحداً يتسلط على رقبة أمة تعد بالملايين؟

في عام 1562 كتب شاب لا يتجاوز عمره 28 سنة هو «أتيين دي لابواسييه» مخطوطة عجيبة يفكك فيها آلة الطغيان كما يفعل ميكانيكي السيارة بتنزيل الموتور. كيف يبدأ الطغيان؟ كيف يتطور؟ كيف ينتهي مثل دورة أي مرض في الطبيعة سواء ذباب الخل أو أنفلونزا عام 1918 التي فتكت بـ 30 مليون إنسان بدون معرفة المسبب.

يقول «أتيين دي لا بواسييه» إن الحرية ميزة الحيوان قبل الإنسان، وما يحدث أن الفرَسَ الجموح وبالترويض يستبدل تمردها بالانقياد فتباهي بسرجها واللجام. وفي منظر عجيب كان المقترع العراقي بأسماله يلقي بورقة، إلى جانب سيارة ابن الرئيس بلون دموي يمشي فيها بين جموع فقيرة، يطردها عن السيارة زبانية غلاظ شداد مثل طرد الذباب عن القطر.

وفي يوم كان غاندي يدخل على ملك بريطانيا بخرقة يلف بها حقويه كما فعل من قبل يوحنا المعمدان، فقيل له: لو لبست غير هذا لمقابلة الملك؟ قال: جئت أمثل شعباً عارياً، فاستحيت أن أرتدي وهم عراة. مع هذا فإن الملك كان يلبس ما يكفينا نحن الاثنين.

يقول «لا بواسييه» إن الحاكم شخص واحد محدود القوة العضلية، فلو دخل عليه ثلاثة رجال لأحدقوا به وكتفوه ولكنه يمتلك من القوة السحرية ما يرسل الناس إلى الموت. فمن أين له كل هذه القوة؟

يجيب «لا بواسييه» عن هذا السؤال المحيِّر أن نظام الحكم ليس فرداً، بل عصابة. وبتعبير القرآن ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ﴾ (النمل: 48)، وهذه المجموعة هم أذرع الجبار لها امتداد جهنمي مثل الشبكة العصبية في الجسم. فكل واحد من مجلس العصابة مرتبط بعشرة يأتمرون بأمره، وهم بدورهم مرتبطون بأعداد أكبر منها كلما نزلنا في السلم الجهنمي للأسفل. فإذا سرح الخيال بنا تبيّن لنا أن الطاغية يمسك في يده خيوط شبكة كاملة تتوتر بحركة خفيفة من أصابعه، كما نحرك أعظم جهاز بكبسة زر. ومنه نفهم كيف أمسك ستالين بالشعب الروسي، وهتلر بنصف أوروبا، وجنكيزخان بمعظم العالم.

ولكن هذا التفسير هو القسم الأسهل والأصغر، ويبقى الجانب العظيم والمخفي وهو: كيف تتحكم أقلية سخيفة بأكثرية ساحقة؟

هنا يأتي القرآن فيطرح قانوناً ثلاثي الأبعاد أن الشيطان ليس له سلطان على العباد، وتدخل تحته أي قوة سواء كانت أمريكا أو الصهيونية أو أي قوة طاغوتية. فالإنسان خلقه الله محرراً من علاقات

القوة، وهذا يعني أنه لا يوجد شر في العالم يملك سلطاناً ذاتياً. وثانياً، أن البشر يتبعون الانحراف بإرادتهم. وثالثاً، أن هذا يحدث بضعف الوعي على منحنى طردي يزداد اتساعاً وكثافة وانحرافاً بقدر غياب الوعي.

وهنا يجتمع «لابواسييه» مع السر القرآني أن إنهاء الطغيان ليس في قتل الطاغية، بل ممارسة العصيان المشروع. فنطيعه في الطاعة ونعصيه في المعصية. وهذا يدخلنا على مفهوم «الكواكبي» أنه لا حاجة لتغيير الحاكم بل فرملته. وهذا يدخلنا على مفهوم «التحدي الأرسطي» أن نغضب من الشخص المناسب بالقدر المناسب في الوقت المناسب وللهدف المناسب. وعند «هادفيلد» من علماء النفس أنه لا توجد «خطيئة ذاتية»، وهو يذكر بالعمل الجنسي، فهي غريزة تنفع في توليد الحياة كيفما مشت ولكنها خطيئة في الزنا. وعلم النفس يرى أن «الشر» ليس «أمراً موضوعياً، بل هو وظيفة خاطئة. والوظيفة الشريرة هي استعمال اندفاع خيّر في وقت خاطئ، في مكان خاطئ، نحو غاية خاطئة». وبالنسبة للطب النفسي لا يوجد رذائل في ذاتها بل «فضائل منحرفة». بكلمة ثانية «الشر مثل القذارة، مادة في غير مكانها».

الطغيان في العالم العربي، بكلمة ثانية، «مناخ» مريض يحتاج إلى العمل لتطهيره، كما نكافح الكوليرا بالنظافة. وكل منا يحمل وحشاً في داخله. وكل منا «كمونياً» صدام. والذي أفرز صدام المناخ المريض، وهو لا يزيد عن خلية مريضة من نقي عظام مريض من ثقافة مريضة. وتغيير صدام لن يغير المناخ. والركض خلف البعوض لقتلهم عبث ما لم نردم المستنقع. والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه

والذي خبث لا يخرج إلا نكداً. ولو جلس الناس في العراق في بيوتهم فلم ينزلوا للانتخاب المزعوم ما كان صدام فاعلاً بهم؟ لقد شاهدت الناس وهم يزحفون للاقتراع تحت سحر عظيم أنه يجب أن يذهبوا ويجب أن يكتبوا «نعم». مع أن الورقة تحمل «لا» و«نعم».

إننا نعيش عصر السحر. ﴿وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ (الأعراف: 116). وأمريكا هي الساحر الأعظم. وعندما يكون الوعي في إجازة فإن حبالهم وعصيهم سوف تسعى إلى حين مجيء موسى.

جاء في كتاب «خرافات الهند» أن حماراً فقد ذيله في حادث ذات يوم، فكانت مصيبة أليمة أغرقته في الأحزان. وراح يبحث عن ذيله في كل مكان معتقداً أنه يمكن إعادته إلى مكانه. وأخيراً مرَّ بمرج أخضر فدخل وهو يظن أنه سيعثر على ذيله المقطوع، ولكن البستاني ارتاع من التدمير الذي أحدثه في نباتات الحقل، فاستشاط غضباً وهجم على الحمار فقطع أذنيه وضربه وأخرجه من الأرض. وهكذا فإن الحمار الذي كان يندب ذنبه رجع أصلماً بدون أذنين. فكان في وضع متحمل فأصبح سخرية للعالمين. وما يصدق على الحمار والبستاني يصدق على العرب هذه الأيام.

حقيقة صدام

احتار سياسيو العالم العربي في تفسير شكل صدام المهين بعد إلقاء القبض عليه في 13 ديسمبر 2003. فقالوا إنه ليس هو، وقالوا إنه مخدَّر. وهو ليس بذا ولا ذاك. والحيرة تأتي من الجهل. وليس هناك أكثر خوفاً وضلالاً من الجاهل.

وكما يقول عبدالرحمن الكواكبي إن العوام إذا جهلوا خافوا، وإذا خافوا ملكهم الطاغية. وهو ما فعله صدام بأهل العراق. ولم يتغير الوضع كثيراً بعد رحيله، فما زال من يزعق باسمه «بالدم بالروح نفديك يا أبو الجماجم». وهو ليس الوحيد من الغربان في بلاد العربان. وبين العرب والعلم مسافة سنة ضوئية، يسبحون في بحر طامٍ من الأميين يبلغ سبعين مليوناً من الأنام.

والصراع بين العلماء والمستبدين هو مثل جدلية الظلام والنور. فالعلماء يعلمون الناس فيتحرروا من الخوف. والطغاة يخرجونهم من النور إلى الظلمات فيخافوا ويجعلوا أصابعهم في آذانهم حذر الموت والله محيط بالكافرين.

وما لم نسلط ضوء العلم على نفسية صدام فلن نفهمه. والأطباء في المخابر يلجأون إلى المجاهر لرؤية الجراثيم، وحزب البعث وسط دموي خطير لنمو جراثيم معندة من نوع صدام.

وإذا كان صدام قد أباد أهل حلبجة بالكيمياوي فسقطوا مثل الذباب، فإن نظيره مسح نصف مدينة وأهلها من الخارطة. وفي ليلة واحدة قتل ألف معتقل سياسي أعزل في سجن صحراوي. فصدام أبو المقابر وصنوه أبو المجازر.

ولذا يجب استخدام مجموعة من العلوم الإنسانية والكونية والبيولوجية لفهم الظاهرة الصدامية». وعلم النفس يقول إنه بقدر جبروت الطاغية بقدر هشاشته الداخلية، وبقدر التماعه الخارجي بقدر انطفائه الداخلي، وبقدر مظاهر الصحة العارمة بقدر الاستعداد للانهيار. ونزلت سورة كاملة في القرآن للمعارضة باسم «المؤمن». ولذا كانت المعارضة صحة وإيماناً للجميع. والمعارضة مثل الفرامل في السيارة، ولكن سيارات العالم العربي السياسية مصممة بدون فرامل، فهي تخرج من كارثة لتدخل كارثة. وما العراق عنا ببعيد. والمستكبِر (بالكسر) هو الوجه الآخر للمستضَعف (بالفتح) بتعبير القرآن. ومن مرض بالاستكبار حمل بذرة الاستضعاف في أعماقه. وكل من المستكبِر والمستضعَف من فصيلة واحدة. ويوم القيامة يلعن بعضُهم بعضاً.

والصورة الملونة أصلها أسود. وجايكل وهايد شخصيتان متناقضتان اجتمعتا في رجل واحد، مثل وجهي القمر، فوجه مضيء يغلي بحرارة 150 درجة فوق الصفر، ووجه مظلم بارد بحرارة 150 تحت الصفر، وكلا الوجهان لا يصلحان للحياة.

والطاغية وحش مرعب ولكنه في حقيقته صعلوك حقير. ومن احتقر الناس احتقر نفسه، ومن وظّف المجرمين قلب المجتمع عاليه

سافله فلم يظهر على السطح إلا السفلة الأوغاد، وخسف بالمجتمع في ليل التاريخ، كما حدث في ديكتاتوريات الخوف من جمهوريات البعث. وحينما ينهار الجهاز المناعي تنشط الجراثيم من كل صنف زوجان.

والطاغية يشبه الشاذ جنسياً، فهو ساديّ ومازوخي بنفس الوقت، فلا يلتذ إلا بالعذاب والتعذيب. ومن انحرف فقد توازنه فعاش على الأطراف. ونيرون أحرق روما ولكن لم يكن عنده من الجرأة أن يقتل نفسه حينما أحدق به الناس فقتله خادمه.

والطاغية ليس رجل مبدأ ليموت من أجل مبدئه، بل هو متعلق بالحياة أكثر من حرص الضفدع على حياة المستنقع. ولذا سلم صدام نفسه. ولم يكن صدام ليتمنى الموت بما قدمت يداه والله عليم بالظالمين. ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: 96).

ومن يقتل أصهاره يجعل من بناته أرامل ومن أحفاده أيتاماً. ومن لا يرْحَم لا يُرْحم. وحسب شهادة جمال المجيد، وفي عائلة المجيد نشأ صدام، فقد أباد صدام كل عائلة المجيد، فقتل الوالد وثلاثاً من إخوانه وأخته، وفي النهاية أرسل من ذبح والدته من الوريد إلى الوريد.

والسلطة تميل إلى الفساد. وقليل من السلطة يعني قليلاً من الفساد. وسلطة مطلقة تعني فساداً كاملاً وظلاماً دامساً، ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ (النور: 40). وحينما يخسر الإنسان نوره الملائكي يستبدله بظلمة الشياطين. ومن

باع نفسه للقوة ارتهن للقوة، فيصبح إلهاً مع امتلاك القوة لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون. ويتحول إلى عبد ذليل ميت بسحب القوة منه كما تفقد البطارية شحنتها فتُلقى في المزابل.

ولب التوحيد هو التخلص من «ذهان القوة»، وهي القضية التي من أجلها جاء الأنبياء وبعثوا، فلم يأتوا لتعليم مسائل أكاديمية، بل لإخراج نموذج جديد لا يركع للقوة ولا يحرص على امتلاكها، كما جاء في الحديث النبوي: «إنكم ستحرصون على الإمارة وستكون ندامة يوم القيامة».

والغرب حل أعظم معضلة سياسية وهي مركزية السلطة، فسحبها من أيدي البشر وحرّر المجتمع من الوثنية السياسية. وشيراك اليوم صديق صدام الحميم لا يمنعه في فرنسا أن يكون مثل صدام لولا الشعب الفرنسي. والسلطة ألذ من كل اللذائذ مجتمعة لأن فيها سر الإلوهية. ومن ختم على رياض الترك في زنزانة إفرادية سبع عشرة سنة كان يرسل الناس إلى الموت بكلمة، ويصرف ملايين الدولارات بإشارة، فمن يقف أمام هذا الإغراء؟ والملكة فكتوريا كانت تتمنى أن تحكم مثل الباديشاه العثماني ولكن حجزها البرلمان البريطاني بعد أن طار رأس الملك تشارلز عام 1649 بحد السيف على يد كرومويل، فلا داعي للتكرار.

وعندما ننضغط نقول إن هذه الأشياء موجودة في ديننا، وإن الشورى أساسية في الإسلام. ونحن لم نشم رائحة الشورى لحظة في تاريخنا. والمشروطية التي نادى بها رجال الإصلاح في العراق في مطلع القرن الفائت لم تأتِ إلا من خلال الاحتكاك بالغرب. ولم يكن

عبدالرحمن الكواكبي ليكتب كتابه عن طبائع الاستبداد لولا احتكاكه بفكر الثورة الفرنسي.

والتحليل النفسي يجعلنا نفهم لماذا ظهر صدام البطل في منظر البؤساء. كما يجعلنا نفهم سطحية أكثر العقول السياسية العربية التماعاً في المحطات الفضائية حينما قالوا إن هذا ليس صدام، أو إنه مخدر. والحقيقة أنه صدام، وليس مخدراً، ولكنه طاغية انكشف فيه جانب الحقيقة الثاني. فرأينا صدام بدون سلطة لأول مرة. وكنا نرى من قبل صدام وهو في السلطة. فهو قاتل ومسكين، وجبار وتافه.

وعلم النفس يخدم كثيراً في فهم سلوك البشر وتصرفاتهم. ومن ارتبط بالعلم فهم الظواهر أفضل. وبين أهل السياسة والعلم سنة ضوئية.

تقول الأسطورة إن خلدان كانا يمشيان في الغابة فصاحت بهما البومة: قفا مكانكما. فتعجبا وقالا: هذا أمر عجاب فلا أحد يرى في الظلام. فصاحت البومة من جديد: أنتما الاثنان. فرجع الخلدان إلى حيوانات الغابة فقالا: إن البومة سيدة الحكمة فهي ترى في الليل. ثم إن طيراً أراد التأكد، فذهب وأخفى مخالبه وقال: كم مخلباً لي؟ قالت البومة: اثنان. فرجع الطير إلى حيوانات الغابة فقال: لا شك أن البومة إلهة، فهي ترى في الليل. قال ثعلب: ولكن هل ترى في النهار مثل الليل؟ نظر إليه البعض وقالوا: أيها الصفيق، وهل هذا يحتاج إلى سؤال؟ ثم إن حيوانات الغابة طردته وأشياعه من المشاغبين وارتاحوا من المعارضة. وتوجه وفد إلى البومة فطلب منها أن تكون ملكة للغابة. فلما وصلت كان النهار في أشد توهجه فبدأت تمشي ببطء،

فمنحها ذلك وقاراً أكثر. فصاحت حيوانات وطيور الغابة: إنها إلهة، بالدم بالروح نفديك أيتها الزعيمة الملهمة. ثم سارت الجموع خلف البومة التي كانت تترنح وتصطدم بأشياء كثيرة، فكانت الجماهير تكرر نفس الخطأ وتهتف بحياة القائد المهيب. وأخيراً كان الموكب يمشي في طريق عريض فجاء صقر يحذر من قدوم شاحنة في الاتجاه المعاكس. فنظر طير إلى البومة وحذرها فقال لها: ألا تخافين؟ قالت: ولِمَ الخوف أيها الجاهل؟ فصاحت الحيوانات: إنها لا تخاف، إنها إلهة. وكانت البومة مطمئنة لأنها لم ترَ الخطر. وكان جمهور الغابة لا يكف عن الصياح بحياة الرئيس بالدم بالروح نفديك حينما صدمت الشاحنة الجموع فدهست معظم المغفلين وهرب بعض المجروحين. إن في ذلك لآيات وما كان أكثرهم مؤمنين.

فهذه هي قصة صدام والجمهور العربي وأمريكا.

الطغيان مرض اجتماعي

وهكذا نكون قد حررنا مما مر ثلاث نقاط ووضعنا أيدينا على جذور الاستبداد الذي ينبع منه الطغيان. الإنسان أولاً كائن اجتماعي، والمجتمع هو الذي ينقل الإنسان من معادلة الفرد إلى الكائن الاجتماعي. والاجتماع الإنساني ضرورة. والمجتمع الإنساني يتطور خلاف كل الأمم الأخرى من دواب وطير.

والطغيان هو مرض اجتماعي بأخذ فرد أو مجموعة من حقوق الآخرين أثناء هذا الاندماج الاجتماعي، وحين تعلن الانتخابات في العالم العربي أن رئيس الجمهورية المرشح الأوحد للانتخابات قد نال 97٪ من الأصوات بدون منافس واحد فهذا معناه أن الأمة المكونة

من ملايين الأشخاص أصبح حجمها 3٪، وأن هذا الفرد الوحيد ابتلع كل الأمة والدولة وأصبح حجمه 97٪ مقابل الملايين، وهو ما يذكر بعالم جوليفر، أي إن الفرد هنا أصبح ديناصوراً، وأن بقية الأمة استحالت إلى نمل وحشرات تدب على الأرض دبيباً. وانقلاب النِّسب بهذه الطريقة لا يبقي الأمة أمة ولا الحاكم حاكماً، بل يحول الأمة إلى قطيع من العبيد، والحاكم إلى إله لا رادّ لحكمه الواحد القهار. وعندما تكون نسبة انتخابات صدام المصدوم 100٪ فهو يعني لأنه مسح الأمة كلية إلى الصفر، ومن مسح الأمة مسح نفسه فاستحال فأراً يُنتشل من حفرة قذرة.

وأمام هذه الورطة من التطور الإنساني ودع الإنسان الغابة وسلم رقبته للأنظمة السياسية، ولكن لولا وجود الدولة ما طعم الإنسان من جوع ولا آمن من خوف. فهذه حقيقة اجتماعية. وهذا هو المبرر الأول لوجود الدولة: «الأمن». ومن الأمن تتولد الحريات. ونحن هنا في ظل مثلث بثلاثة أضلاع يضم «العدل – الأمن – الحريات» في مركب متبادل التأثير. وتحت مظلة الأمن ولدت الحضارة في المدينة، ولكن الأمن بدوره يقع في ضلع من مثلث يضم العدل والأمن والحريات كما ذكرنا. وبقدر العدل بقدر الأمن، وبقدر الأمن تنمو الحريات. وهو ما جاء في حجة إبراهيم (عليه السلام) حين قال إن الأمن يتبخر مع «الظلم». ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ * وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ (الأنعام: 82-83).

الأمن الاجتماعي
بين العدل والحريات

بتاريخ 29 أكتوبر 2007 تم عقد مؤتمر حول الأمن الاجتماعي في البحرين استقطب نخبة من رجال الفكر ولمدة ثلاثة أيام، في جدل حول غياب الأمن وتبخر العدالة وانكماش الحريات...

وفي كل مرة أجتمع فيها بمن يمثل التيار الديني يسيطر عليَّ الشعور المزدوج أن التيار الديني بدون عقل، وأن التيار العلماني بدون دين، وأن المواطن بدون بوصلة في سفينة تضربها أمواج كالجبال، بدون قبطان وبوصلة ونجوم وخرائط، قد استولت على السفينة عصابة من الأشرار الانقلابيين، فهم يسيرون بها إلى الغرق.

وكان بودّي أن أوجه رسالة إلى المسؤولين في البحرين أقول فيها إن الأمن الاجتماعي مثل الصحة، فالعافية أمر يتمناه الكل ولكن المشافي تغص بالمرضى، كما هو الحال في الأمراض الاجتماعية التي تعتور الأمة...

واستفدت من مالك بن نبي فكرة «الوحدات الإمراضية»؛ فكما كان للمرض البيولوجي وحدات من الجراثيم والفيروسات تصيب

البدن بالكوليرا والإيدز، كذلك الحال في جراثيم العنف وفقدان الأمن الاجتماعي...

وفي الواقع فإن العالم الذي نعيش فيه مجنون، وحتى الفندق الذي نزلنا فيه كان المصعد فيه يحتاج إلى بطاقة مغناطيسية كي يتحرك.

وهذا الجنون موجود قديم مثل الأمراض المتوطنة، ولكن حدّته زادت وعلى نحو صارخ مع أحداث سبتمبر، فكانت صاعقة البرجين مثل ذروة الحرارة لمريض مصاب بهذيان سخونة الحمى.

والآن لا يوجد مكان في العالم آمن، وضاقت الأرض بما رحبت، ويفتَّش الناس في المطارات مثل اللصوص.

وكنا مع مطلع القرن 21 نتفاءل بدخول مرحلة السلام، بعد أن بلغ الردع النووي حده الأقصى، وودعت الحرب الباردة في باريس بجنازة خاشعة، ولكن بدأت حرب موازية، ليست بين الدول، بل من الأفراد ضد الدول.

وإذا كان الشمال قد تحول إلى بحيرة سلام، يسبح الناس فيه في الزبدة والعسل، فقد تصدع العالم إلى فقراء وأغنياء، وشمال وجنوب، كما نوّه إلى ذلك «جاك أتالييه» في كتابه «آفاق المستقبل». ويحج الناس في 9 أكتوبر 2007 إلى قبر «تشي غيفارا» في ذكراه الأربعين، بعد أن نبش الأنثروبولوجيون رفاته، بيدين مقطوعتين من مخابرات بوليفيا والمركزية الأمريكية.

وإذا كان الرق قد ألغي، وتموت مؤسسة الحرب بالتدريج، وتظهر عبثية الحرب وجنونها، إلا أن إرهاب الأفراد يهدد استقرار

العالم، ويمكن بغرامات قليلة من سلاح بيولوجي إرسال مدينة عامرة إلى عالم أنوبيس السفلي.

وتتحول أمريكا إلى دولة بوليسية تتقلص فيها الحريات، وتوجد دوريات في 14 مطاراً تلقي القبض على الناس بسيمياء الوجوه، وهي ليست نكتة.

وهذا اللون من التناقض خصص له «نعوم تشومسكي» كتابه «قراصنة وأباطرة»؛ فحين أمسك الإسكندر بالقرصان يعنفه؛ كان جوابه: أنا أزعج البحر بمركب فأُسمّى قرصاناً! أما أنت فتجتاح المحيطات بالأساطيل فتسمّى إمبراطوراً.

وهو يذكر بقصة «أبي الليث الصفار» رئيس العيارين، الذي ذكره «الخاتمي» في كتابه «الدين في شرك الاستبداد» أن هناك من ذكّره بعهد الخليفة، فقال لشقي ممن حوله: هات لنا عهد الخليفة نتلوه على الناس. فأتاه بسيف ملفوف بخرقة، فاستلّه وصاح: هذا هو عهد الخلافة. فتوكلوا على الله يا شباب إلى بغداد.

لا شيء أوضح من الخوف الذي يسود العالم اليوم، من البحث الذي عنونت به مجلة «در شبيجل» الألمانية صفحة الغلاف الرئيسة «ثمن الخوف» (Der Preis der Angst) أن أساليب الدولة المعتادة أصبحت للماضي، وأن الحدود بين الأمن الداخلي والخارجي قد تلاشت، وأن دولة القانون تتحول إلى دولة بوليسية تحل المشاكل بأساليب قمعية!

وهذا المرض يظهر عندنا بحواجز إسمنتية من الفرع الأكبر

بدون حيطان (شارون) فهو يسبح في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون...

ولكن لماذا هذا الرعب كله اليوم في العالم؟

إن إبراهيم (عليه السلام) اختصر المشكلة في نصف آية؛ فمن لبس إيمانه بظلم خاف! ومن مزج إيمانه بالعدل أمِن! ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمْ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (الأنعام: 82).

وهذا يقول إن هناك جدلية في مثلث من ثلاث زوايا، تضم العدل والأمن والحريات، في معادلة معكوسة؛ فالعدل يولد الأمن، ومن الأمن تنبثق كل الحريات، من التعبير وتشكيل الأحزاب والنقابات والتظاهر والتجمع والإضراب وحضور المرأة من أجل أنسنة المجتمع واعتناق أي رأي وتركه بدون خوف من طيران الرأس.

وهو أمر تحدث به ابن خلدون في مقدمته عن حوار الموبذان وبهرام الملك تحت بحث «فصل في أن الظلم مؤذن بخراب العمران».

وذكرها الفيلسوف البريطاني «برتراند راسل» في كتابه «القوة» (The Power) من حديث «كونفوشيوس» حين رأى امرأة تبكي بحرقة أباها وزوجها اللذان افترسهما النمر، فيسألها: ولماذا لا تغادرين هذه الأرض التي تفترس فيها النمور البشر؟ تجيب: هنا لا يوجد حكومة ظالمة.

فيلتفت «كونفوشيوس» إلى تلاميذه ويقول: انظروا، إن الحكومة الظالمة أفظع من النمور الجائعة!!

ويذكر هذا بالجدلية التي فككها «راسل» في نفس الكتاب في جدلية الغابة وولادة الدولة وفلسفة قيامها؛ وهي نفس الفلسفة التي وصل إليها «إمام عبدالفتاح إمام» في كتابه «الطاغية» أن ملك الفرس كان إذا مات لم يعيَّن من يقوم مقامه ثلاثة أيام تعم فيها البلد الفوضى، فإذا ظهر الملك في اليوم الرابع واستتب الأمن عرف الناس واكتشفوا على نحو غريب وظيفة الدولة الأولى: الأمن...

ويلتقي «راسل» و«ابن خلدون» و«القرآن» عند هذه النقطة ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ (العنكبوت: 67) أنه لم يمكن للبشر تحمل فوضى الغابة؛ فكان المجتمع ضرورة مطلقة قصوى لإنتاج «الإنسان الاجتماعي»...

وهو أمر أكدته واقعة «صبي أفيرون الوحشي» على ما رواه «بيتر فارب» في كتابه «بنو الإنسان»، الذي تم اصطياده من الغابة عام 1799، وحاول الدكتور «إيتار كسبار» عبثاً إدخاله الحظيرة الإنسانية، فلم ينطق قطّ إلا بعبارات مبهمة قاصرة.

وهكذا فالمجتمع يمثل الضرورة القصوى لحياة البشر كما ذكر ابن خلدون، ذلك من زاوية مختلفة مبرهنة بأمرين: «المدافعة والغذاء»؛ أي لا يمكن إنتاج رغيف خبز بدون تعاون سلسلة لانهائية من الاختصاصات، ولا يمكن دفع أي عدوان من حيوان ضارٍ أو آخرين من بني جنسه بدون تعاون بني البشر...

وحسب راسل فإن المجتمع يفرز «الدولة» التي تحتكر «العنف» مقابل توفير «الأمن» للأفراد، وبذلك أمكن ولادة الحضارة في ظل

الدولة، ومنها كل الإنجازات، كما يصف ذلك «ديورانت» المؤرخ الأمريكي في كتابه «دروس التاريخ» أن الحضارة نسيج من غلالة رقيقة من شبكة علاقات، نسيج يتسم بالجهد والعبقرية في إنتاجه والسهولة في تدميره.

ولكن المشكلة كما بينها عالم الاجتماع العراقي «علي الوردي» في كتابه «مهزلة العقل البشري» أن ولادة الدولة كانت ورطة الجرذ في المصيدة مع رائحة الجبن.

فالدولة «وفرت» الأمن مقابل اصطياد الفرد ضمن أذرعها الفولاذية الباردة، ومن آلية «احتكار العنف» ولد تلقائياً مرضان لم يتعافَ منهما الجنس البشري حتى اليوم:

ولد الطغيان الداخلي وانفجرت الحروب بين الدول...

ومن أجل التعافي من هذين المرضين بعث الأنبياء ليقيموا الوزن بالقسط ولا يخسروا الميزان...

وهو لبُّ التوحيد للقضاء على الطاغوت السياسي والجبت الديني، فبعث الأنبياء والرسل أولاً من أجل أن لا يعبد الناس بعضهم بعضاً، وتحديد آلة العنف بما يكافئ توفير جرعة الأمن، مثل مطافئ الدفاع المدني، وليس جيوشاً مليونية من الجاندرما والمخابرات...

وثانياً، لإطفاء الحروب الخارجية وليس لإشعالها، ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ﴾ (المائدة: 64).

والجهاد بمعنى القتال المسلح هو دعوة لإقامة حلف عالمي لرفع الظلم عن الإنسان أينما كان ومهما دان...

وحسب «الوردي» فإن الدولة لم يكن هناك دولة «وحيدة»، بل مربعات لا نهاية لها من حزام الدول، وهو سبب الحروب، فالدولة التي ضبطت الأفراد داخلها بسياج من حديد، ليس هناك ما يعادلها من دولة أعلى تضبط مربعات الدول، وهو أمر خطير يفسر استمرار الحروب، وأنها سوف تبقى شغّالة لحين هيمنة قوة عالمية تضبط الدول، كما ضبطت الدولة الأفراد. وهكذا فالحروب هي ظاهرة صراع الدول، أو أثناء تفكك الدولة الواحدة، كما في البوسنة ورواندا والعراق والصومال.

وحسب رأي الوردي فسوف تستمر الحرب جذعة (فتية نشيطة) لحين ولادة دولة الدول، أو نظام عالمي لا نعرفه، ربما من نموذج مبتكر؛ يضع حداً لمآسي الإنسان، ويحسم الصراعات بين الدول كما حسمت الدولة نزاعات الإفراد، وهو أمر يتطور من رحم التاريخ كما يحدث الآن في الاتحاد الأوروبي.

وبهذه الآلية استمرت الحروب بين الدول، كما يقول المؤرخ البريطاني «توينبي» إن كل دورة فيها كانت أشد هولاً وتدميراً من التي سبقتها.

وحسب «غاستون بوتول» صاحب معهد الحرب الفرنسي، أنه خلال 3450 سنة من تاريخ الإنسان، كانت وتيرة الحرب بمعدل 13 سنة حرب، مقابل سنة سلام واحدة، يلتقط فيها الفريقان الأنفاس، مثل هانيبال وسكيبيو، استعداداً لجولة أشد ترويعاً من التي سبقتها.

وكانت الحرب أمراً عادياً، تجري على مذهب ابن آدم القاتل

الأول «قابيل» الخاسر النادم، الذي سن سنّة القتل، فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة...

كانت الحرب من يقتل فيها يعد بطلاً، كما قتل الإسكندر في معركة «جواجاميلا» عام 331 ق.م. خمسين ألفاً من جنود داريوس في خمس ساعات، أو ثمانين ألفاً من شباب روما في معركة «كاني» على يد هانيبال في ثماني ساعات، أو 56600 جندي بريطاني حصداً بالرشاشات الألمانية في مسالخ الحرب العالمية الأولى في 12 ساعة، أو 65000 شاب في كربلاء، خمسة في خمسة أيام، ما يعادل سكان مدينة عامرة... أو مليوناً ومائتين وخمسة وستين ألفاً بين بريطاني وألماني وفرنسي في خمسة أشهر في معارك «السوم»...

كل هذا مرّ حتى مرّ العالم بثلاثة مفاصل تاريخية في تطور ظاهرة الحرب، بين حرب الثلاثين سنة وصلح «وستفاليا» في مونستر عام 1648، ومحاكم نورمبرغ عام 1946.

ففي الأولى اعتُبرت الحرب حق الدولة، وفي المحاكمات الأخيرة اعتُبرت الحرب جريمة أياً كان شكلها ومسبباتها، وكل ما يقود إليها من قول وعمل ومساعدة ومال وتشجيع وتحريض...

هكذا استمرت الحرب في محاولة لجمها بدون أمل كبير، ولم يأتِ الفتح المبين من دجل السياسيين ولا من مواعظ الأخلاقيين، ولا من الكتب المنزلة...

ولم يعلن موت مؤسسة الحرب إلا العلم حين صعد الفطر النووي إلى ارتفاع 5 كم في السموات العلى، وكان ذلك عام 1945 في صبيحة

يوم 16 يوليو، عند الفجر الساعة الخامسة والنصف، في صحراء آلامو جوردو، مع تجريب أعظم سلاح، لم يخطر في بال آلهة الأولمب ذاتها... فقد استعير وقود الشمس فاشتعلت به الأرض؛ فكانت كثيباً مهيلاً...

ولم يتفطن لهذا التحول السياسيون المهرجون، أن العالم تحولت إحداثياته من القوة إلى الفكر، ولم يشعل النار النووية إلا أدمغة العلماء!

واستُخدم هذا السلاح النوعي مرة واحدة ولم يتكرر مع مرور العالم في أعظم الفترات حلكة وخطراً في كوريا عام 1950، وكوبا 1962، والشرق الأوسط 1973.

ومن فكر في استخدامه مثل «مك آرثر» في الحرب الكورية كلفته أن يستقيل من منصبه، فالسلام العالمي أهم من حماقة جنرال مأفون.

وكما يقول مالك بن نبي إن القوة ألغت القوة...

أو كما يقول جودت سعيد إن العلم هو الذي دفع العالم إلى الزاوية الأخلاقية، مرغماً كي يولد محرراً من علاقات القوة... وحين يتحول الدين إلى علم يصبح عالمياً كما في حبة الأسبرين...

وخذلت الأصنام النووية أصحابها، وهو النادي الذي يودعه أصحابه ويعلن إغلاقه، تدخله باكستان وإيران كمن يذهب إلى الحج والناس قافلة من عرفات في 11 ذو الحجة، فقد تحولت إيران من

الثورة إلى الدولة، وعندها استعداد أن تستقبل طغاة مثل شاوشيسكو قبل موته بأربعة أيام، وتتعامل مع طاغية من نوع حافظ الأسد، فما زال الغرام بالقوة مثل أقداح السكارى...

حين واجه المسيح بيلاطس تقابل في الواقع عالمان، كما يقول الفيلسوف الألماني شبنجلر، فسأله إن كان ملك اليهود، قال: أنت تقول ذلك؟ وختم: مملكتي ليست من هذا العالم.

معنى هذا الكلام أن العالم مؤسَّس على القوة، ولم يأتِ بعد عصر الأنبياء والإنسان المحرر من القوة، وما زلنا على ظن الملائكة نفسد في الأرض ونسفك الدم الحرام، ولم يتحقق بعد علم الله فينا، ولم يولد العقل بعد، وإذا كان رب البيت بالطبل ضارباً، فشيمة أهل البيت الرقص على طبل أمريكا وشارون وبن لادن، يسحرون أعين الناس ويسترهبونهم بسحر عظيم...

وإذا كانت أمريكا تمتد بأذرع الأخطبوط في 63 قاعدة عسكرية على امتداد قطر الأرض، وتشرب ربع البترول العالمي وهي 5٪ من سكان العالم، وتثقب السماء مثل النمرود، وتسحر الناس بحبال بعصي القوة!!

فلماذا لا يأخذ الطغاة الصغار مشروعيتهم من هبل الأعظم...

إن أعظم نكتة سمعتها من سياسي أن أمريكا تحافظ على نظام سوريا الهزيل، من أجل عدم نقل الفوضى للحدود الصهيونية... فليبقَ نظام ضعيف مريض يمسك رقاب المساكين العبيد، وتبقى الحدود هادئة، وأما الديموقراطية فهي غذاء البيض في الشمال...

وأما الشعوب العربية فهي نقيق الضفادع في برك راكدة، خيارها اثنان: إما الطاغية، أو الفوضى العراقية العارمة ونظام طالبان، أو محاكم الصومال الإسلامية.

مع هذا فالمشكلة ليست هنا، وليس من أحد له سلطان على الإنسان إلا بقدر ما يسمح بذلك. ولو كان الشيطان بذاته.

وأول سورة نزلت من القرآن لفك هذا السحر أن الطغيان يكسر بعدم طاعته، وأي قانون يمكن كسره برفض طاعته، كما فعل غاندي مع قانون احتكار بريطانيا للملح، فجمع الأتباع، وذهب إلى البحر، واستخرج الملح وكسر القانون... ولكن العرب مصابون بالغشاوة في استيعاب مثل هذه الأساليب لكسر قوانين ظالمة...

إن فك سحر الطغيان لا يتم بقتل الطاغية، بل بالمحافظة عليه وعدم طاعته...

وحين يتبخر الوعي وتزوَّر إرادة الجماهير في صناديق الانتخابات في الدول العربية الثورية، فسببه غياب الوعي، فلا نفع في صناديق انتخابات بينها وبين الوعي مسيرة ثلاث سنوات ضوئية.

ولا يمكن لأي ديكتاتور أن يعتلي رقبة شعب واعٍ، ولو جاءت ميركل إلى سوريا، وذهب الأسد محل ساركوزي، واستبدلً بلير بقصي، فلن تتغير الصورة كثيراً، بل لو بعث فرعون بسماتيك الأول وصدام من القبور، واستبدل الواحد بالآخر أو برئيس كندا، ما تغيرت الصورة كثيراً، فيمكن لصدامٍ أن يصبح ديمقراطياً، ورئيس وزراء كندا وبريطانيا طاغية مريداً...

فقط بتغير الظروف الاجتماعية، التي تفرخ جراثيم الاستبداد، أو تمنع ولادتها؟؟

إن الفيزياء تقول لنا إن إلقاء عود ثقاب في بركة ماء تطفئه، وفي برميل بنزين تشعله.

ولو عرض الحليب والبارود والشمع لنفس الحرارة، فار الحليب وانفجر البارود وذاب الشمع، ونحن نتفجر في العراق، ونذوب في سوريا، ونفور في لبنان...

لقد اقترح «إيمانويل كانط»، فيلسوف التنوير في كتابه «نحو السلام الدائم» (Zum ewigen Frieden) وجود مؤسسات دولية ديمقراطية لها قدرة الإلزام...

لقد فشلت حتى الآن عصبة الأمم المتحدة في طريق تطوير العالم، كما ماتت الأمم المتحدة كما صرح بذلك بوش، الذي وصفته وزيرة العدل الألمانية أنه يذكّرها بهتلر، فكلّفها هذا منصبها...

وأكبر مظاهر موت هذه المؤسسة العملاقة حق الفيتو فيها، الذي يصادر إرادة العالم في مجلس إجرامي خماسي يغتال عقل العالم وإرادته ويعيق ولادة العدل، فيغيب الأمن وتتبخر الحريات ويتحول العالم إلى كازينو قمار وزقاق بلطجية...

مع هذا فقد طلعت الشمس من مغربها، ويلوح في الأفق فجر جديد من الاتحاد الأوروبي، قام على كلمة السواء، وليس على فتوحات نابليون وهتلر، ولا تحت شعار ألمانيا فوق الجميع، بل ألمانيا مثل الجميع، وهو ما يدفع تركيا أن تقول لأوروبا على صورة معكوسة جداً

لصورة الفتح العثماني؛ تقول لأوروبا تعالوا وافتحونا، عفواً ضمونا للاتحاد الأوروبي، وأوروبا تتمنع، وينجو رأس أوجلان الكردي بعد أن لاح حبل المشنقة فوق رأسه فتدلّى فكان قاب قوسين أو أدنى...

وأما عندنا فحرب أهلية، وقطع رؤوس بالسواطير، وتكفير بالجملة والمفرق، أو ديكتاتوريات لا تغيب عنها الشمس، أو ريح حمراء... أو خسف للعقل إلى عصر المماليك البرجية أيام سعيد جقمق، أو مسخ لجماهير تهتف بالروح بالدم نفديك يا أبو الجماجم، وهو هتاف كلف قتل الكثير في غزة في ذكرى ضخ الدم في صنم ياسر عرفات الميت...

والزلزال العراقي لن يبقى في العراق، وهي مسألة وقت لا أكثر، كما يعرف علماء الجيولوجيا عن طبيعة الزلزال وتسونامي...

أما مؤتمر البحرين فكان الفريق اللبناني يرى أن أمريكا هي مصيبة العالم، وأما الفريق الشيعي فكان يرى أن التكنولوجيا النووية بها الخلاص، وأما الفريق المصري السنّي فرأى أن محاكم الصومال الإسلامية وطالبان هي مصابيح الظلام ونماذج الهدى فبهداهم اقتده.

إن من يحضر قمم الفكر ويصل لهذه الخلاصة ليس أمامه سوى توديع عالم العقل والاعتكاف في مكان يعض فيه على أصل شجرة حتى يدركه الموت وهو على ذلك...

أسباب الطغيان

حسب إحصائيات المؤرخ البريطاني «جون آرنولد توينبي» فليس هناك الكثير من الحضارات التي انبثقت في التاريخ، بينما ظهر على الأرض العديد من المجتمعات البدائية قدرها توينبي في حدود 600 مجتمع بدائي. وكانت الحضارة تولد من الحضارة. ولم تولد الحضارة الأوروبية بدون أب وأم، ولكن الأوروبيين يفضلون لأنفسهم أن يبقوا بدون أب مثل الولد اللقيط، وأبوه الحضارة العربية، وأمه الحضارة الإغريقية. ويرى توينبي أن ما لا يقل عن 32 حضارة بزغت في التاريخ ولم يبقَ منها سوى خمساً، واحدة منها الحضارة الإسلامية. ويرى أن الحضارات القديمة لم تكن تتراءى أو تعرف عن وجود حضارات أخرى شيئاً. وأن حضارة الصين لم تكن تعلم شيئاً عن حضارة الإنكا في البيرو. وأن «كريستوبال كولون»، المعروف باسم كريستوف كولمبس، ذهب إلى الغرب وظن حتى موته أنه اجتمع بالهنود، ولم يخطر في باله أنه ضرب ضربته التاريخية بتمليك الغرب ما يزيد عن ضعفي مساحة القمر؟ وسمى الغربيون أمريكا الأرض المكتشفة، وكان فيها ثلاث حضارات اعتبرها المؤرخ الألماني والفيلسوف شبنجلر أنها كانت أفضل في جوانب منها من كل الحضارة الأوروبية التي جاءت تزعم

اكتشاف أرض جديدة وهي عامرة بالسكان بأكثر من سكان أوروبا. ولكنها المركزية الأوروبية وقلة العقل. وينقل لنا الراهب الإسباني «لاس كاساس» أخبار الفتح المبين والفظاعات التي قام بها الإسبان، وكيف تمت إبادة ثمانين مليون نسمة في الأمريكيتين، ولم يكن يزيد عدد سكان إسبانيا يومها عن خمسة ملايين نسمة. وعندما وضعت بريطانيا يدها على جزيرة كوبا لم يبقَ من أصل 2 مليون نسمة من شعب التاينو سوى مائتي شخص حسب إحصائيات أستاذ السوربون «تزفتيان تودودورف» في كتابه «مسألة الآخر واكتشاف أمريكا».

وهذه النقلة من «مجتمع الغابة» إلى «مجتمع الدولة» كانت باتجاه واحد لا رجعة فيه، ولكن بكلفة عالية من حرية الإنسان كما يقول «جان جاك روسو» في المقالة التي نال عليها جائزة جامعية عن أفضل مقالة بعنوان «هل كان التقدم الإنساني في خدمة الإنسان والأخلاق؟»، حيث رأى «روسو» أن الإنسان يولد حراً ومتساوياً مع الآخرين في كل مكان، ولكنه في كل مكان يعيش مكبلاً في الأغلال فهي إلى الأذقان فهم مقمحون. فهل إلى خروج من سبيل؟؟؟

والعلماء لم يختلفوا على شيء مثل الاختلاف حول سبب الطغيان. وفي كتاب «الطاغية» لإمام عبدالفتاح إمام سرد موسع لكل النظريات بين فلسفية لـ«هيجل»، واقتصادية لـ«كارل فيتفوجل»، ونفسية لـ«إيريك فروم»، وصوفية للغزالي، وتورط أرسطو في السبب العرقي الجغرافي بأن الطغيان مسألة شرقية، فكما ترسخت البلهارسيا في مصر والطاعون في الهند والملاريا في روما القديمة، فالطغيان من وجهة نظره أصله شرقي وانتشاره شرقي مثل الأمطار الموسمية، ولكننا نعرف أن الطبيعة غير الثقافة، وأن روما تخلصت من الملاريا، وأن

حدة البلهارسيا والطاعون انكسرت في مصر والهند، وعندما يذهب «كارل فيتفوجل» (Karl Wittfogel) إلى ربط الطغيان بالتجمعات الإنسانية حول الأنهار الكبرى لا يستطيع تفسير الطغيان في فرنسا حين قال لويس الرابع عشر: أنا الملك أنا الدولة. ومن القصص العجيبة التي رواها عنه «روبرت غرين» صاحب كتاب «ثمانٍ وأربعون قاعدة في لعبة القوة» أنه بعد أن استضافه وزير المالية «ميشيل فوشيه» في حفلة رائعة أرسله في اليوم التالي إلى الحبس الأبدي بسبب بسيط أنه سمح لنفسه في تلك الليلة أن يلمع أكثر من الملك الشاب، فكلفه هذا أن ينام في قصره الجديد ليلة واحدة فقط ليبني ملك الشمس بعدها قصور فرساي على نفس الطراز بدون خوف أن يعتقله أحد.

وفي قناعتي فإن أسباب ولادة الطغيان ثلاثة: فيزيائي وبيولوجي نفسي وأنثروبولوجي. ولشرح هذا نقول إن ولادة الدولة كان معناها فك النزاعات بين الأفراد حتى يعيشوا في انسجام في وضع متحمل، ولكن هذا معناه نزع السلاح من يد الأفراد واحتكار القوة بيد الدولة. والدولة كانت عادة في يد فرد أو حزب أو طائفة، وهذا يعني تلقائياً ولادة الطغيان، لأن القوة كما يقول اللورد «أكتون» تميل بطبيعتها إلى الفساد، وقليل من السلطة يعني القليل من الفساد، وسلطة مطلقة تعني فساداً مطلقاً. ولكن لا بد من نشر الأمن بين الأفراد حتى تُبنى الحضارة، فلا يمكن بناء عائلة أو أن نمارس التجارة أو تُطبع الكتب أو تقوم البرلمانات إلا في مظلة الأمن الاجتماعي، فهذه بديهية ننساها وهي تحكمنا أثناء الليل وأطراف النهار مثل من ينسى نفسه أنه يتنفس كل لحظة وحياته لا تقوم بدون التنفس، ولا يعرف نعمة التنفس حتى يصاب بالربو مثلاً، عندها يستيقظ لحقيقة التنفس في

الحياة، وكذلك الحال في حال غياب الدولة والأمن الاجتماعي كما حصل في العراق بعد زوال صدام المصدوم. وينقل عن بلاد فارس أنها كانت توقظ هذا الوعي المرعب مع كلِ موت ملك فيتركون البلد بدون من يخلفه ثلاثة أيام وأربع ليال حسوماً، فترى القوم فيها صرعى من الفوضى والقتل والنهب، حتى إذا انقضت الأيام الثلاثة وهلك من هلك من القوم استغاث الجميع وهللوا لقدوم ولي العهد ومعه الأمن.

ولكن ضريبة هذا كانت مرضَين خطيرَين: «الطغيان الداخلي» و«الحرب» بين مربعات الدول، لأن الدولة وفرت الأمن للأفراد، ولكن لا توجد دولة عظمى توفر الأمن للدول. وهذا هو السر خلف اندلاع الحروب، لأن الحرب هي ظاهرة نزاع بين الدول أو في الدولة الواحدة أثناء تفككها في الحرب الأهلية.

وحسب الفيلسوف الألماني «إيمانويل كانت» في كتابه «نحو السلام الأبدي» (Zum ewigen Frieden) فإن انتشار البشر على وجه الأرض كان خلفه الطغيان والاضطهاد، فهذا الذي بعثر البشر. ولعل انقراض إنسان «نياندرتال» جاء من ملاحقة الهومو سابينز له، وهو جدنا الأول القاتل كما شهدت عليه الملائكة بأنه يفسد في الأرض ويسفك الدماء. ومن تشققات الجماعات هربت مجموعات من وجه الإرهاب والاضطهاد، فبنت مجتمعات جديدة على أمل الخلاص من الطغيان كما فعل الأمريكيون في الأرض الجديدة، لينقلبوا بدورهم إلى قوة عالمية تحلم بالسيطرة على العالم، وهو ما فعلته روما من قبل فدُمّرت تدميراً. فهذه هي سخرية التاريخ وقانون تبادل الأدوار.

ولشرح هذه الفكرة، أي الدورة الخالدة في تبادل الأدوار، أقول ما يلي:

الدورة التاريخية الخالدة

بقرار الملائكة وحكم القديسين نحرم ونلعن وننبذ ونصب دعاءنا على باروخ سبينوزا... وليكن مغضوباً وملعوناً، نهاراً وليلاً، وفي نومه وصبحه، ملعوناً في ذهابه وإيابه، وخروجه ودخوله، ونرجو الله أن لا يشمله بعفوه أبداً، وأن ينزل عليه غضبه وسخطه دائماً... ونسأل الله أن يخلص أولي الطاعة منكم وينقذهم، وأن لا يتحدث معه أحد بكلمة، أو يتصل به كتابة، وأن لا يقدم له أحد مساعدة أو معروفاً، وأن لا يعيش معه أحد تحت سقف واحد، وأن لا يقترب منه أحد على مسافة أربعة أذرع، وأن لا يقرأ أحد شيئاً جرى به قلمه أو أملاه لسانه.

نص اللعنة هذا لم يصب على رأس شقي بل على فيلسوف يعتبر من أعمدة التنوير العقلاني في القرن السابع عشر، الذي تعتبر كتاباته التي لم تتجاوز أربعة كتب إحدى المحطات العقلية الرئيسة في رحلة اكتشاف مسيرة العقل الإنساني، ومغامراته العقلية الضخمة لاختراق المجهول في فضاءات معرفية شتى.

وفي عام 399 قبل الميلاد تم تقديم رجل عجوز، يناهز السبعين عاماً، إلى المحكمة في أثينا بتهمتَي الهرطقة وإفساد الشبيبة، وتم الحكم عليه بالإعدام من أجل آرائه، بجرعة سم الشوكران. كان هذا

المجرم «سقراط»، واستقبل الموت وتجرع السمّ وهو يشرح أفكاره لطلابه المتحلقين حوله حتى اللحظة الأخيرة، وهم يحبسون دموعهم وزفراتهم في مشهد تناقض كوني من هذا الحجم، والتهمة الخطيرة التي كان يمارسها سقراط بحيث اعتُبرت جريمة في نظر المجتمع الأثيني فصوّت بالأكثرية لإعدام ألمع دماغ في المجتمع، أن سقراط كان يرى أن هناك شيئاً واحداً فقط يمكن التأكد منه هو «جهله» ؛ لأن من يعرف أنه لا يعرف، يكون قد وضع رجله في أول طريق المعرفة، لتصحيح ما عنده والاستزادة المعرفية مما ليس عنده، في كون يعج بالمعرفة ووجود لانهائي يستحيل على النضوب المعرفي. وفيها حرَّر مبدأه الأخلاقي الذي استفادت منه مدارس شتى في التاريخ في تأسيس العلاقات الإنسانية، بعدم مكافحة الشر بالشر، وأنه خير لنا أن نتحمل الظلم من أن نمارسه، وأن التغيير الاجتماعي ينطلق مع ممارسة الواجب أكثر من المطالبة بالحقوق، وأن الالتزام الأخلاقي هو الناظم المحوري في الحركة الاجتماعية، وأن البحث عن الحقيقة يجب أن يشكل نهم الإنسان الأول، بغض النظر عن الجانب النفعي فيها، في تشكيل عقل نقدي لا يعرف التقاعد أو الاستقالة في محاولة الاقتراب من الحقيقة... فأعدمته أثينا في أكبر حماقة تاريخية.

قرار لعنة سبينوزا كان في منتصف القرن السابع عشر للميلاد، ولكن قراراً مشابهاً صدر في حق دماغ إسلامي متألق هو ابن رشد في نهاية القرن الثاني عشر للميلاد، ولم تشفع له شيخوخته أن يُلقى تحت الإقامة الجبرية، منفياً في قرية الليسانة اليهودية، ليموت بعدها حزيناً كسير القلب لا يستفيد منه العالم الإسلامي حتى هذه اللحظة، فهو ما زال على القائمة السوداء (مطلوباً). وتم تدشين الأيام الأولى

من عام 1600 بحريق مروع ارتجفت منه مفاصل المفكرين في أوروبا، عندما أُحْرِق المفكر الإيطالي «جيوردانو برونو» حياً في ساحة عامة.

ومرت الأيام وتتالت القرون، فتم ردّ الاعتبار لسبينوزا، ونُحت تمثال لسقراط يحدق بوداعة في حماقة التاريخ، واحتُفل بذكرى ابن رشد، ونُصب تمثال تذكاري لجيوردانو برونو فيلسوف حرية الرأي، في نفس الساحة التي شوي فيها حياً.

فهذه أربعة أمثلة لأربعة مفكرين من أربعة أديان، في نظم تاريخي ينبض بنفس الوتيرة، ويلاقي نفس المصير، بحماقة بشرية لا تعرف الحدود، ومتى كان للحماقة دواء.

طالب الحقيقة عند الفيلسوف نيتشه

وصدق نيتشه الفيلسوف الألماني ذو العقل الجبار، الذي كان يرسم ملامح طلب الحقيقة وصعوبتها، ويعرف الثمن إليها، في قصص من النوع الذي سردنا حين قال: «لا يكفي لطالب الحقيقة أن يكون مخلصاً في قصده، بل عليه أن يترصد إخلاصه ويقف موقف المتشكك فيه لأن عاشق الحقيقة، إنما يحبها لا لنفسه مجاراة لأهوائه، بل يهيم بها لذاتها ولو كان ذلك مخالفاً لعقيدته، فإذا هو اعترضته فكرة ناقضت مبدأه وجب عليه أن يقف عندها فلا يتردد أن يأخذ بها. إياك أن تقف حائلاً بين فكرتك وبين ما ينافيها، فلا يبلغ أول درجة من الحكمة من لا يعمل بهذه الوصية من المفكرين. عليك أن تُصْلي نفسك كل يوم حرباً، وليس لك أن تبالي بما تجنيه من نصر أو تجني عليك من اندحار، فإن ذلك من شأن الحقيقة لا من شأنك».

قصة الفقيه ذي اللوثة العقلية

ينقل لنا الرحالة المغربي الشهير ابن بطوطة قصة مثيرة كان شاهداً فيها أثناء مروره على دمشق حينما تعالى صراخ الناس في المسجد، وهم يحيطون برجل يشبعونه ضرباً، فهرع مع الناس يستطلع الخبر، ليفاجأ بهجوم العامة الكاسح على فقيه «مصاب بلوثة عقلية!» تتعاون عليه الأيدي بالتأديب، بالنعال على رأسه. فسقط الفقيه، وطارت عمامته، وقيد إلى أحد القضاة للتعزير. ونفاجأ بأن الفقيه الذي أكل هذه «العلقة» الساخنة وطارت عمامته من خفق النعال على جمجمته لم يكن سوى العالم المصلح المجدد «ابن تيمية» رحمه الله تعالى!

هذه القصص وأمثالها تروي حقيقة إنسانية مكررة في جانب الإصلاح العقلي في دورة حزينة متكررة، ذات وقع رتيب ودورة خالدة، ترسم التاريخ بالدم والسم والدموع والدخان واللهيب، لا مناص منها ولا مفر، ولا وزر منها أو مخبأ.

فكرة الدورة وعبقرية الاختراع

كل ما في الكون يقوم على حقيقة أنطولوجية تمسك بمفاصل الوجود، من حقيقة الدورة، في شرائح لانهائية للوجود، من الحقيقة الفيزيائية إلى الدورة الفلكية، بين دورة الإلكترون والكوكب ودوران العجلة، من دورة الماء في الطبيعة، إلى دورة الحياة، ومسلسل أيام الدول، ونظم قيام المجتمعات، وحركة نهوض وتعثر الحضارات.

نحن لا نعلم بالضبط من اخترع العجلة، ولكننا نعرف أن

الحضارة الفرعونية صرعت بهجوم العربات التي قادها الهكسوس بهجومهم الصاعق المخترق من غربي آسيا، فالحضارة الفرعونية لم تستأنس الحيوان، ولم تنقل أحجار الأهرام بالعربات، فلم تكن تعرف العجلة التي تدور على نفسها بحركتها الرتيبة التي تعيد نفسها في دورة لا تعرف الملل، نقلت الإنسان في المكان، وحررته من طوق المسافات، وطورت على ظهر هذا الإطار سرعات خرافية وصلت إلى اختراق جاذبية الغلاف الجوي بالصواريخ.

الحركة الدائرية أصل في الوجود

الحركة الدائرية أصل في الوجود، تشكل جدلية مثيرة بين الثبات والتطور، والجمود والحركة، والسكون والانتقال، والمحافظة والتغير.

في الفيزياء تخضع الذرة لهذا القانون بين ثبات النواة النسبي ودوران الإلكترون، وفي الفلك تنتظم حركة المجموعة الشمسية بدوران الكواكب حول الشمس، وكما كان دوران الكوكب يحب القطع الناقص الإهليلجي، فإن حركة الإلكترون تخضع لنفس نظام الحركة كما كشف عنها العالم سومر فيلد في الأربعينات من القرن العشرين.

تتغير طبيعة الماء من النهر إلى النهر، في دائرة محكمة من التبخر من الأنهار والبحيرات، إلى التجمع والتكثف في السماء، إلى السقوط إلى الأرض مرة ثانية، في دورة عملاقة محكمة متكاملة.

يمسك الوجود قانون صارم في دورة حياة النبات والحيوان والإنسان، في حركة قوسية محكمة بين الولادة والنمو، فالنضج،

فالتحلل، إلى الاستسلام، إلى الفناء، ليخرج من رماد الأموات حياة جديدة. فكما عبر القرآن عن طبيعة هذا التغير وشكل التحوّل بأنه من ضعف إلى قوة، ومن القوة من جديد إلى الضعف والشيبة، كذلك اعتبر أن هناك تبادلاً في العلاقات بين الموت والحياة، فهو يخرج الحي من الميت، كما يخرج الميت من الحي تماماً، في معادلة ذات لغز صارم مستعصٍ على الفهم.

إذا كان الإلكترون يدور ليصل إلى حيث بدأ، والأرض تدور لتعود إلى النقطة التي خرجت منها، وقطرة الماء تصعد خفيفة تطير إلى الأفق لتعود سيرتها الأولى نقية طاهرة أفضل مما خرجت، كذلك حياة النسل الجديد، فبقدر سحق الطبيعة للفرد بقدر محافظتها على النوع، في تجلٍّ ثلاثي بديع، فالنسل الجديد يكرر وينقى ويتطور إلى الأفضل، وهكذا فأولادنا ليسوا نسخة عنا، أو «كوبي» مكرّراً، بل هم نسخة أفضل منا، مما لا يمكن لأي جهاز نسخ أن يفعل مثل هذا، في عملية متفردة مدهشة بيد الخالق البارئ المصوِّر.

الدورة التاريخية الاجتماعية

وإذا كان مصير الخلية في البدن يماثله مصير الفرد في المجتمع، بين التضحية بالفرد من أجل الكائن الأرقى، فإن نفس القانون ينطبق على مصير المجتمعات في القدر الإنساني الأعظم. وهكذا فالدول والمجتمعات تمر بنفس الدورة التاريخية، وتلك الأيام نداولها بين الناس، فتولد الدولة قوية ويتشكل المجتمع بفعل دينامي حيوي ذي زخم قوي، لينمو ويتطور، ثم ليتباطأ ويتراجع، ثم ليتحلّل، ليسقط في النهاية في قبضة الفناء والعدم، وهكذا زالت الدول، وطوى

العدم أمماً شتى، وقبائل لا حصر لها، وشعوباً شادت وعمرت، فلا نحس منهم من أحد أو نسمع لهم ركزاً (صوتاً خفياً).

ولكن كما تتحطم الخلايا على مدار الساعة ويحافظ الجسم على الصيانة، كذلك تتحطم الدول والجماعات، وتنشأ محلها مجموعات جديدة أشد زخماً وأعظم حيوية وآثاراً، ومن معدل هذه الدورة التاريخية يمكن معرفة فتوة الجسم من شيخوخته، وشباب الخلية من مرضها، وضعف المجتمع من قوته. فإذا كانت الشيخوخة تداهم البيولوجيا، والتآكل يصيب البناء الهندسي، والمجتمع يتعرض للفساد والانحلال، والتاريخ يمضي إلى الانحطاط، والكون يهرم كما يشرح ذلك القانون الثاني من الديناميكا الحرارية الذي دشنه العالم الفرنسي «سادي كارنو» عام 1829، فإن جسم الإنسانية الكبير في حالة تكاثر ونمو وتقدم بزخم كبير.

الإلكترون يدور، والكوكب يدور، وحركة الهرمون بين الإفراز والإفراغ تنتظم، ودورة جزيء الماء لا تعرف التعب، والزرع يخضر ليصبح هشيماً تذروه الرياح، والبيولوجيا تعزف اللحن الحزين من رحلة القوة إلى الشيخوخة والشيب والضعف، والدول تروي قصة انهياراتها، والحضارات تقص اللحن الشجي لتحللها واستسلامها لقبضة الزمن.

هل هذه رؤية تشاؤمية؟ هل يمكن التدخل لفرملة مخطط السقوط ومنحى الانهيار؟ المؤرخ الألماني «شبنجلر» يرى أنها قوانين عضوية تلف بقبضتها الساحقة الوجود برمته، فهو سياق كوني غامر، يحكم كل قطاعات الوجود، ولكن اتساع حقل الرؤية يمكن أن ينير لنا زاوية مختلفة.

رتابة الحركة وعبقرية التغير

إن إطار السيارة إذا تم تأمله في حركته الذاتية على محوره، يعيد عمله الرتيب الممل، فلا جديد تحت الشمس كما قال الجامعة ابن داود، فالكل باطل الأباطيل، والكل قبض الريح، فالشمس تشرق وتغرب، ولا جديد، ومياه الأنهار تنزلق إلى البحار فلا تملأها، والعين ترى بدون توقف أو شبع، فالكل يكرر نفسه في حلقة رتيبة مملّة فارغة المعنى والهدف!! ولكن رؤية إطار السيارة بمسافة أبعد يرينا منظراً متوهجاً بشكل مختلف، كما هو في نظام التلفزيونات الكبيرة من حجم خمسين بوصة، التي تختفي وتبهت الصورة بالاقتراب من الشاشة، وتلمع وتتوهج وترى بشكل أخاذ مع الابتعاد عنها. هكذا يبدو منظر إطار السيارة. إنه كإطار لم يتغير في حركته الرتيبة، ولكن العربة التي تقف عليه انتقلت بالمكان من موضع لآخر، فكشفت عوالم جديدة وهذه هي عبقرية فكرة العجلة، فهي بدورانها على نفسها لم تخدم نفسها، ولكنها خدمت ما هو فوقها، منفلتة من مكان لآخر. فالعجلة قصرت المسافات، وولدت الطاقة، وأخضعت الريح، بل وأدخلت النشوة إلى الروح مع رقص المولوية، وأدخلت مفهوم اللانهاية مع الطوفان حول الكعبة.

إذا نظرنا إلى حركة أنامل السيدة الرشيقة وهي تصنع كنزة من الصوف أو ماكينة الخياطة وهي تنشئ النسيج عروة وعقدة عقدة، قد لا تفهم حشرة العث هذه الأشكال الدائرية سوى تكرار أحمق لا مبرر له، ولكننا نعرف أن كل الأقمشة هي تراكم من هذا العمل الأحمق الرتيب الدائري المكرر.

الاختراق النوعي عند ابن خلدون

وهنا قام ابن خلدون باختراق نوعي في الفكر عندما انتبه إلى علاقة الانقلاب النوعي مع التراكم الكمي، وأخذت عنه الفلسفة الماركسية هذه الفكرة في إلحاد غير مبرر. فالذي يعيش مع ابنته التي تكبر كل يوم لا يلاحظ نموّها بفعل الرتابة والتكرار اليومي وضآلة التغيرات البيولوجية والفكرية، ولكن الذي ينعزل عن ابنته فترة طويلة ثم يلتقي بها، يصاب بالدهشة من سحر جمالها ورشاقة قوامها وسحر منطقها بشخصية متغيرة جداً، فشبابها اكتمل وجمالها يشع حيوية وبهجة.

هكذا يفعل التاريخ... من يعِش في مجتمع يرَ يومياته، ويكرر هذه المراقبة، سوف يصاب بزغللة العين، فلن يرى شيئاً يبعث على الدهشة من تغير فاقع ساحر، وهذه الرؤية خلف الإحباطات النفسية واليأس عند المصلحين الاجتماعيين الذين يريدون رؤية التغيرات الحاسمة في عصرهم وعمرهم. ولكنهم لن يروا تغيراً يذكر مع أنه تغيّر متدفق لا يعرف التوقف!

استيقاظ الوعي التاريخي في لحظة الانقطاع عن الطبيعة

وإذا كانت البيولوجيا والطبيعة تسمح برؤية متباعدة الزمن، فإن المجتمعات لا تمنح هذه الفرصة، ويبقى أمام المراقب طريق سحري واحد لإدراك التحول الاجتماعي، يراه عقلياً تحليلياً غير منظور بالعين المجردة، في مدرسة التاريخ. فالتاريخ يضيف إلى

العمر أعماراً، فيمدّ في فسحة العمر ومجال الوقت، بحيث يستطيع أن يقفز الفكر مع وحدات الزمن المتباعدة المترافقة بتغيرات مذكورة واضحة، عندها يبدأ الوعي التاريخي، فاستيقاظ الوعي التاريخي كما قال المؤرخ الألماني «بوركهارت» هو لحظة الانقطاع عن الطبيعة.

أعود إلى ابن تيمية والدورة التاريخية، فهناك فكرة مزلزلة وهامة ولا ينتبه إليها إلا أقل الناس، فعندما يشق تيار جديد طريقه الإصلاحي، يُهاجَم من المجتمع بأشدّ من نقر الدجاجات لزميلتهم الدجاجة المجروحة التي تميّزت عنهن حتى الموت، في عقاب جماعي للخروج عن نظام القطيع، وهذا حسّ دفاعي طبيعي من أجل التأكد من جدية التوجه الجديد، وصدق المحتوى، وصلابة العود، وفرط التعلق، وعشق الهدف، ولكن غير الطبيعي فيه والمَرَضي والخطير والغامض، هو أن من يصارع الاتجاه الجديد يفترض في نفسه أنه يمثل الأرثوذكسية، والوصاية على العقول، والتمثيل الصحيح، واحتكار تفسير النصوص، والقبض على الحقيقة الحقيقية المطلقة، ينسى في زحمة الزمن الممتد، أنه قد تحول من حقيقة إلى شكل.

صراع الحقيقة والشكل

فهو «شكل» محنط يصارع في وقت مختلف «حقيقة» تقفز إلى الوجود وتخترق مجال «الشكل» المرتعب. وجرت العادة أن دورة التاريخ تقف وتصف إلى جانب الحقيقة ضد الشكل، وتنتصر في النهاية الحقيقة مع فقدانها لكل اسم لامع ورايات خفاقة وعناوين ضخمة مغرية، ويعود دولاب التاريخ من جديد ليسحق الشكل القديم، وتفرز الحقيقة الجديدة لتأخذ اسماً وتشكلاً جديدين، في ثوب زاهٍ، وألفاظ جديدة، وكيان مختلف، وكما بدأنا أول خلق نعيده.

انقلاب الأدوار

ثم يمضي التاريخ ليروي لنا استمرارية الدورة التي لا تقف عند أحد. فسرعان ما يستسلم هذا الكائن الدينامي، الذي حقق وجوده بالتعب والجهد والعمل العبقري، إلى سحر انتصارات وإنجازات الماضي، وذكريات البطولات والمنعطفات المصيرية، فيظن أن الوقوف بنفس مكان إنجاز السابق سيعيد الحدث، في عبودية حمقاء للشكل ونسيان روح الإنجاز، فيستسلم، فتصرعه عجلة التاريخ، عندما تغادره روح الحقيقة، يذوي ويتحنط متحولاً إلى الشكل الجديد، الذي يصارع بكل ضراوة محاولات التغيير، التي تشق الطريق إليها، الحقيقة الجديدة التاريخية المتشكلة على حين غفلة من أعين المراقبين، ونوم العيون عن حركة التاريخ الخفية التي لا تعرف التوقف قط، وهو لا ينتبه في كل صراعه أنه يعيد الدورة التاريخية في نغم جديد وحلقة مكررة بدأها هو. هذه المرة ليس داود ضد جالوت، بل جالوت قديم ضد داود جديد.

لو عاد ابن تيميه

ابن تيمية الذي ختم حياته في سجن القلعة في دمشق، وضُرب بالنعال فطارت عمامته، كان يمثل الحداثة في عالم محنط خرج عن حركة التاريخ. لو عاد ابن تيمية في أيامنا هذه لأطبقت عليه الدهشة، سوف يتعجب من الناس، سوف تتعجب منه الجماهير، وإذا أُطلقت عليه النار هذه المرة فيجب أن لا يفاجئنا الخبر، لأن هذه هي قصة دورة التاريخ.

وهي الحقيقة المفجعة التي وصل إليها «الفوضويون» (Anarchist) عن فساد الدولة وترجمة اسمهم إلى اللغة العربية ليس صحيحاً وهي تسمية خاطئة بالمناسبة (Anarchism) كما جاء في كتاب الديموقراطية ونقادها للكاتب الأمريكي «روبرت دال» (Robert Dahl) فهي لا تعني الفوضى كما يتخاطر إلى الذهن حينما يقرأ اسم حركتهم، بل الأصح هم أولئك الذين لا يؤمنون بالدولة المركزية. وهذه من مشكلات اللغة العربية وعدم تطورها. فالدولة كانت نعمة من طرف ولعنة من طرف لأنها تقوم على الإكراه. وما قام على الإكراه كان فاسداً. فهذه هي خلاصة فكرة الفوضوية. وهي معادلة ذات مجاهيل كثيرة كسرت رؤوس الفلاسفة حتى اليومٍ في صياغة أفضل وضع للاجتماع الإنساني. ولا يوجد هناك حالياً ما ينافس الديموقراطية سوى نظامين: الفوضوية، وحكم الفلاسفة التي تحدث عنها أفلاطون في كتابه «الجمهورية». والفوضوية استغناء عن الدولة المركزية والتخلص من نظام التراتبية في المجتمع (هيراركي) التي تتيح التسلط والسيطرة والتوجيه. وفي النظام الفوضوي يتم العمل ليس على أساس من علاقات ذات طابع هرمي، بل على شكل ورشة عمل وبمستوى واحد بدون قائد ومقود ورئيس وتابع، والكل إخوان.

وكما نرى، فالدولة المركزية التي اخترعها البشر في التاريخ استطاعت أن تضمن «الأمن» بين الأفراد داخل أسوارها مقابل حبسهم في قفص الدولة هذا، وتقليص حرياتهم الفردية مقابل التمتع بثمرات الحضارة. فالحضارة هي مجتمع المدينة حيث التنظيم السياسي المركزي. ونظراً لأن الجنس البشري لم يكن دولة واحدة بل دول كثيرة، بدون وجود دولة عليا تضمن الأمن بين مربعات الدول

كما كفلت الدولة الأمن بين الأفراد فيها، فقد تولد من لعنة الدولة «مرضان» كل منهما مرض اجتماعي مزمن يقترب حله من المستحيل، وهما «الطغيان الداخلي» و«الحروب مع دول الجوار». و«الحرب» هي مرض «ما بين الدول» كما كان «الطغيان» مرض «ما في الدول». والحرب ظاهرة تحدث بين مربعات الدول أو أثناء تفكك الدول، كما حدث في البلقان وتفكك الاتحاد السوفياتي وما نتج عنهما من حرب البوسنة والشيشان. والأنبياء في التاريخ جاءوا برسالة التوحيد من أجل حذف الآلهة في حياة الناس في أي صورة. ومعالجة الطغيان الداخلي بتحديد جرعة «الإكراه» ما يعادل ضرورة «الأمن». وبفكرة «السلام» التي هي إلغاء الحروب بين الدول. وتضحية إبراهيم بالكبش بدلاً من إسماعيل هي ترميز استبدال التضحية بالقربان عن الإنسان. والحج يمثل بذلك دعوة لاجتماع الناس كافة لشحن الروح السلامية إلى كل العالم في كل فج عميق.

ولكن لماذا توجب بناء الدولة على الطغيان؟ ولماذا انفجرت الحروب بين الدول؟ والجواب على هذا يدخلنا إلى البعد الفيزيائي السيكولوجي؛ فالغازات تنتشر حسب الأحجام المتاحة، وزجاجة عطر يمكن أن تملأ بجزيئاتها أي حجم من فضاء مفتوح. كما يقول «كارل ساغان» في كتابه «الكون» إن كل زفرة ديناصور عاش قبل 165 مليون سنة دخلت في تركيب كل شيء حتى الآن. وحسب «برتراند راسل» في كتابه «السلطان» (The Power) فإنه «لا مانع عند أي إنسان أن يصبح إلهاً أو مؤسساً لديانة جديدة إن استطاع إلى ذلك سبيلاً». ويذهب «أبو حامد الغزالي» في كتابه «إحياء علوم الدين» أن «الحكم هو متعة الإلوهية، ولا تضاهيها أي متعة من طعام وشراب وجنس، فهنا

الامتلاك ليس للأشياء بل للرقاب». ولو أن الرئيس الفرنسي «جاك شيراك» كان في مكان صدام المصدوم لاعتبر أن جده الرابع عشر كان من قبيلة كندة وعنزة. ولو أن صدام وأشباهه جلسوا في مقعد الرئيس الألماني «شرودر» لتحولوا إلى بشر أسوياء وليس إلى طغاة مجرمين. فالوسط هو الذي يضغط الفرد إلى حجمه العادي فلا يمرض بالانتفاخ، والوسط هو الذي يصنع الطواغيت. وهو ما برهن عليه فيلم التجربة الألماني الذي أثار ضجة يوم عرض على الجمهور وكتبت مجلة المرآة «در شبيجل» (Der Spiegel) الألمانية على غلافها الرئيس عنوان بحث اشترك فيه عشرة من المتخصصين في علم الاجتماع تحت عنوان «سيكولوجية السيطرة والانصياع». وفي نهاية البحث أشارت إلى كتاب صدر في السوق لكاتب أمريكي هو «روبرت غرين» يستعرض فيه قوانين لعبة القوة والسلطة مثل لوحة الشطرنج بثمانٍ وأربعين قاعدة.

ولإطلاع القارئ على ما ورد في هذا الكتاب أنقل له فكرة عن الفيلم، ثم أستعرض معه بعضاً من قوانين شطرنج القوة، وكيف يتغير الإنسان بامتلاكه القوة من إنسان طيب إلى شيطان مريد، وأن من يقرر الطغيان ليس الأخلاق الفردية بل الوسط الاجتماعي.

«تجربة ستانفورد» بين السيطرة والانصياع

روى لي معتقل سياسي يساري في بلد عربي لبث في السجن مدة 12 عاماً بسبب تورطه في تنظيم سري، وكان أفضل حظاً من آخرين، فقد قضاها في زنزانة جماعية. وهناك من بقي في الإفرادية فترة أطول بحيث خرج يترنح بين الجنون والعبقرية. قال لي: في إحدى الليالي أراد أن يعاقبنا السجّان لسبب فلم يعثر عليه، ولكنه رأى أحد الناس يصلّي، فلما طلب منه المثول لم يشأ أن يقطع صلاته، فكلفه هذا أن يسحبه السجّان ويرمي به الليالي ذوات العدد في إفرادية مظلمة. كان من يحكم وينفذ هذا نفس الجلاد وبرتبة صغيرة، وعنده صلاحية أن يتصرف في مصائر الأفراد كيفما يحلو له بالتعذيب والإذلال. إن هذه القصة تحكي مرض «علاقات القوة» بين الناس، وتتبدى في صورتها العارية في السجن. وكما قال «أتيين لابواسييه» في كتابه «العبودية المختارة» (عام 1562): «يجب أن لا نراهن على الطيبة الموجودة في الإنسان طالما يمكنه أن يؤذي ومعه مفاتيح القوة». وجميل ما ذكره باسكال: «أي شيء هذا الإنسان الذي يجمع بين الحكمة وبالوعة الضلال أن يكون قديساً أو وحشاً، في كل فرح حزن، ومع كل حياة مأتم. فمن يحل لنا هذا التناقض؟ » .

وفي ألمانيا عرض فيلم «التجربة» (Das Experiment) في شهر مارس من عام 2001، عن العلاقة بين السجان والمسجون والجلاد والضحية، فذعر الناس من رؤية الوحش المختبئ داخل كل منّا ينتظر لحظة الانقضاض. كان الفيلم تكراراً لتجربة «ستانفورد» (Stanford) التي طبقت عام 1971 في كاليفورنيا، التي كانت الأولى والأخيرة في هذا النوع من تجارب علم النفس بسبب الضجة الهائلة التي أطلقتها في الوسط الأمريكي. ما هي القوة؟ يقول «فيليب زيمباردو» (Philip Zimbardo) عالم النفس الاجتماعي الأمريكي: «إنها متعة الإلهة أفروديت». ويقول الغزالي في كتابه «الأحياء»: «إنها أعظم اللذات قاطبة، ولا تقترب منها اللذة الجنسية بحال ولا تقارَن». وهي ممارسة الإلوهية بدون اسمها، وهي آخر ما يخرج من قلوب الصالحين، وصدق الأعرابي حينما وصف متعتها: «يا حبذا الإمارة ولو كانت على الحجارة»، أو على الجثث عند السياسيين. ويروى عن «لينين» قوله: «إن موت ثلاثة أرباع الشعب الروسي ليس بشيء، إنما المهم أن يصبح الربع الباقي منهم شيوعيين». و«لينين» كان كاتباً محترفاً ألّف أكثر من 55 كتاباً، ولم يمارس القتل قط، ولكنه مع التربع على عرش السلطة أرسل إلى الموت الملايين. أما «ستالين» فكان يعتبر أن موت الإنسان قد يكون تراجيديا ولكن موت الملايين مسألة إحصائية. وضمن الملف السري للينين، الذي كشف عنه النقاب أخيراً وسمح للباحثين بالاطلاع عليه في سرداب تحت الأرض بثلاثة أبواب تصمد لضربة نووية، تمت قراءة خطابات لينين الأصلية وكيف كانت حياة الناس تنهى في كلمات وجمل قصيرة، فكل إنسان لا يزيد عن نقطة من حرف. وعرف أن تلهفه لتحقيق أفكاره قام على خرافة

عجيبة، فمع أن كل مَن حوله وكل الظروف وكل أفكار «كارل ماركس» كانت تقول إن الشيوعية هي ولادة من آخر مراحل الرأسمالية، وإن المجتمع الروسي متأخر لم يدخل المرحلة الرأسمالية بعد، إلا أن لينين قام بحرق المراحل لوقوعه تحت تأثير نبوءة من سيبريا، وقول لطبيب في سويسرا إن دماغه معتلّ ولن يعمر طويلاً. وفعلاً مات لينين عن عمر صغير، وأقام شيوعية بنسخة مزورة بالإرهاب الأحمر وحرق المراحل، بما فيها حرق شعب بأكمله وإرساله في طوابير لا تنتهي إلى الموت. واليوم يحشد الشيوعيون كل المؤمنين به ليزوروا ضريحه، فلا يتجاوزون المئات أمام عزم الحكومة السوفياتية على إنهاء خرافة معصوميته وسوق الملايين من الناس زوراً في طوابير ذليلة يتبركون برؤيته ويتمسحون بقبره، وكلفة حفظ جسمه مبرداً تعمل له مؤسسة على مدار الساعة بميزانية بالملايين. صدق الرسول (ص): «خير القبور الدَّرس». عندما يُمنح إنسان مفاتيح القوة فإنه يتغير على نحو درامي في تصرفاته ومشيته ولحن قوله، بل وحتى توقيعه الشخصي. لقد كانت توقيعات «نابليون» أثناء ممارسة السلطة كبيرة واثقة، وعند نهايته صغيرة رجراجة. وتظهر دراسات علم النفس ثلاث حقائق: كم هو سهل أن يتحول الإنسان الطيب العادي مع القوة شيطاناً مريداً. وأن هذا يخص كل واحد منا، فلا يتفلت من هذا القانون أحد. وأن داخل كل منا يجلس فرعون عظيم جاهز لقطع أطراف السحرة وصلبهم في جذوع النخل. وأن قنص السلطة يحرض المزيد، مثل نار جهنم تقول: هل من مزيد؟ فلا تعرف الشبع أبداً. كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى. كانت الخلاصة التي خرجت بها تجربة «ستانفورد» تدعو للخوف حقاً، وإنها «ظاهرة» تتخلل كل المستويات والشرائح

الاجتماعية. إن القوة نادراً ما تظهر على شكلها العاري كما يصف ذلك الفيلسوف «برتراند راسل»في كتابه «السلطان»، ولا تحتاج أن تظهر على شكل سجن وسجّانين وهراوات وقضبان، بل على شكل ألوان وملابس وشارات. فبين «مساعد» في الجيش و«لواء» تهتز من تحته الأرض شارات على الكتف. ولون المعطف الأزرق لعمال الخدمات يكتب مكانة صاحبه أمام أصحاب المعاطف البيضاء من الأطباء معلقة في رقابهم السماعات. بل وحتى بين الأطباء، فكلما ثقل جيب المعطف بأدوات الفحص كان صاحبه أقرب أن يكون طبيباً مقيماً، فإذا لبس الطبيب معطفاً خالياً إلا من قلم بسيط كان عنوان المهابة، إنه رئيس الأطباء. وإذا جاء «ملف» بلون معين إلى «موظف معين» دارت أعينه كالذي يغشى عليه من الموت، إنه من «المعلم» ومستعجل، ويضخ الأدرينالين معها في العروق ضخاً ليرفع ضغط الدم رفعاً، فكانت فاتحة لشلل وخرس وسكتة قلبية. ما زلت أذكر أنا شخصياً عندما «ضبطني» شرطي في بلد عربي في مخالفة سير. كانوا كمن يلقي القبض على أفاك أثيم عتل بعد ذلك زنيم. لقد كانت متعة لهم بدون حدود في ممارسة القوة. وأتذكر بالمقابل في مدينة «براون شفايج» الألمانية عندما اقتربت مني «شرطية» لتقول لي بلطف وأدب: ألا ترى أنك مخالف؟ هل تحب أن تدفع عشر ماركات؟ إنها روح تتخلل المشافي والمؤسسات الدينية والدوائر الحكومية والمدارس والشركات، بل وحتى ضمن العلاقات الزوجية بين الرجل والمرأة. أليست تابعاً مادياً له؟ إن المرأة يتملكها الخوف الشديد في المجتمع العربي بعد تبخر الجمال وزوال نضارة الشباب والتقدم في السن أن يطلقها زوجها ليلقي بها في الشارع بدون أي ضمانة وحماية أو تعويض عن كل رحلة الحياة. لذا تحاول الاعتماد

على رفع مهر المتأخر بدون فائدة، أو تكويم الذهب ما أمكن لعله ينفعها في يومها الأسود إذا زلزلت الأرض زلزالها وانفجر بركان الرجل. إن هذا الوضع طوَّره الغرب، وفي الطلاق لا تخرج المرأة خاوية الوفاض صفر اليدين إلا من مهر متأخر دراهم معدودة غير مضمونة، بل بنصف ثروة الرجل. هكذا تبدو تظاهرات القوة وفي كل مجال ومكان. أحياناً على نحو غامض وغالباً في تفصيلات مخجلة ومهينة بسبب نظام «التراتبية» في المجتمع وتقسيم الناس إلى أعلى وأسفل. وفي مجلة «اليونسكو» أظهرت لوحة الغلاف في أحد الأعداد البشر على طبقات تحمل كل طبقة ما فوقها. وتبدو السفلى أعرض وأمتن، وفوقها تجلس شريحة مرتاحة أصغر حجماً وأشد قوة، صعوداً حتى القمة، حيث تحكم الأقلية والنخبة. وفي القاع تتمدد أكثرية خانعة خائفة محجوزة في مثلث الرعب تدفع الضرائب عن يد وهم صاغرون. هكذا صدر المنشور الشيوعي في مطلع القرن، في القمة «القلة الحاكمة»، وبجانبها كلمة «نحن نحكمكم»، وتحتها شريحة أعرض من الكهنة ورجال الدين والحقوقيين وبجانبها كلمة «نحن نخدعكم»، وأسفل منه الجنود بالحراب وبجانبهم كلمة «نحن نقتلكم»، وفي الأسفل تماماً العمال والفلاحون وبجانبهم كلمة «نحن نطعمكم ونخدمكم»، وطبعاً «ونحمل كل ثقلكم». اعتبر الفيلسوف «فردريك نيتشه» أن «حيث الحياة هناك الرغبة، ولكنها ليست الرغبة في الحياة، بل الرغبة في امتلاك القوة». ولكن فيلسوف الحداثة «ميشيل فوكو» اعتبر أن كل المجتمع غاطس في حوض من علاقات القوة، «فالكل يحارب الكل» في حرب أهلية مبطنة غير معلنة. وفي هذا الخضم العارم من النزاع وعلاقات القوة فإن الأقوياء يسعون ليس إلى بناء علاقات إنسانية، بل إلى إزالة

الطواغيت واستبدالهم بطواغيت جدد، ولذا فإن ما جاء بالقوة أعاد مرض القوة، وهذا سر استعصاء الحياة السياسية في العالم العربي لأنه مبنيٌّ على علاقات القوة، فمن أراد التغيير عمد إلى القوة، ومن ملك أراد أن يستمر في أي صورة وتحت أي اسم، طالما لا توجد قوة تقدر على الإطاحة به. صرح بهذا مسؤول قومي، وأكده مفكر إسلامي، أن الحاكم يملك الرقاب تحت قانون «الغلبة والقهر»، فبهذا قال فقهاء العصر العباسي. صدّق، فالعالم الإسلامي انفك عن أحداث العالم وانفصم عن صيرورة التاريخ وأمواج المعاصرة، واستطاع الغرب فك هذه الإشكالية التي عجز عنها العالم الإسلامي.

إن المواطن العربي اليوم يضع على عينيه نظارة من صنع إيطاليا، ويستخدم التلفون الجوال، ويجري الجرّاح عملية مرارة بدون شق البطن، كما يستخدم الجندي العربي الصواريخ في الحرب، ولكن الوطن العربي يعجز عن نقل الوضع الدستوري، وبناء الديموقراطية، والتخلص من الأحكام العرفية، وحكم المماليك البرجية والبحرية، وتجديد أدعية وخطب المستنصر بالله العباسي، وإذا نقل المعاصرة حملت في توابيت إلى العالم العربي. وهكذا فالمجالس النيابية وظيفتها أن تقول «نعم» للحاكم، والتعددية ديكور سياسي، والصحافة مثل البيضة المسلوقة أمام ديك أوروبي يصيح على السياج، أما حرية التعبير فهي «ردة» أو «خيانة».

نحن نرى اليوم مرض «الطاغوتية» يعم البسيطة بدءاً من هبل الأكبر أمريكا، والشرك الأعظم «الفيتو»، وانتهاءً بالديكتاتوريين «الترانزيستور» في العالم الثالث، أو عمالقة المال الذين يشترون كل

شيء وتمتد إمبراطوريتهم عبر كل القارات فلا تغيب عنها الشمس قط بما لم يحلم به هارون الرشيد والملكة فكتوريا. حيرت هذه المسألة المفكرين منذ قرون فحاولوا فك لغزها. والسؤال: ما الذي يوقظ الشهية إلى قوة لا تعرف الشبع؟ كيف يتقرر مصير من يسلك الدرب ليصل إلى القمة؟ وأخيراً كيف تؤثر متعة القوة في مزاج الأقوياء الجبارين؟

في الواقع تحكمنا علاقات القوة من المهد إلى اللحد. فمنذ الولادة ومع حرص الوالدين الشديد، فقد أظهرت الدراسات النفسية أن الطفل تساء معاملته ما لا يقل عن خمسة آلاف مرة في السنة الواحدة، أي إن أحدنا يخرج مشوهاً على كل حال. وحين ولوج المدرسة تبدأ لعبة الشد والجذب من جديد بين أستاذ يريد ضبط الصف بالعصا بدون إظهارها أو استعمالها بل الإيحاء بها، فالعصا لمن عصا و«العصا من الجنة». ومن طرف آخر التلميذ الذي يريد لشخصيته الاحترام والنمو في وسط يقتل كل نمو. ومع متوسط العمر تبدأ علاقات القوة تأخذ منحى جديداً، فبعد فترة التدريب التي تعتمد الانضباط والدقة والأداء الحسن والإنتاج الغزير تتحول مع مباشرة العمل لصالح من يستولي على مفاتيح القوة، ويصعد إلى القمة ليس أفضلهم بل أخبثهم.

إنه ما زال الطريق طويلاً حتى تبنى حياة إنسانية. وعهد الأنبياء لم يبدأ بعد. وقشرة الحضارة رقيقة للغاية لا تزيد عن ستة آلاف سنة أمام رحلة الإنسان الذي عاش مع الوحوش يطاردها وتطارده منذ ستة ملايين من السنين. وفي نهاية الحياة مع دخول أرذل العمر تتكلس

المفاصل، ويتراجع الدماغ بالعته، وترتج اليدان بمرض باركنسون، يجد الكثيرون أنفسهم من جديد في هذه اللحظة التعيسة أسرى رحمة الآخرين وتصدُّقهم بالمساعدة أو نزق مزاجهم.

هذه المشكلة هزت الدكتور «زيمباردو» (Zimbardo) لفهم ظاهرة الطغيان الإنساني. هل هي إفراز للوسط الاجتماعي؟ هي تابعة للأخلاق الفردية، أو جينات الوراثة عند كل منا؟ فقام بتجربته الشهيرة التي عرفت بتجربة «ستانفورد»، ونشرتها مجلة «در شبيجل» الألمانية (العدد 11/2001) لفهم سيكولوجية «السيطرة والانصياع» والتخدر بـ«أفيون القوة»، وكيف يتغير الإنسان عندما يضع يده على مفاتيح القوة، وما الذي يحول الإنسان من رجل عادي بسيط إلى مجرم محترف وقاتل سادي كما يحصل مع الطغاة؟ قام «زيمباردو» بانتخاب 24 متطوعاً من أصل 75 درسهم في اختبارات الذكاء، حيث ظهروا أناساً عاديين أسوياء. ثم قام بتقسيمهم إلى مجموعتين على نحو عشوائي، فأصبح فريق منهم «مسجونين»، والنصف الثاني «سجَّانين». وزيادة في فعالية التجربة قام البوليس بإلقاء القبض عليهم، فعصبوا عيونهم ثم أودعوا القبو. أما السجَّانون الذين تلقوهم بملابسهم ونظاراتهم السوداء فكانوا يوحون بأنهم شرطة حقيقية معهم كل الصلاحيات وفي أيديهم الهراوات، مع رزمة المفاتيح وكاميرات الفيديو تراقب مع مسجل صوتي في كل زنزانة. في لحظات وصولهم الأولى تم نزع ملابسهم ومسح أسمائهم، حيث تحول كل واحد إلى رقم، ومع البودرة والحمام تم تنظيفهم من القمل، ولبسوا ملابس العنابر القطنية الطويلة المهترئة بدون أي ملابس داخلية، وفي أقدامهم وضعت السلاسل. وأما أغطية الرأس فكانت جوارب

نسائية. كان من المفروض أن تستمر التجربة 14 يوماً، والذي حصل أن الوسط تحول إلى جو إرهاب خلال ثلاثة أيام. وفي اليوم السادس دق ناقوس الخطر، واضطر «زيمباردو» أن يوقف التجربة تحت ضغط زميلته في العمل أنه لا يمكن تبريره أخلاقياً باسم التجارب العلمية، فقد تحول من طبيب إلى مدير سجن. فأما السجانون فقد وصل بهم الأمر إلى درجة حرمان المعتقلين من قضاء حاجاتهم الإنسانية، فغرقوا في قذارتهم، أو دفع البعض لممارسة اللواط ببعض. وأما المعتقلون فكانوا بين من انهار أو اقترب من حافة الجنون أو حمل بمحفة إلى المشفى بحالة إسعافية.

كان كل من الجلاد والضحية مريضاً على نحو ما بين الذل والتجبر واحتقار النفس وجنون العظمة. والنتيجة المفزعة التي خرج بها «زيمباردو» أن ما يحكم ليس الأخلاق الفردية، بل الوسط الاجتماعي، عندما تحين الفرص للتحكم بالآخرين ولا يوجد من يردع. إن هم إلا كالوحوش بل هم أضل سبيلاً.

كانت الرسالة واضحة في التجربة: «يجب أن نستبدل قناعتنا أن مثل هذا لا يمكن أن نفعله. بجملة أصدق: كلنا يمكن أن يفعل أي شيء مع تغير الوسط». وصدق «ديكارت» حينما قال: «إن أعظم النفوس عندها استعداد أن ترتكب أفظع الرذائل». ﴿وَكَانَ الإنسان أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ (الكهف: 54).

والآن سأتناول فكرة أخرى عن أثر القوة في النفوس وكيف تفعل مثل فعل المخدرات بالإدمان عليها وزيادة الجرعة مع انحراف التصرفات طرداً.

الإدمان على مورفين القوة

يذكر «تزفتيان تودوروف» في كتابه «اكتشاف أمريكا» مذبحة مروعة حدثت في «كاناو» في كوبا عندما بدأ الإسبان في اجتياح أمريكا. تبدأ الحادثة بظرف عرضي أثناء تناول طعام الإفطار في مجرى جاف لأحد الأنهار، عندما تلفت نظرهم الأحجار الصوانية المكتظة ما ألهمهم فكرة شحذ سيوفهم. وعند اقترابهم من إحدى القرى الهندية راودتهم فكرة إبليسية، فلماذا لا يتحققون من حدّة سيوفهم إن كانت قاطعة بالدرجة الملائمة. وفجأة يستلُّ إسباني السيف وسرعان ما يحذو المائة الآخرون حذوه، ويشرعون في تمزيق أحشاء أهل القرية الذين كانوا يتأملونهم بوداعة وسلام. وفي دقائق معدودة لا يبقى على قيد الحياة أحد. ولدى دخول الإسبان بيتاً كبيراً مجاوراً هرب إليه من تبقى من أحياء، شرعوا بقتل جميع من كان هناك ضرباً باليمين، حتى سال الدم في كل مكان، كما لو أنه قد جرى ذبح قطيع من الأبقار. ومن بعض اللقطات من هذا الفيلم الإسباني الذي يستوحي زخمه من مصارعة الثيران أنه «عندما نزل الشاب الهندي لمحه جندي إسباني فاستل سيفاً قصيراً ووجهه إليه كما لو كان يريد الاستمتاع بضربة في خصره تعري أحشاءه. ويحمل الهندي المسكين

أحشاءه في يده ويهرب من البيت راكضاً، ويقابل القس الذي يحدثه فوراً عن أمور الإيمان (بأية لغة؟) بقدر ما كانت تسمح بذلك الحالة المؤلمة، جاعلاً إياه يفهم أنه إذا كان يريد أن يُعمَّد فسوف يذهب إلى السماء ليحيا مع الرب. والحال أن المسكين يجيب وهو يبكي ويتأوه من الألم كما لو كان يهلك في اللهب بأنه يريد ذلك، عندئذ عمده القس ثم سقط الهندي ميتاً على الأرض». هذه القصة هي لون آخر من السادية التي ينخرط فيها بعض الناس تحت عوامل سيكولوجية شتى، ليس أقلها الشعور أن «الآخر» لا يساوي شيئاً أكثر من تجربة تافهة، في ظل بعد عن العيون، واختفاء عنصر المساءلة والردع، وزهو القوة بامتلاك السلاح. منذ الستينات يتناقش علماء النفس عن هذا اللون من الانحراف وكيف يحصل، وما هي العناصر التي تتفاعل لتوليده. لقد ذهل العالم «النفسي الاجتماعي» الأمريكي «فيليب زيمباردو» من تحول الناس العاديين في ألمانيا النازية إلى قتلة ساديين. وعندما كانوا يُسألون: كيف فعلتم ما فعلتم؟ كان جوابهم بكل بساطة: هكذا كانت الأوامر، ولم يكن علينا سوى تنفيذها. أحقاً كانت الأوامر فقط أم كان مرض «امتلاك القوة» عندما يسقط البعض ويعتلي ناصية أقدارهم آخرون؟ هل القسوة والسادية سببها «خلل جيني» أم خليطة كيمياوية من «تفاعل التربية والوسط الاجتماعي»؟ لماذا تحدث كل هذه الوحشية في السجون والحروب الأهلية؟ لماذا ينزل جندي إلى قبو لجأت إليه خمسون امرأة يحتمين من حرب أهلية دائرة، فيحصدهن بالرشاش إلا واحدة حمتها والدتها بجسدها فخبأتها تحتها، فبقيت يومان تسبح في الدم ورائحة الجثث، لتبقى الشاهدة الوحيدة تروي قصة الإنسان الوحش. يقول «ميشيل فوكو» عن «تاريخ الجنون» إن

استئصال الرحم عند المرأة مازال في اللغة الطبية يعني حتى اليوم «إزالة حالة الهستريا» (Hysterectomy). لقد استأصلهن الجندي الهمام بضربة واحدة ما لها من فواق. تحت تأثير أمثال هذه الصدمات التاريخية لم يرَ الكاتب البلغاري أستاذ السوربون «تودوروف» لردّ الاعتبار والتكفير عن الذنوب التي اقترفت مع فتح أمريكا أفضل من إهداء كتابه «مسألة الآخر» إلى المرأة الهندية؛ فخلال الحرب أسر القائد «آلونسو لوبيث دي آبيلا» هندية حسناء كانت قد وعدت زوجها بأنها لن تكون لأحد سواه. وهكذا فإن أية محاولة للإقناع ما كان لها أن تنجح في ثنيها عن الرحيل عن الحياة بدلاً من أن تسمح لنفسها بأن يدنّس جسدها رجل آخر. وهذا هو السبب في أنهم قد ألقوا بها إلى الكلاب الضارية المدربة على تقطيع اللحم. يقول «زيمباردو» إن الجلاد والضحية يقعان في حالة انكسار «رافعة القوة»، فيختل توازنهما النفسي معاً ويتحول كلاهما إلى مريض نفسي (Psychopath). وبالتالي فإن كلاً من القتلة الساديين المجرمين والمعذبين المتمردين تتم برمجته في «نظام» مريض. يقول «فولفجانج شول» (Wolfgang scholl) من معهد «هومبولدت»(Humboldt) في جامعة برلين: «إن هناك القليل من الأبحاث التي عنت بعلاقات القوة ولم تأخذ بعد أهميتها على الرغم من تأثيرها في الحياة اليومية». وفي التجربة التي أجراها «زيمباردو» على السجانين والمسجونين في تجربة ستانفورد الشهيرة لم يخرج المتطوعون من هذه التجربة «البريئة» بدون أثر، بل بقوا إلى وقت طويل تحت تأثير الصدمة وهم يستعرضون شريط الوقائع حين تفنّن السجانون في تعذيب الضحايا إلى درجة إغراقهم في قاذوراتهم الإنسانية ودفعهم إلى اللواط ببعض. إن وقائع سجن

«تازمامارت» في المغرب صدمت الضمير المغربي والعالمي عن عمق المأساة التي عاشها رجال في قبور حقيقية عشرات السنوات، وهي عينة من العالم العربي الذي يعيش أيام الباستيل قبل الثورة الفرنسية. إن تجربة «زيمباردو» لم تكرر منذ عام 1971 سوى على شكل فيلم في ألمانيا في شهر مارس بعد ثلاثين سنة. كذلك فإن «مالكي القوة» من الحكام السياسيين ورؤوساء الشركات ليسوا بهذه الدرجة من الغباء أن يفتحوا ملفاتهم السرية لعلماء النفس ويخضعوا للسؤال بحيث تكون مفاتيح سيطرتهم تحت ضوء الوعي وموضع التحليل العلمي. يعتبر عالم النفس السلوكي «سكينر» أن كل شيء خفي مطوق بالأسرار يحتفظ بلون من القدسية، وتتبخر كل الهالة من حوله حين معرفة سره ونقله إلى القانون العلمي: «إننا نعترف بهذه العلاقة الغريبة بين التقدير وعدم وضوح الظروف المسيطرة. ويختلف مدى التقدير باختلاف ضخامة الظروف المضادة. فيتناسب ثناؤنا على الولاء مع حدة الاضطهاد، وعلى الكرم مع أهمية التضحيات، وعلى العزوبية مع شدة الميل للانهماك في المتع الجنسية... ويستمر لاعب الناي في العزف رغم وجود ذبابة تحوم حول أرنبة أنفه، ونحاول ألا نعطس في المناسبات الوقورة، ونأكل الطعام على مهل في حين نشتهي أن نلتهمه كالوحوش الكاسرة، ونمد أيدينا بتؤدة ودون لهفة إلى المال الذي نشتهيه، ونفضل أن نتعرض للحرق ونضع الصحن الحار في بطء بدل أن نتخلص منه بسرعة لا تليق بهيبتنا. إننا نحاول أن نكسب تقديراً عن طريق إخفاء التحكم أو تغيير مظهره. أما العلم فيسعى بطبيعته لإيجاد تفسير للسلوك أكثر كمالاً، فهدفه تدمير الخفايا والأسرار». ولذا كانت الذاكرة الإنسانية مشبعة بفكرة

المعجزات، وجاء الإسلام بحرص وإصرار لكسرها وإدخالها تحت مفهوم «سُنَّة الله»، وأن المعجزة لا تخرج عن قانون سري مفعوله على شكل «نوعي»، وبهذا المفهوم يتعانق العلم والأيمان. ويشير «سبينوزا» في كتابه «اللاهوت والسياسية» إلى هذا الخطأ عن تصور المعجزة: «يوجد الله بمقدار قهره للطبيعة، وهذا جهل بفكرة الله والطبيعة على حد سواء... إن قوانين الطبيعة الثابتة أعظم دليل على وجود الله، بل إن المعجزة لا تحدث خارج الطبيعة، بل داخلها، مع أننا نصفها بأنها فوق طبيعية وبذلك يؤدي الإيمان بالمعجزات إلى الإلحاد. ولم يستطع مدعي النبوة الكاذب إقناع الناس بنبوته مع أنه أجرى المعجزات».

يعتبر كتاب «مالكو القوة» (The Power holders)، الذي كتبه عالم النفس الاجتماعي «ديفيد كيبنس» (David Kipnis) الذي صدر في منتصف السبعينات، من أكثر الكتب المدرسية التي تحلل وتصف على نحو تأسيسي «مظاهر التحول في القوة». وكما يرى «برتراند راسل» في كتابه «القوة» (The Power) أنه إذا كانت القوة النووية هي الأساس في علم الفيزياء، فإن «السلطان» هو الطاقة الأساسية في المجتمع، وكما كان للطاقة في الطبيعة مظاهر تحول، كذلك السلطان في المجتمع، مثل تحول سلطان الكهنوت أو المال أو السياسة إلى شكل آخر. وهو يعدد من مظاهر السلطان هذه ستة: «الكهنوت، والملوك، والعسكري، والثوري، والاقتصادي، والسلطان على الرأي أي آلة «الإنفوميديا» بامتزاج الإعلام مع المعلومات». تماماً كما في تحول الكهرباء إلى طاقة حركية أو حرارية أو حتى انفجارية تدميرية، ويقابلها عمل الطغاة في المجتمع، فيدمرون ويفسدون في الأرض ولا يصلحون.

يقول «راسل»: «السلطان هو المفهوم الجوهري في العلوم الاجتماعية تماماً كما أن الطاقة هي المفهوم الجوهري في علم الطبيعة. وللسلطان، كما للطاقة، مظاهر شتى. منها الثراء ومنها التسلح، ومنها السلطات المدنية، والتأثير على الرأي العام، ولا يمكن اعتبار أي من هذه الأشكال تابعاً للآخر، كما أنه ليس ثمة شكل واحد تشتق منه بقية الأشكال الأخرى. فالسلطان كالطاقة يجب أن يعتبر متنقلاً من أي شكل من أشكاله إلى الشكل الآخر. وعلى علم الاجتماع أن يتحرى وضع القوانين التي تنظم مثل هذا التحول أو التنقل». وعندما يعلل «راسل» هذا العطش إلى القوة، يرجعها إلى طبيعة خاصة في الإنسان تفرقه عن الحيوان، فثعبان «البوا» ينام بمجرد أن يزدرد فريسته، فلا يتحرك إلا بشهية جديدة إلى الطعام، ولم يكن ينقص «كزركسيس» العاهل الفارسي القناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث والزوجات الجميلات الناعمات عندما قام بحملته المدمرة على أرض اليونان. كما أن سجلات «عبدالناصر» لم تظهر امتلاكه المليارات في البنوك السويسرية خلافاً للنخب الحاكمة الحالية، ولكنه كما وصفه «حسن العشماوي» كان يريد: «أن يجلس على مكتب فيه زران كهربائيان، إذا ضغط على أحدهما قام الشعب كله، وإذا ضغط على الآخر جلس الشعب كله دون أن يخرج على هذا الإجماع أحد. وأنه لذلك يريد أن يطهر البلد من كل العصاة. قال له صديق: إن هذا حال الأرجوزات لا الشعوب. إنك لن تفرغ البلد من العصاة بل من الأحرار لتحكم قطيعاً من أغنام أو عبيد».

يقول «راسل»: «ربما تكتفي الحيوانات بالوجود والتوالد، في حين يتشوق الناس إلى التوسع والتمدد، ولا حدود لهذه الرغبات في

هذا الصدد، إلا ضمن إطار ما يحدده لها الخيال من حدود ممكنة. فكل إنسان يود أن يكون إلهاً إذا أمكنه ذلك». وقليلون هم أولئك الذين يصمدون أمام هذا الإغراء.

ولو عرض على «بوش» حكم بلد من العالم الثالث لانفرجت أساريره، وزعم أن جده الرابع عشر من البلد، لأنه يعلم أنه سينفق ملايين الدولارات بدون ضرائب ومراجعة الكونجرس، وأنه لن يُسأل عما يفعل وهم يسألون، وأن الجماهير العمياء ستصفق له إلى الأبد في عرش مضمون له ولذريته من بعده. يستعرض «كيبنيس» في كتابه ثلاثة مظاهر رئيسة لمالكي القوة: 1- إضافة الانتصارات إلى سجله، وأما الكوارث فتبقى لمساعديه الحمقى المقصرين، أما هو فلا يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه. 2- وتحت تأثير خدر «هيروين» القوة التي تحقنها في وعيه الحاشية المتملقة المستفيدة يدخل في روعه أنه هو الأعلى، وأن الإله صيَّر طينته جوهراً، ومن غباره شاد كوناً آخر؛ فالناس حجر وهو معدن نفيس من المريخ. وهذا يقود إلى «خطيئة الخطايا»، أي الاعتقاد بمعصوميته وتعاليه عن النقد ونزاهته من الخطأ، فهو النقي التقي الطاهر العلم، ليصل في النهاية إلى ظاهرة الاستخفاف بالعباد. يصف الله فرعون أنه ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ (الزخرف: 54). 3- وفي النهاية يقع تحت إدمان «مورفين القوة»، فالمدمن يقع مع تعاطي الهيروين في قبضة الإدمان من جرعة واحدة، والحاكم يقع في شعور التأله والعظمة مع النَفَس الأول لحشيش السلطة، فيترنّح بخمر السلطة اللذيذ. وإذا كانت أبخرة الحشيش تعمي الرؤية وتقود إلى الهلوسة فهذا هو مصير الحكام بانفصالهم عن واقع شعوبهم. من يسيطر على الآخرين يسجل

لنفسه الانتصارات. ومع أن رمسيس الثاني نصب لنفسه من التماثيل أكثر من كل الـ 330 ملكاً الذين حكموا مصر، وزور الكثير فنسبها لنفسه، ولكن أكبر هزيمة في تاريخه في وجه موسى (عليه السلام) لم يذكرها بكلمة. وكل الهزائم العربية اعتُبرت انتصارات للأنظمة. هكذا يعلم طلاب المدارس الذين يرضعون ثقافة الغلط ويعيشون محنة ثقافة مزورة. وعندما تحطم أسطول نابليون في معركة «أبو قير» على يد البريطاني «هوارسيو نيلسون» ومعها أعظم تحفة فنية عسكرية «سفينة الشرق» عزى الكارثة إلى قائده «برويه» لأن نابليون كان مشغولاً بتسجيل انتصاراته عند سفح الهرم على فرسان المماليك الذين انفصلوا عن صيرورة التاريخ. وعندما يريد نظام ما أن يضحي بأحد فإنه يختار كبشاً أملحاً فيضربه في مقتل، ويكون في العادة من الضعفاء المغفلين، أما «خراجات» و«أعشاش» الفساد الفعلية فتبقى في حرز أمين. ويصف «كيبنيس» في فقرة خطيرة: «كلما ازدادت القوة في يد أحدهم مال إلى اعتبار نفسه مهماً ومعصوماً، وأنه مسموح له بالتصرف لأن الآخرين تافهون». وما حصل في تجربة «ستانفورد» في السجن وصل إلى هذه الحدود، فلم يعد السجانون ينادون على السجين بالرقم بدون اسم، بل بألفاظ التحقير والسباب في كل ما يقدسه ويعتقده.

وفي بعض الجيوش العربية استقبل المدرب فوجاً جاء لتأدية خدمة العلم، ومنهم أطباء ومهندسون، فكانت الكلمة الأولى لهم: انسوا شهاداتكم لأنها تحت حذائي هذا. لقد أظهرت التجارب أن المسجونين يخسرون مع الوقت احترامهم لأنفسهم وآدميتهم مقابل الانضباط، ويكون انتقام النفس في هذه الإهانة العميقة رهيباً إذا وقعت الواقعة. وبالمقابل فإن مشاعر الاعتداد بالنفس تتصاعد عند

جبابرة القوة في وسط تحيط بهم حاشية تعيش على التملق والمديح بما ليس فيهم، بحيث يستولي عليهم في النهاية شعور أنهم يتصرفون لأنهم «أفضل» الناس، وأن كل ما يفعلونه صدق وعدل ومبرر. كذلك أظهرت الدراسات أن أفظع الناس وأدعاهم أن يخشاهم المرء هم أولئك الذين ينقصهم الحس القيادي ليصبحوا في ليلة معتمة في مكان الصدارة والقرار. يقول «يورج فيرتجن» (Joerg Wirtgen)، المسؤول عن تخريج أطقم القيادات الإدارية في ألمانيا حسب ما ورد في مجلة «در شبيجل» الألمانية (العدد 11/ 2001): «إنهم بسبب ارتكاسهم الداخلي المملوء بعدمٍ الثقة بالنفس فإنهم مع التسلط يصبحون مع الوقت دوماً أكثر خبثاً وسمّية».

ويروي تاريخنا أن الحجاج جلس يوماً لقتل أصحاب عبد الرحمن بن محمد الأشعث، فقام رجل منهم فقال: أصلح الله الأمير، إن لي عليك حقاً. قال: وما حقك؟ قال: سبّك عبد الرحمن يوماً فرددت عليه. قال: من يعلم ذلك؟؟ قال: أنشد الله رجلاً سمع بذلك إلا شهد به. فقام رجل من الأسرى فقال: قد كان ذلك أيها الأمير. فقال: خلّوا عنه. ثم قال للشاهد: فما منعك أن تنكر كما أنكر؟ قال: لقديم بغضي إياك. فقال الحجاج: ويخلى عنه لصدقه.

إنها قصة مفزعة من تاريخنا يقتل بها الإنسان على الكلمة ويطلق سراحه بكلمة ويخلدها تاريخنا أنها من المآثر. إنها نكبة بكل معيار، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وفي النهاية آتي لعرض بعض من لعبة الشطرنج في القوة الاجتماعية، ويمكن مراجعة القواعد كاملة في كتاب «القوة» لروبرت غرين كما ذكرت.

شطرنج القوة

كان «مكيافيلي» صاحب كتاب «الأمير» متفائلاً وسط الفوضى الطاحنة مع مطلع القرن السادس عشر أن تكون الظروف مهيأة لولادة عبقرية إيطالية. فمع اشتداد الظلام يقترب الفجر. ومع اشتداد الأزمة يأتي الفرج. وعندما تحبس الذبابة في زجاجة يزداد نشاطها حتى تنطلق من العنق المفتوح أمامها وهي لا تبصره. وعندما كان «مكيافيلي» يحدق في الظلمات المطوقة للوضع أدرك بعمق أن هذا التردي يخلق الحاجة للتفكير في الإصلاح، وأنه من الضروري لإيطاليا أن: «يكون أهلها مستعبدين أكثر من اليهود، ومضطهدين أكثر من الفرس، وممزقين أكثر من اليونانيين، لا زعيم لهم ولا نظام، مغلوبين على أمرهم ومسلوبة أموالهم وأذلاء، وأن تكون بلادهم قد احتملت من الدمار والخراب كل شكل ونوع». ليخلص إلى نتيجة ذات بال، فقد كان من الضروري لظهور قوة موسى «أن يكون الإسرائيليون عبيداً في مصر». هل يذكر هذا بوضع العالم العربي بحيث يدفعنا إلى تفاؤل مكيافيلي من القرن السادس عشر؟ إن القرن الثامن الميلادي كانت لعنة على بريطانيا عندما حل على رؤوسهم «الفايكنج»، ولكنه كان السبب في وحدة الجزيرة. ولم تنبثق الحضارات إلا في جو التحدي كما وضع المؤرخ البريطاني «توينبي» نظريته في قانون «التحدي والاستجابة». وفي علم النفس يرى العالم «هادفيلد» أن «الإرادة» تتحفز مع وجود «المثل الأعلى» كما تتحرض الخلايا العصبية بالضوء

والصوت. ونزل القرآن على «مكث» لأنه كان يحدث نقلة نوعية في تربية جيل كامل يقطع عملية تكرار إنتاج الثقافة الجاهلية. لم يطبع كتاب «الأمير» لمكيافيلي إلا بعد موته بخمس سنوات عام 1532. وعلى الرغم من مرور خمسة قرون على إصداره فهو مازال يعتبر من الكتب التأسيسية في علم السياسة لثلاثة أسباب: صراحته، وبساطته، وأنه خير مرشد لكل من يمسك رقاب العباد. ويقول عنه الزعيم الفاشي «موسوليني» الذي حصل على درجة الدكتوراه من أطروحته حول الكتاب أنه: «ملازم لرجل الحكم». ولكن لماذا كان الكتاب تحت وسادة الكثير من الحكام بحيث جعله نبع تغذية لكل من خاض في أوحال السياسة؟ الجواب يأتي من قواعد اللعبة السياسية التي فهمها الرجل. إنه يشابه ابن خلدون في فهم طبيعة العمران والاجتماع البشري. إنه يريد فهم كيف «تجري» الأمور وليس كيف «يجب» أن تسير الأمور؟ ومن بضع فقرات نراه يدرك الطبيعة الإنسانية. فهو يرى أن «الشح هو إحدى الرذائل التي تمكن من الحكم»، وأنه من الأفضل «أن يخافك الناس على أن يحبوك»، وأن لا يسلب الأمير ممتلكات الناس لأن «من الأسهل على الإنسان أن ينسى وفاة والده من أن ينسى إرثه وأملاكه». وأن من الواجب «اقتراف الإساءات مرة واحدة بصورة جماعية، فهذا يفقدها مزية انتشار التأثير، وبالتالي لا تترك أثرا سيئاً»، وأن «المنافع يجب أن تمنح قطرة قطرة حتى يشعر الشعب بمذاقها ويلتذ بها» مقابل صب العذاب صباً. كما عقد فصلاً عن «أولئك الذين يصلون إلى الإمارة عن طريق النذالة»، كما حصل مع «أغاتو كليس» الذي ارتقى عرش صقلية و«استدعى ذات صباح أهل سراقوسة ومجلس شيوخها للتشاور معهم في قضايا بالغة الأهمية بالنسبة للجمهورية. وعند

إعطائه الإشارة المقررة قام جنوده بذبح جميع الشيوخ وأثرياء المدينة. وبعد أن تحقق من قتلهم تمكن من احتلال المدينة وحكمها دون أن يخشى المنازعات الداخلية»، وهو قانون استتباب الأمن في برنامج الدول القمعية، عندما تموت الأمة ويتحول المجتمع إلى متحف حي محنط يتقن الصمت إلى يوم يبعثون. كما أن الحكام «تمكنوا بالمكر والدهاء من الضحك على عقول الناس وإرباكها، وتغلبوا على أقرانهم من الذين جعلوا الإخلاص والوفاء رائدهم» وأن ثمة طريقين للقتال «القانون والقوة»، ومن الضروري للأمير أن يعرف استخدام الطريقتين معاً، وهو ما نصح به الأقدمون مشيرين إلى «شيرون القنطور الخرافي» الذي كان نصفه إنسان ونصفه حيوان. وعلى الحاكم أن يقلد الثعلب والأسد معاً: «بأن يكون ثعلباً ليميز الفخاخ، وأسداً ترهبه الذئاب». ولأن الناس سيئون ولن يحافظوا على عهودهم فإنك «لست ملزماً بالمحافظة على عهودك لهم، والبابا ألكسندر السادس لم يقم بأي عمل سوى خداع الآخرين». وعلى الحاكم أن «يتظاهر» بصفات خمس: «الرحمة مجسدة، والوفاء للعهود، والنبل، والإنسانية، والتدين. ولعل الصفة الأخيرة أكثرها لزوماً لأن الناس عموماً يحكمون بعيونهم أكثر من أيديهم، ولأن في وسع كل إنسان أن يرى». وأما القلة التي تحس بالحقيقة فلها حساب عسير مستقل. إذ إن «من عادة الدهماء أن تغرهم المظاهر ونتائج الأحداث. ويتألف العالم من الدهماء، أما القلة الذين لا يعتبرون من الدهماء فهم معزولون عن الناس». إذا كان كتاب الأمير قد أدى غرضه في القرن السادس عشر وتعرض لنقد واسع وأصبحت سياسة «أن الغاية تبرر الوسيلة» شعار المكيافيلية التي ترمز إلى كل ما هو لاأخلاقي، فقد خرج اليوم «روبرت

غرين» بكتابه «القوة» بما يعتبر «كتاب الأمير الجديد». ويعتبر هذا الكتاب، الذي أصبح من أكثر الكتب بيعاً وترجم إلى العديد من اللغات، مصدر متعة لفهم آليات عمل القوة في علم النفس الاجتماعي. ويرى الكاتب أن العمل الاجتماعي يخضع لقوانين كما في الفيزياء بفارق «نوعي معقد» بسبب كثرة تداخل العناصر. وكما يقول «ليونارد راستريغين» في كتابه «مملكة الفوضى» أنه عندما نلقي القطعة النقدية في الهواء فبقدر ما نحن متيقنون بسقوطها إلى الأرض بقدر عدم يقيننا على أي وجه سوف تسقط. كل ذلك بسبب تشابك العلاقات والعناصر التي هي ليست أقل من أربعة في هذه الحالة من نوعية المعدن، وسرعة القذف، ووضع الهواء، وطبيعة الأرض التي ستنزل عليها. يقول «روبرت جرين»: «إذا تأملنا لعبة الشطرنج وجدنا فيها ثمانٍ وأربعين خانة، وهي في علم السياسة والقوة تتكون من ثمانية وأربعين قانوناً نوعياً». وهو يزعم أنه جمعها من التجربة البشرية خلال ثلاثة آلاف من السنين، وبمئات الأمثلة والقصص، ومن الخزان الثقافي من كل الشعوب. وقد قام في كتابه بعرض القانون، ثم اختصر شرحه في أسطر قليلة ليذكر نموذجاً إنسانياً من التاريخ في معنى الالتزام بالقانون. وبعد ذلك يقوم بتفكيك آلية عمل القانون، وفي النهاية يذكر أمرين: خرق القانون وعقوبته، أو مفتاح الوصول إلى القوة. ويمكن قطف حزمة من هذه القوانين، ولا يعني هذا موافقتنا على كل الأفكار. وهي أوضاع يستفيد منها من يضعون أيديهم على مقدرات البشر أو يصعدون سلّم القوة. كما أنها تنفعنا في فهم الصراع الإنساني الضاري على النفوذ: 1- «لا تدفع رئيسك إلى الظل» فيجب أن يشعر من هو فوقك أنه الأعلى، وإن التمعت مواهبك أكثر من اللازم

حصلتَ على عكس المقصود. إنك بذلك توقظ مخاوفهم والشعور بعدم الأمان. 2- «لا تثق بالأصدقاء جداً وابن جسراً مع الأعداء» لأن العدو يجب أن يثبت لك دوماً أنه ليس بعدو، أما الصديق فقد ينقلب عليك ويخون وعلى نحو مدمّر. وفولتير كان يقول: «اللهم احفظني من أصدقائي وأما أعدائي فأنا بهم كفيل». 3- «حافظ دوماً على نواياك سرية» لأن من لا يعلم بنواياك لا يستعد ضدها، كما قد يندفع في طرق مضللة، وعندما يظهر كل شيء للعيان يكون الأمر جداً متأخراً لعمل شيء. 4- «تكلم أقل من اللازم» لا تحاول إقناع الناس بكثرة الكلام، فكثرة الكلام تنسي بعضه بعضاً. وكل كلام فوق الكلام يخفض مستوى تأثيره. والرجال العظام تركوا أثرهم بالقليل من الكلمات. وكل زيادة في الثرثرة تجلب لنفسك الحماقة أضعافاً مضاعفة. 5- «يعيش الإنسان على سمعته» فاحمها بكل وسيلة ممكنة. والسمعة النظيفة أحد أعمدة القوة، وبخسارتها تصبح قابلاً للنيل منك ومعرضاً للهجوم من كل جانب. اجعل من سمعتك قوة غير قابلة للسحق، وانتبه لكل احتمالات الطعن وعالجها فوراً وفي مكانها. وفي الوقت الذي تهدم فيه سمعة خصمك عليك أن تتأمل الجماهير بهدوء وهي تقاضيه وتقضي عليه. 6- «اسعَ إلى التميُّز بأي ثمن» فما يحكم هو المظهر وما لا يُرى لا يُعدّ؛ فاحرص أن لا تذوب بين الجموع، وشدّ الانتباه إليك بأنك الأكثر إثارة والأكبر حجماً، وأنك مليء بالأسرار، فكل أمر انكشف سره رجع عادياً مهما كان هائلاً. 7- «اجعل الآخرين يعملون لك وسجل ذلك لحسابك» استخدم التقنيات المتقدمة والعمل اليدوي للآخرين، وبهذا لن توفر الوقت والطاقة فقط، بل ولسوف تحاط بهالة من الإنجاز والفعالية. فأما مساعدوك فسوف يُنسون وأما أنت فلن تُنسى. فلا

تعمل باليد ما ينجزه لك الآخرون. 8- «دع الآخرين يأتوك، وإن تطلب الأمر فألق إليهم بالطعم كي يقصدوك». 9- «الأفعال هي التي تُعد وليس الجدل حولها». 10- «تجنب العدوى من التعساء وغير المحظوظين» وقل لي من تخالط أقل لك من أنت. 11- «اجعل الآخرين متعلقين بك». 12- «جرد خصمك من سلاحه بشرف وكرم». 13- «وضح لمن تطلب منه المساعدة أنها في مصلحته». 14- «تعاطَ كصديق وتصرف كجاسوس». 15- «دمر خصمك على نحو كامل بدداً ولا تترك منهم أحداً». 16- «المع بالغياب لزيادة الاحترام والسمعة تحت قانون: هالة الغياب وسحر الغموض». 17- «اجعل الآخرين في حالة خوف دائم منك، واخلق حولك هالة من عدم التنبؤ بما ستقدم عليه». 18- «لا تحم نفسك بالتحصينات، فالعزلة خطيرة». 19- «ليكن لديك واضحاً مع من تتعامل ولا تُسِئ للآخرين فتضل سواء السبيل». 20- «تجنب الالتزامات ما أمكن». 21- «تظاهر بالحمق كي تخدع المغفلين، وقدم نفسك أنك غبي أكثر من ضحيتك». 22- «تظاهر بالاستسلام وحوِّل الضعف إلى قوة». 23- «وفر طاقتك وركز مجموع قوتك في النقطة الحاسمة». 24- «العب دورك جيداً في الحاشية» فكل شيء يدور حول السلطة واللياقة السياسية، وما يسود هو الطرق غير المباشرة، ومن أتقن هذا الفن صعد درجات السلم. وإذا كان هذا نصف مجموع القوانين، فيمكن أخذ بعض نماذج مما أوردها الرجل في كتابه الممتع. فعن قانون «تكلم أقل من اللازم» يذكر أنه في عام 1825 وقع تمرد في روسيا ضد القيصر نيقولا الأول يطالب بالإصلاح. قمع القيصر الانتفاضة بدون رحمة، وحكم على خمسة بالإعدام. ويبدو أن «كوندراتيج ريلييف» كان ثقيل اللحم فانقطع به

حبل المشنقة، وكان العرف يقضي بالعفو عنه، إلا أن صاحبنا قام فصاح إنه لا يتقن شيئاً في روسيا بما فيها جدل حبال المشانق. كان القيصر قد وقع على ورقة العفو ولكنه سأل الرسول: ما كان موقف الرجل مع هذه المعجزة؟ فأخبره بما قال. قال حسناً له ما أراد، اجدلوا له حبلاً لا ينقطع أبداً. وفي اليوم التالي سيق إلى حبل المشنقة ولم ينقطع الحبل.

الوسط والفرد وحقول التبادل

الوسط إذاً هو الذي يضغط الفرد إلى حجمه العادي فلا يمرض بالانتفاخ، والوسط هو الذي يصنع الطواغيت. ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ (الأعراف: 58). وينقل «عبدالرحمن الكواكبي» في كتابه «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» عن الملكة البريطانية «فيكتوريا» أنها كانت تشتهي أن تحكم عشرة أيام حكماً مطلقاً، ولكن هيهات، لأنها تتذكر رأس «تشارلز» المقطوع عام 1648 كما جاء في قصة رأس الذئب المقطوع. ففي يوم اجتمع الأسد مع الذئب والثعلب في صيد فكانت حصيلته ثور وخروف ومعزة، فسأل الأسد الذئب: ماذا ترى في قسمة الصيد؟ قال: الأمر واضح، فالثور لك والخروف لي والمعزة للثعلب. فما كان من الأسد إلا أن أهوى بذراعه على رأس الذئب بضربة واحدة ما لها من فواق فتدحرج رأس الذئب. ثم التفت إلى الثعلب فقال: يا أبا حصين، ما رأيك في القسمة؟ قال: مولاي ملك الغابة، القسمة واضحة ولا نقاش فيها، فأما الثور فهو لغدائك، وأما الخاروف فهو لإفطارك، وأما المعزة فتتعشى بها تسلية. ضحك الأسد وقال: من أين تعلمت كل هذه الحكمة؟ قال من رأس الذئب المقطوع.

جدلية العناصر الداخلية والخارجية

ما هو السبب خلف سقوط غصن أو اندلاع حرب؟ ما هو عامل تفشي مرض وهزيمة أمة؟ ما هي المسببات الرئيسة خلف انفجار ثورة وتفكك دولة وتحلل حضارة؟ هل هناك رؤية مشتركة لفهم خلفية ولادة كل هذه الواقعات غير المتشابهة؟ هل يمكن وضع اليد أو قنص السر المخفي، والقانون المهيمن خلف خروج هذه الحوادث إلى السطح؟ هل هناك رؤية أنطولوجية «وجودية مشتركة» لكل هذه الأحداث غير المتناسقة والمتشابهة، غير المتناسقة في مظهرها الخارجي، والمتشابهة في خلفية علّة ولادتها.

مع مواجهة كل أزمة تاريخية أو الوقوع في كارثة قومية يطيب لنا توجيه أصبع الاتهام إلى العدو الخارجي، ولكن هل هذا مخرج للمصيبة أو حل للمشكلة؟!

إن هذا الضرب من التفكير ليس فقط أنه لا يقود إلى حل المشكلة والخروج من الورطة بسلام، بل يقود إلى نوع من المرض النفسي الخطير، فطالما كانت ذواتنا خارج حقل المشكلة، بقي الحل في الظلام بعيداً عن متناول اليد، وبقيت بالتالي ذواتنا مبرأة عن أي خطأ، والمساهمة في أي خلل، فذواتنا فوق الخطأ ودون النقد، ولا تقترب منها يد التشريح وأدوات السبر. واستمر الخطأ يقود إلى مزيد من الخطأ، بتعطل آلية تصحيح الخطأ، فالعثور على كبش فداء جاهز يفرمل آليات الجهد الذاتي بشكل كامل مطبق، فعندما يكون المتسبب عن الخطأ خارج ذاتنا، يتولد عنه تلقائياً أمران: الراحة النفسية بالعثور على سبب وهمي، وإيقاف كل آلية يمكن أن تتدخل في مسار الأحداث لإصلاحها.

في مستوى الطبيعة يطرح السؤال نفسه: ما الذي يتسبب في سقوط غصن ما؟ هل هي الريح؟ لو كان الريح سبباً لسقطت كل الأوراق، وتناثرت كل الأغصان!! ولما سقطت الأوراق بدون ريح في فصل الخريف!! فلا عنفوان الريح أسقط كل الأوراق، ولا هدوءها حمى الأوراق من التهاوي.

البحث الأعمق يصل إلى اكتشاف عنصر خفي لا تراه العين بسرعة، هو قوة ارتباط الورقة بالشجرة، فالعنصر الخارجي الممثل بالريح لعب دوراً واضحاً عاصفاً مثيراً ظاهراً للعيان، ولكن النخر الداخلي مختبئ خفي لا يطل برأسه إلا بالبحث المنظم المعمق التأملي السببي.

العامل الخارجي تضافر مع العامل الداخلي في ولادة الحدث، ولكن العامل الداخلي هو الذي هيّأ الظروف الموضوعية لولادة الحدث وسقوط الورق وتناثر الأغصان.

وفي مستوى البيولوجيا مع حدوث «المرض العضوي» وخلل البيولوجيا يلتفت الناس إلى الجرثوم أو الفيروس الخبيث، الذي فجر عاصفة المرض، ولكن الجرثوم موجود دوماً، ولا يصاب كل الناس في كل الأوقات مع حضور الجرثوم وتواجده الدائمَين، وفي كل فوهاتنا، وداخل أمعائنا، ومع كل وجبة طعام تزدحم الملايين من طوابير البكتريا، وينسى الناس أو لا يدركون دور جهاز المناعة الداخلي في تنظيم السلامة والمرض.

يا ترى ماهو المرض وماهي الصحة طبياً وفلسفياً؟

الصحة هي حالة التوازن بين هجوم جرثومي لا يعرف الاستراحة والتقاعد والإجازة، وبين جهاز مناعي تأخذه السنة والنوم أحياناً لسبب أو آخر فينهار، ومع انكسار التوازن يتولد المرض، فيسقط الإنسان طريح الفراش لإعادة آليات التوازن إلى مسارها الطبيعي، بتغلب جهاز المناعة «الداخلي» على العدو الخارجي الممثل في الجرثوم والفيروس وسواهما. ويلعب الدواء والغذاء والراحة دور العناصر المساندة والمريحة لإتمام وتنشيط آليات عمل جهاز المناعة الداخلي للقضاء على المرض وسحق الهجوم الجرثومي.

وفي المستوى النفسي يفضح شعور المجرم سلوكه ويدلل عليه، كما في قصة حكيم القرية الذي أراد ضبط لص القرية فجمعهم في صعيد واحد، وصاح بهم: إن لصنا لم يكتفِ بجريمته، بل قام يتبجح بها فينصب على رأسه ريشة طاووس زاهية الألوان، فعمد أحدهم إلى رأسه فمسحه، فتسابقت الأيدي إليه تحكم الخناق عليه!

وفي المستوى الاجتماعي يروج الدجل وتتفشى الخرافة ويتكاثر ظهور الجن فجأة في منطقة ما، بفعل ضعف المناعة الاجتماعي وتدني طبقة الوعي أمام المشعوذين والدجالين؛ فعندما يُغتال العقل بشكل منظم لا تبقى حدود لحماقات البشر.

إن فلسفة القرآن تؤسس لفكرة لم يعتد عليها الناس وهي «ظلم النفس»، فالناس اعتادوا وهم مستعدون أن يلوموا كل أحد واتجاه وقوة موهومة إلا أنفسهم، والقرآن يمشي بشكل مخالف 180 درجة تماماً، فهو يدربنا على أن نلوم أنفسنا فقط ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (النحل: 33).

إن كثيراً من شرائح المفكرين والسياسيين عندهم الاستعداد للوم كل القوى، كسبب لعجزنا من الصهيونية والماسونية والاستعمار والصليبية والشيطان، بل وحتى إحالتها في النهاية إلى مصدر يخرس كل متحدث عندما تنسب فضائحنا اليومية إلى إرادة الله، ولكن ليس عندهم استعداد ولو لوضع «احتمال» أن نفوسهم شاركت في توليد الهزيمة، وتراكم العجز، واتساع الخرق.

وإذا كان ظلم الإنسان لنفسه هو الظلم الأعظم، فهو يؤسس بدوره لفهم جذور المشكلة الإنسانية وفهم الظلم الاجتماعي، عندما يتحول المجتمع من مجتمع أفقي إلى مجتمع طبقي، تتمزق فيه وتتصدع الشرائح الاجتماعية إلى «مستكبرين» و«مستضعفين» كما تحدث القرآن عن طبيعة المجتمع الفرعوني. ومصدر هذا الخلل هو خلاف ما يتصور الناس من طبقة المستضعفين، أكثر من طبقة الجبارين المتكبرين.

إن الظاهرة المزدوجة، أو علاقات القطبين المشؤومين «الاستضعاف - الاستكبار» ذات مصدر موحد، كما في أي فيلم، فالصورة الملونة تعتمد الأساس الأسود بعد التحميض، وكذلك علاقات القوة في المجتمع هي من خلل هذه الرافعة بين بني البشر، فالمستكبِر هو مستضعَف في أعماقه لاعتماده آلية القوة والقهر، والمستضعَف مستعد بالقوة للتحول إلى مستكبِر يتلمظ لامتلاك القوة. ودعوة الأنبياء جاءت لإنتاج نسخة بشرية جديدة بالتخلي عن علاقات القوة، وبالتالي كسر رافعة «الاستضعاف - الاستكبار».

الضعفاء هم الذين يخلقون الأقوياء. والمستضعَفون هم الذين يوجدون المستكبِرين. والأمم الهزيلة هي التي تنبت الطواغيت.

والمستنقع هو الذي يولد البعوض. والغربان تحط على البقرة الميتة. والنمل يتجمع على جثث الصراصير. والقابلية للاستعمار هي التي تقول للاستعمار: أنا هنا تعال فاركب على رقبتي. والدول تنهزم بتفككها الداخلي. وانهيار الحضارات يتم بعلة الانتحار الداخلي أكثر من قصور طاقة التكنولوجيا أو اكتساح خارجي. والاتحاد السوفياتي سقط مع امتلاكه أسلحة تدمير الكون مرات ؛ بفعل مرض داخلي أكثر من هجوم خارجي عاتٍ؛ فلم يهاجم هذه المرة من الجيوش النازية أو مدفعية نابليون، بل كان سقوطه داخلياً صرفاً.

هذا القانون يمسك بإحكامٍ جنبات الوجود، بوتيرة مكررة، بدءاً من الذرة إلى المجرة، مروراً بعالم النفس، ومحيط المجتمع، وإطار الدول، وحزام الحضارات، ومن أبسط الأفكار إلى أعظم الإمبراطوريات.

ما الفرق بين آدم والشيطان؟

رفض الشيطان السجود عندما لم يراجع نفسه ويمارس النقد الذاتي، فاعتبر نفسه أنه لم يمارس الخطأ، وأن خطأه سببه الله (بما أغويتني)، كما اعتمد آلية علمية أثبتت الفيزياء النووية خطأها، عندما رأى نفسه خيراً من آدم، فاعتبر نفسه طاقة شريفة وآدم مادة خسيسة، والفيزياء النووية ترى اليوم أن المادة والطاقة هما وجهان لحقيقة واحدة، بل إن المادة هي في حقيقتها لا تزيد عن طاقة مكثفة.

أما آدم فقام هو وزوجته -خلافاً لتفسيرات العهد القديم عن قصة التفاحة- بمراجعة نفسية قاسية من خلال اعتماد منهج النقد

الذاتي، بقدرة الاعتراف بالخطأ (إنا ظلمنا أنفسنا)، فأرجع آدم الخطأ إلى نفسه، فأمكنه طلب المغفرة والرحمة له ولزوجته ولذريته من بعده، ففاز بموجب هذا بعقد الوكالة العامة من الله (الاستخلاف).

طريق الشيطان بعدم اعتماد منهج المراجعة والنقد الذاتي قاد إلى اللعنة الأبدية، وطريق آدم من خلال التوبة التي هي تجسيد قدرة الاعتراف بالخطأ قاد إلى المغفرة والرحمة والجنة

كان الملا الكردي يشرح نصاً باللغة العربية لطلابه الأكراد. كان النص الفقهي يقول: إذا وقعت الفأرة في السمن فخرجت حيةً يبقى السمن حلالاً.

بدأ المدرس الفقيه يترجم على الشكل التالي: إذا وقعت الفأرة في السمن فخرجت ثعباناً! يعترض تلميذ: ياملا، كيف خرجت ثعباناً ولم تكن سوى فأر؟! يردّ المدرس: اسكت أيها الفاسق، إنها قدرة القادر...

وتروي رواية أخرى أن المؤذن خرج لصلاة الصبح متأخراً؛ فاجتمع بالناس في الطريق وقد بزغت الشمس ليقول لهم: أنا حضرت حسب الموعد ولكن الشمس خرجت اليوم مبكراً خلاف عادتها!!

إن هذه القصص المسلية تحكي لنا أزمة ثقافتنا، فنحن على استعداد لتوريط الكون في تناقضات، على أن نراجع أنفسنا وتصرفاتنا لحظة واحدة لإدخال «احتمال» مشاركتنا الجزئية في الذل الذي يصب على العالم الإسلامي مع كل شروق شمس.

في الطبيعة البشرية

لا يوثق بالإنسان لأن في جبلته الاستعداد للطغيان مع كل امتلاك ما لم توجد ضوابط ومراقبة، ولا يعول عليه لأنه خُلق هلوعاً جزوعاً منوعاً. وبقدر التعطش للسلطة بقدر الفراغ والنقص الداخلي عنده، والسلطة بدون مراقبة ومحاسبة تفسد، وقليل من السلطة يعني قليلاً من الفساد، وسلطة مطلقة تعني فساداً مطلقاً، وإن الإنسان لظلوم كفار. وهذه الحقيقة اهتدى لها «أتيين دي لابواسييه» (1530 ـ 1562) قبل 440 سنة في علم الاجتماع والفلسفة السياسية. فاعتبر أنه «لبؤس ما بعده بؤس أن يخضع المرء لسيد واحد يستحيل الوثوق بطيبته ما دام السوء في مقدوره متى أراد. فإن تعدد الأسياد تعدد البؤس بقدر ما نملك منهم». والقرآن يضرب المثل في هذا بين رجلين أحدهما فيه شركاء متشاكسون ورجل سلم لرجل، هل يستويان مثلاً؟ وهذه الحقيقة موجودة في «الفيزياء» كما هي في علم «الاجتماع»، فاذا ضُغط الغاز تحولت الكمية الهائلة منه إلى قطرات من سائل، وإذا سُمح لجزيئات بسيطة من عطر أن تخرج من عنق زجاجة فعلت كما فعل جنّي المصباح، فانتشرت في جنبات الغرفة جميعاً مهما كانت الصالة رحبة. وكذلك في امتلاك مفاتيح القوة الاجتماعية،

فأي شخص منا يجلس في داخله الفرعون «رمسيس الثاني» الذي حكم تسعين سنة وقتل من الناس ما لا يحصيه عدد، وتزوج عشرات النساء وأنجب أكثر من مائة طفل، وزوّر أسماء الفراعنة الذين سبقوه، فمسح أسماءهم وكتب اسمه على النصب والتماثيل. وما يضبطنا هو نفس قانون انتشار الغازات، فكلما انفسح المجال أمامها انتشرت، وكذلك في وضع اليد على السلطان. ويمكن لأي فرّاش أو خادم في أي دائرة أن يتحول إلى فرعون بشرط واحد، هو امتلاكه مفاتيح القوة بدون كوابح. ويمكن لأي مدير في أي دائرة أن ينقلب إلى طاغية يذيق الموظفين أشد البلاء والعنت بشرط واحد هو امتلاكه مفاتيح القوة بدون مراقبة ومحاسبة. ويمكن لأي شرطي أن يصبح ديكتاتوراً، وكل ما يحتاجه هو وضع يده على السلاح والجيش. ولا يمنح الإنسان الاعتدال والمجتمع العدل إلا «المعارضة»، ولذا كانت المعارضة شرطاً للاتزان. وهذا المرض، أي تحول البشر إلى صنفين آلهة وعبيد، أو بتعبير القرآن مستكبرين ومستضعفين، هو اختلال في رافعة القوة في المجتمع، ويمكن أن يتسرب هذا المرض بجراثيمه الفكرية إلى كل طبقات المجتمع ومستوياته حتى في علاقة الرجل بعائلته، فيعامل امرأته كعبدة وأولاده كرقيق، ولا يمكن لأحد أن يعترض عليه، فكلماته لا معقب لها، وإذا أراد بهم سوءاً فلا مردّ له وما لهم من دونه من وال. من هنا كانت المعارضة أساسية لإرساء العدل الاجتماعي، وهي تهب الصحة النفسية لكل الأطراف، وهي ضرورية للأمة، وتصب في مصلحة الحاكم، وتحافظ على كل الأطراف. ولم يكن غريباً أن أفرد القرآن سورة كاملة باسم «المؤمن». إنها رواية عن رجل رفض السكوت على الجريمة وكان في الظل يكتم إيمانه في أجواء مشبعة بالرعب

ورجال الأمن والجواسيس، فشعر أن الأمان ليس في الصمت بل بالجهر والإعلان في اللحظة المناسبة، فقال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟ في هذه الرواية يبرز معنى الحكمة، فليست أن يتسربل صاحبها بقميص «السرية» ليقوم بانقلاب ناجح يطيح بالحاكم في ساعة الصفر. بل النطق بالكلمة المسؤولة والصحيحة في الوقت المناسب ولو كانت مكلفة، وهي ستخرج في النهاية بضريبة أخف بكثير من الخرس الاجتماعي. والقرآن يسجل أن الله وقاه من سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب، وخُسف بالمجتمع الفرعوني في ظلمات التاريخ. إن العدل مفهوم وجودي لأنه التوازن بين أطراف القوة، وهذا ينطبق على قوانين الميكانيك وتيارات النفس وحركة المجتمع. فالسيارة التي لا تملك فرامل تمشي باتجاه الحوادث، والنفس التي لا تنمي ملكة النقد الذاتي تصاب بالكبر، ولن يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر. والمجتمع الذي لا يوجد فيه معارضة ميت، وهو أقرب إلى عالم القبور حيث الأمن والسكون بدون أي حركة، وهل رأينا الأموات يقومون من قبورهم فيمارسون نشاطاً سياسياً؟ إنهم أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون. تستقيم حركة السيارة بين «دعسة البنزين» و«الفرامل»، وتعمل العضوية على ترشيد أي حركة من أي أصبع بتمرير أوامر الحركة بمنظمات خاصة في قاعدة الدماغ، وتعطلها أو عجزها يقود إلى مرض باركنسون، فيمشي الإنسان مكباً على وجهه مترنحاً مهتز الأوصال. وتعيش الروح بصحة نفسية مع ممارسة النقد الذاتي، وتنضج النفس بدخول مرحلة «النفس اللوّامة» بتشغيل آليات المراجعة بحيث تتحول إلى جهاز يعمل تلقائياً من عالم الوعي واللاوعي أكثر من صحوات غير منتظمة للضمير. وانتبه الغرب إلى مؤسسات المعارضة

فاعتبرها قطعة أساسية من جهاز الحكم، بحيث أن الحزب الذي يصل إلى الحكم يفرمل بحزب المعارضة، فيراقبه ويعارضه إذا أخطأ، ويعصيه في المعصية ويطيعه في الطاعة، ويكشف أخطاءه فلا تأخذه في الله لومة لائم. أما عندنا في العالم العربي فقد انقلبت النسب وانعكست الصورة، كمن يبني طرقات سريعة باتجاه واحد، أو سيارات بدون فرامل، وعقلاً بدون نقد، ونقلاً بدون عقل. لا غرابة أن رسى مصيرنا في أسفل سافلين في استعصاء خبيث للثقافة ومواصلة في خط الانحدار في رحلة موجعة نحو القاع. إن المفكر «أحمد أمين» انتبه مبكراً إلى هذه الظاهرة القاتلة في مسير الحضارة الإسلامية، عندما انفرد بالساحة الفكر الوثوقي الدغمائي النصوصي، مما يذكر بظاهرة الكتبة والفريسيين التي واجهت المسيح (عليه السلام)في المجتمع اليهودي، وتمنى بقاء الخطين معاً يعدل كل الآخر، وأن لا ينفرد بالساحة حزب المحافظين على الحزب التحرري العقلاني. والمسلمون يظنون أنهم استثناء للقانون، والله يقول: فلم يعذبكم بذنوبكم؟ ولذا فإنهم لا يستفيدون من كنوز القرآن لأنهم يشعرون أن الحديث عن الآباء هو عن آباء قريش وليس عن آبائهم. عندها استقر الأمر للعقل الكسيح وطحن التيار العقلاني من المعتزلة وسواهم، بحيث إن التشكيك بعقيدة أي إنسان حتى اليوم يكفيها أن تنتسب لهذا الخط الفكري. وهكذا فالمعتزلة والاتجاه العقلاني في خانات التفكير تمت هرطقتهم وتحطيمهم وإفناء كل تراثهم العقلي من نوعية العقل الجبار (النظّام)، وبقي في الساحة عقل بدون مراجعة، ونقل بدون عقل، وسيارات تمشي بدون فرامل. وهذا هو الأساس للاستبداد السياسي، لأنها نسخة من الاستبداد الفكري، ولأنها الوجه الثاني لعملة

عدم التفكير، وتوقف المراجعة وممارسة النقد الذاتي وكسر قيود التقليد والانعتاق من أفكار الآباء، ومحاولة التحرر إلى فضاء التفكير الرحب والإبداع بدون خوف ومساءلة. إن الغرب بنى سيارات تمشي بتوازن بين طاقة البنزين وعزم الكوابح، وقبل ذلك أنتج عقلاً يطرح الأسئلة بدون خوف، مفرم المعرفة وارتياد المجهول وكسر المسلّمات، وأقام مؤسسات سياسية لا عوج فيها، في توازن بين محافظين وعمال، بعد أن حطم سلطان الجبت والطاغوت الممثلة في الكنيسة والإقطاع، وبذلك ولد مجتمع أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف، محرر إلى حد كبير من علاقات الاستضعاف والاستكبار. أما نحن في العالم العربي فقد كتب علينا أن نعيش في قرية يلبس أهلها لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون. الإنسان العربي خائف من المستقبل، يرجف من المخابرات، لا يأمن السلطة. وإذا أوقفه الشرطي يسأله عن رخصة السير خفق قلبه وعلت وجهه صفرة. كل هذا بسبب خلل رافعة القوة في المجتمع وتحوله إلى مستكبرين ومستضعفين. وكل هذا الاستبداد السياسي خلفه الاستبداد العقلي، ولا حرية سياسية بدون حرية عقلية وبدون حدود. أما نحن فنريد عقلاً محدداً بالمسطرة من عيار النانوغرام، يمشي بأجزاء من الملمتر في مقاسات مجهرية، محدد الأبعاد الفراغية، فهناك سقف للتفكير، وأمام القفز حواجز لا نهاية لها تمنع أي حصان رشيق. فهذه هي أم المصائب. ويبقى السؤال: هل إلى خروج من سبيل؟ كيف نكسر أغلال العقل ونحرره من أصفاد؟ تروي القصة أن رجلاً طلب من النجار أن يصنع له باباً، ثم جاءه في يوم وكان النجار غائباً فحمل الباب وانطلق به. ولما عاد النجار فلم يجد الباب ركض خلف الرجل فوجده يمشي به خارج البلدة. فما كان

منه إلا أن بدأ يقرع الباب قائلاً: افتح الباب أقول لك افتح، والسارق يحكم إغلاق الباب وكل الفلاة مفتوحة بينهما.

المعرفة والسلطة

يطرح «أتيين دي لابواسييه» (1530 – 1562) في مقالته عن «العبودية المختارة» هذا السؤال المحير: «شيء واحد لا أدري كيف تركت الطبيعة الناس بلا قوة على الرغبة فيه وهو «الحرية» التي هي الخير الأعظم، وضياعها تتبعه النكبات تترى، وما يبقى بعده تفسده العبودية وتفقده رونقه». لماذا تسقط الأمم في قبضة الديكتاتورية؟ وكيف تصاب مجتمعات شتى بهذا المرض الخبيث في التاريخ بحيث يشترك في توصيفه كل من «الكواكبي» و«لابواسييه» بأقبح النعوت. أما الأول فيصف الاستبداد في كتابه «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» أنه لو كان رجلاً وأراد التعريف بنفسه لقال: «أنا الشر، وأبي الظلم، وأمي الإساءة، وأخي الغدر، وأختي المسكنة، وعمي الضرر، وخالي الذل، وابني الفقر، وابنتي البطالة، ووطني الخراب، وعشيرتي الجهالة». أما «لابواسييه» فيصف الديكتاتورية: «ماهذا ياربي؟ كيف نسمي ذلك؟ أي رذيلة تعيسة أن نرى عدداً لا حصر لهم من الناس يحتملون السلب والنهب وضروب القسوة لا من عسكر أجنبي بل من واحد لا هو بهرقل ولا شمشون. إن لكل رذيلة حداً تأبى طبيعتها تجاوزه. فأي مسخ من مسوخ الرذيلة هذه لا يستحق حتى اسم الجبن ولا يجد

كلمة تكفي قبحه، والذي تنكر الطبيعة صنعه، وتأبى اللغة تسميته؟». نحن نعرف من علم البيولوجيا أن الكائنات تمرض كما تنهار الدول وتنقرض الحضارات فلا تسمع لهم ركزاً. ولكن ما هو المرض تحديداً وكيف يحدث؟ هل هو بسبب هجوم عنصر خارجي أم هو تعبير عن انهيار داخلي؟ هل هو أمر طبيعي أن تخسر الشعوب حريتها؟ يقول السياسيون إن الطغيان يحصل بـ«تسلط الفرد» على الأمة بسلاح الخوف، ولا يفسرون لنا كيف يمكن لبشر فرد أن ينجح في بناء آلة رعب بحجم ديناصور لاحم. ويرى المثقفون أن «القوة» هي التي تقرر مصير الأمة، فلا يمكن «لعين أن تقاوم مخرزاً» ولا لعصفور أن يواجه مسدساً كما جاء في شعر القباني رحمه الله. ولكن القرآن يعكس هذا المفهوم فيلوم الضحية وليس الجلاد، وينفرد بمصطلح «ظلم النفس»، فما يقع للناس هو بما «كسبت أيديهم»، وما ربك بظلام للعبيد. ويلوم «المثقف» الذي يجب أن «يبين» الأفكار للناس ولا يقعد في جيب الحاكم، ويعتبر أن «الأفكار» هي التي تغير المجتمع وليس تغيير الحكام، لأن الطغيان سوف يستبدل بطغيان أشد، وعندما خسرنا الحياة الراشدة وحكمنا السيف تغيرت سيوف كثيرة على رقابنا، ولكن الحياة الراشدة لم تعد قط. ولا يفرخ مجتمع طاغية إلا بالاستعداد الخفي، ولا تخرج الدمامل إلا في جسم منهك بمرض السكر أو الإيدز. وبالمقابل فإن تغيير الواقع يتم بتغيير رصيد ما بالنفوس، وإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، والأمراض الاجتماعية في النهاية تحملها «وحدات» من الأفكار كما حملت الأمراض «الوحدات» الإمراضية من جرثوم وفيروس. ولا يمكن لطفل أن يقود جملاً لولا أن الغلام يحمل من الوعي ما يفقده الجمل، ولا يمكن لأمة أن تُستعبد لولا

استعدادها على نحو خفي للعبودية، ولا يمكن لدكتاتور أن يقعد على رقبة شعب واعٍ. ولا تحط النسور إلا على الجثث. فهذا مفتاح جوهري في فهم المشاكل، ويترتب عليه أمر هام وهو تحديد منطقة الحفر في طبقات آركيولوجيا المعرفة على حد تعبير «فوكو» الفيلسوف الفرنسي. الغصن يتهاوى إلى الأرض في فصل الخريف بتفسخ الارتباط مع الشجرة الأم، وينفجر المرض بانهيار الجهاز المناعي، وتمرض النفس بعبادة الذات الفانية، وتتداعى الدول بالتفكك الداخلي، ولم يظهر الخراج الصهيوني لولا المرض العربي، وتتلاشى الحضارات من صفحة التاريخ بالانتحار الداخلي كما ذهب إلى ذلك حجة التاريخ «توينبي» في كتابه «دراسة التاريخ» (STUDY OF HISTORY).

وتعرض «لابواسييه» في رسالته القيمة عن كيفية السقوط في وهدة العبودية، فأشار إلى أربع أفكار رئيسة: «سلطان العادة» وكيف أنها تتحكم في السلوك على ثلاث مراحل، وكيفية «تغيير محتويات النفس» مع الوقت وانقلاب الأوضاع لتصل إلى درجة من البؤس لا يصدقها أكثر المتشائمين؛ فالفرس البري يجمح براكبه، والمروّض يتباهى بسرجه ويفلسف بؤس العبودية. وأن «أصناف الطغاة» ثلاثة. وأخيراً أن المجتمعات تنساق إلى العبودية بثلاث طرق، فأما الطغاة فهم على أنواع، فمنهم من يمتلك الشعب عن طريق الانتخاب «المزور»، والبعض الآخر بقوة السلاح، والبعض الثالث بالوراثة المحصورة في سلالتهم. وعندما يريد المقارنة بينهم يرى بعض «الاختلاف» ولكنه لا يرى «اختياراً» بينهم، بسبب طرق الوصول إلى الحكم وأسلوبه: «فمن انتخبهم الشعب يعاملونه كأنه ثور يجب تذليله، والغزاة كأنه فريستهم، والوارثون كأنه قطيع من العبيد امتلكوه امتلاكاً طبيعياً»، أما الوقوع في

قبضة العبودية فهو بدوره ذو ثلاث شعب لا ظليل ولا يغني من اللهب، «فهو يقيناً لا ينساق إلى العبودية إلا عن أحد سبيلين أما مكروهاً أو مخدوعاً»، «مكرهاً» بسلاح أجنبي أو «طائفة» من مجتمعه، وأما «الخديعة» فكما حصل مع أهل صقلية عندما استبدلوا الرمضاء بالنار فرفعوا «ديونيسيوس» إلى سدة الحكم لإنقاذ البلد فتسمى: «باسم القائد، ثم الملك، ثم الملك المطلق» ثم ليأخذ اسم الطاغية في التاريخ «TYRAN». وأما «تغير السلوك التدريجي» فمن نشأ في الاستعباد يشبه من اعتاد شرب السموم فلا يؤثر فيه لدغ الثعابين، أو يشبه أهل المناطق الإسكندنافية العليا فمن ولد في الظلام لأشهر طويلة يفاجأ بسطوع ضوء الشمس ويظن كما يحصل لحيوان «الخلد» أن الظلام هو أصل الأشياء، أو كما اعتادت الشعوب العربية على «الأحكام العرفية»، فهي لا تعرف ما هي «الحالة الدستورية»، وكل هامش خلاص ينفحه الحاكم بما فيها منحة «الديموقراطية» تأخذها الشعوب أنها هبة تتصدق بها يد عليا. وكما يقول «مكيافيللي» في كتابه «الأمير» أن على الحاكم أن يعطيهم «الرحمة» بالقطّارة أما «العذاب» فيجب أن يصب من فوق رؤسهم كالحميم يصهر به ما في بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد، بمعنى أن الناس متى سقطت في فخ العبودية صعب عليها جداً الخلاص من شركه. قد يعرف الجيل الأول مرارته، أما من ولد فيه فالأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون، اعتادوا عليه، يعتبرون أن نظم الحياة يمشي هكذا، كما في بطء ضربات القلب عند السلاحف أو برودة الماء عند السمك. كذلك ترى المجتمعات أن «الطغيان» هو من طبيعة الأشياء. يقول «لابواسييه»: «لنقل إذاً إن ما درج الإنسان عليه وتعوده يجري عنده بمثابة الشيء

الطبيعي ومنه كانت «العادة» أول أسباب العبودية، كشأن الجياد الشوامس تعض الرسن بالنواجذ في البدء، ثم تلهو به أخيراً، وبعد أن كانت لا تكاد تستقر تحت السرج إذا هي الآن تتحلى برحالها وتركبها الخيلاء، وهي تتبختر في دروزها تقول إنها كانت منذ البدء ملكاً لمالكها، وإن آباءها عاشوا كذلك، وتظن أنها ملزمة باحتمال الجور، وتضرب الأمثلة لتقتنع بهذا الالتزام، وبمر الزمن تدعم هي نفسها امتلاك طغاتها إياها». وهنا نفهم معنى الهجرة في الإسلام، ونفهم المغزى العميق من قصة أصحاب الكهف الذين هربوا إلى كهف بارد وضنوا بكلبهم أن يبقى في مجتمع تبخرت منه الضمانات. والمجتمعات الوثنية لا تحمل أي ضمانة لأي أنسان أو حيوان أو شيء في أي زمان أو مكان. أو قصة موسى وهو يعبر ببني إسرائيل البحر، فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم. إنها نفض اليد من وسط محنط ميت وإعلان ولادة مجتمع جديد. إن ابراهيم كان مشروع أمة، كذلك الحال في فتية الكهف، أو عبور بني إسرائيل إلى سيناء كي تكون مدفناً جماعياً لهم لجيل كامل خلال أربعين سنة يتيهون في الأرض؛ فيخرج من أصلابهم جيل جديد لا يعرف إلا الصحراء والحرية. إن بني إسرائيل الذين خرجوا من أرض فرعون لا يصلحون لحمل رسالة موسى، بل لا بد من جيل جديد لا يعرف الطغيان، ولا يستطيع العيش في ظروف الدكتاتورية. ذكرت سابقاً أمراض المجتمع العربي الإسلامي «العشرة» وكان في رأس القائمة «تقديس الآباء» أو ما كرّره القرآن بتعبير «إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون» بالإضافة إلى: 2- تأليه القوة. 3- احتقار العلم. 4- تبرئة الذات واتهام الآخرين. 5- إجازة الغدر. 6- ظن أن النص يغني عن الواقع أو مرض انفكاك النظرية عن الممارسة

والتاريخ. 7- الاهتمام بفضائل الجهاد بدون معرفة بشروطه وهو الخراج الذي فجّر كل مشاكل العنف في المجتمع العربي. 8- رفض المسلمين للديموقراطية مع أنها أقرب إلى الرشد من كل ماعليه واقع المسلمين السياسي اليوم .9- وتمكن العقل الخوارقي الأسطوري في حياتنا وانحسار العقل العلمي. 10- ظن أن الأحكام لا تتغير بتغير الأزمان، أي كأن العدل لا يمكن أن ينمو أكثر فأكثر. ويتعلق المرض الأول، أي «سلطان العادة»، بهذه الحزمة من الأمراض كسبب أساسي في رسوخ شجرة الطغيان. ويختصر «لابواسييه» الخلاص من الطغيان بوصفة بسيطة واضحة، ليس قتله بل عدم طاعته: «اعقدوا العزم ألا تخدموا تصبحوا أحراراً، فما أسألكم مصادمته بل محض الامتناع عن مساندته، فترونه كتمثال هائل سُحبت قاعدته فهوى على الأرض بقوة وزنه وحدها وانكسر». ويتكلم القرآن بنفس المنطق عن جدلية الطغيان بتعبير الكلمة الطيبة والخبيثة؛ فيشبّه الاثنتين بشجرتين، وعلى ما يبدو فإن هذا يصلح تفسيراً لماذا تكبر شجرة الديكتاتورية فيصل سعفها إلى أعلى من شجرة نخلة باسقة طلعها كأنه رؤوس الشياطين، ولكنه نموّ يحمل إمكانية سقوطها تحت ثقلها الخاص، فهي في النهاية تُجتث من فوق الأرض ما لها من قرار، وبكل أسف فإن هذه الوصفة النبوية لم يستفد منها أحد، لا الإسلاميون ولا غيرهم، بل تبنى الجميع مذهب الخوارج في قتل الحاكم بالسيف، أو مذهب الثورة الفرنسية في فصل رأس المستبد على مقصلة. تقول الرواية إن الطبع يغلب التطبع، ولكن مشرِّع أسبرطة «ليكورج» أثبت عكس هذا بالتجربة، حيث عمد إلى تربية كلبين خرجا من بطن واحدة، جعل الأول يسمن في المطابخ والثاني يجري في الحقول، حتى إذا كبرا بما فيه الكفاية

جاء بهما إلى السوق ثم وضع أمامهما وعاء من الحساء بجانب أرنب وأطلق الكلبين فإذا أحدهما يلعق الوعاء كسولاً رخواً، وأما الثاني فيضرب في البراري يلاحق الأرنب المذعور. قال ليكورج يعلق على المنظر المثير: ومع هذا فهما أخوان. إن التربية قد تهبط بالإنسان إلى أسفل سافلين فتمسخ الإنسان إلى شكل القردة والخنازير، أو قد ترتفع به إلى أعلى عليين فتسجد له الملائكة أجمعون، وإن رصيد السلطة هو من الجهل أو المعرفة، ولم يكن للشيطان سلطان على الناس إلا من اتبعه من الغاوين.

علاقات القوة والجنس

العطش إلى «القوة» والمزيد من امتلاكها مرض ذكوري. هذا ما قرره «بروس كارلتون» (Bruce Charlton) الخبير في علم «التطور». والذكور هم الذين يشنون الحروب. والذكور هم الذين يتحاربون فيَقتلون ويُقتَلون. والذكور هم الذين أنشأوا المؤسسة العسكرية ورسموا قدر المجتمع بمرض التراتبية «الهيراركي» (Hierarchy)، وخططوا كل نظام المجتمع على صورة «الثكنة» كما أشار إلى ذلك «غارودي» في كتابه «في سبيل ارتقاء المرأة». والذكور هم الذين شوّهوا التطور الإنساني برمته برؤية العالم بعين حولاء ذكورية؛ فلا يمكن أن يمشي المرء برجل واحدة إلا في أسطورة «شق وسطيح»، ولا يمكن أن يرى بعين واحدة إلا إذا انعدمت الرؤية الفراغية، أو تحول إلى كائن خرافي بعين واحدة كما في قصة «الأوديسة» عند «هوميروس». جاء في «السيرة» أن شقاً كان بنصف جسم فإذا مشى قفز على رجل واحدة، وأما سطيح فكان مسطحاً مثل حدوة الحصان بدون مفاصل. والمجتمع «الذكوري» هو الذي دفع المرأة إلى شريحة دونية مستضعفة، وهي كارثة كونية في كل الثقافات، وفي الثقافة الصينية يعني ضمير المتكم «أنا» المؤنث إلى «العبد»، وفي الثقافة الهندية تعتبر المرأة

خاضعة للرجل من المهد إلى اللحد، فهو من كتف الإله «فيشنا» وهي من أقدامه. وفي اليابان لم يتقدم المجتمع إلا بألغاء نظام الساموراي. وبالمقابل فإن المرأة هي التي بدأت الثورة الزراعية كما قرر ذلك المؤرخ «ديورانت»، فأطعمت عائلتها من جوع، ودلف الجنس البشري إلى الحضارة؛ فلولا الثورة الزراعية ما تجاوز الجنس البشري مرحلة «الصيد وجمع الثمار»، وما تخلص من خوف الموت جوعاً، وما نشأت المدن وازدحمت بالسكان وولدت الاختصاصات وتم تقسيم العمل كما شرح ذلك عالم الاجتماع «دركهايم». كل ذلك كان ببركة يدي المرأة، ولكن الذكر بنى الجيوش والحرب والطغيان وما زال. إذا كان الحاكم ينفخ في الصور فيقول للعباد أنا ربكم الأعلى فإن الزوج في البيت يعلن أنه الأعلى لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب. والاستبداد السياسي هو التجلي الأعظم لتراكمات أخطاء البيت واحتكار النصوص بيد طبقة الكهنوت وخنق التعبير تحت دعوى الخيانة أو الردة. والطغيان يتأسس من خلية العائلة ليظهر في النهاية على شكل تنين سياسي يقذف باللهب على عباد يرتعشون وجلاً خاشعة أبصارهم من الذل. إن مصادرة الأمة على يد فرد وخلفه النخبة الحاكمة الخفية، سبقتها مصادرة الزوجة والولد في بيت الطاغية «الترانزستور» الزوج الأب. فإذا أنتجت العائلة الإنسان الأخرس الخائف هيّأت الجو الاجتماعي للخرس الجماعي المطبق، وخشعت الأصوات للحاكم فلا تسمع إلا همساً. لا يمكن «أنسنة» المجتمع بدون استعادة المرأة دورها الطبيعي. المرأة هي التي تحمل الحياة وتنجب الحياة وتحافظ على الحياة حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً. وهي التي لا تمارس الحرب، فإذا مارستها مثل «تاتشر» و«غولدا مابر» فهي عدوى وباء ذكوري قاتل.

والمرأة هي مصدر الحب فتخلع معنى على الحياة وتعطيها دفقة الاستمرار، ومع انطفاء الحب ينطفئ معنى الحياة ومبرر وجودها، لأن الحب مشاركة تتجلى في أعظم صورها بالزواج والإنجاب، وتترك بصماتها على الحياة في ذرية مباركة. والحرب كراهية وارتداد على الذات ونفي للآخر. وحسب «دانييل جولمان» صاحب كتاب «الذكاء العاطفي» (Emotional Intelligence) فإن «جوزيف لو دو» (joseph le doux) الذي اكتشف «دورة المخ العاطفية» أظهر أمرين: أن هناك ضرباً من الذكاء لم ننتبه له حتى الآن غير المتعارف عليه«IQ» كما أن المرأة بواسطة تركيب دماغها تشريحياً تتفوق على الرجل في هذا النوع من الذكاء. والمرأة «موديل» متطور عن الرجل بحيث تحمل إمكانية أن يتطور الجنس البشري على نحو «إنساني» أفضل زكاة وأقرب رحماً، ولذلك كان الاستنساخ الجسدي من الأنثى كما حدث مع «دوللي»، فمنها خلق وإليها يعود ومنها يخرج تارة أخرى. وتفاءلت السيدة «شفارتزر» (Schwarzer) بولادة المجتمع النسائي الإنساني بحيث يمكن الاستغناء عن الذكور المخربين نهائياً للمستقبل أو استبدالهم بجنس معدل سلامي. وهي صاحبة مجلة «لا نريد بورنو» (...POR...NO) وهو عنوان مثير ولكنها تلاعبت بحركة ذكية بالكلمة «بورنو» التي تعني «الإباحية»، وحينما قسمت الكلمة إلى شقين انقلب المعنى. يذهب الأنثروبولوجي «بيتر فارب» في كتابه «بنو الإنسان»: «أن الذكر لا يفترق عن الأنثى إلا بعضلاته» وقسوته وجحوده، في الوقت الذي تتفوق المرأة بالرحمة والحب والوفاء. فإذا ماتت عن الرجل زوجته فكروا له بالعروس، ولما تُدفن الزوجة بعد، وزوَّجوه في أيام. وإذا مات عن المرأة بعلها حفظت ودّه واعتنت بالأولاد وعاشت

مدبرة، وهي خصلة للغالبية الساحقة من النساء قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله. وإذا عجزت المرأة رماها إلى بيت أهلها براتب أو بدونه، وإذا وقع سدّت عيبته وسترت عورته ورفعت من تحته قاذوراته حتى الممات. وينتهي «بيتر فارب» إلى مفارقة عجيبة وهي أن الجنس الأنثوي هو الذي يجب أن يسود لأنه: «الجنس الأطول عمراً، والأكثر صحة، والأقل عرضة للحوادث، والمساوي للذكر في الذكاء»، ولكن الذي حدث هو العكس. ولا تتزوج المرأة رجلين في الوقت الذي يعدد الرجل ولو في الكلام والأماني بين المزح والجد وفي لحن القول. وإذا جاءت الفرصة لم يقصر لأنه الفحل الذي لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون. وعند الخطيئة الجنسية تُقتَل الفتاة ويكافأ الرجل في مجتمع يقوم على معايير الفحولة أكثر من العدالة. مع أن القرآن وضح حدود الزنا بالتساوي للجنسين ولكن الثقافة عندها قدرة أن تبني مفاهيم أثقل من نجم نتروني، وتفرض على الواقع شريعة جديدة تلتوي لها الأعناق بدون وحي. ومع كل عضلات الرجل فالمرأة بنعومتها تتحمل أضعاف ما يتحمله الرجل من الألم بدون بطولة، ويظهر هذا واضحاً في العمليات الجراحية. ومع كل عضلات الرجل فالمرأة تعمر أكثر منه في المتوسط بـ 6 إلى 8 سنوات، كما تُظهر الإحصائيات. والمرأة أكثر حكمة من الرجل بانفعالاته، فإذا غشيه ضباب الشهوة وعلته الرغبة الجنسية فَقَدَ كل عقله ولم يعقب. وتظهر الصور الساخرة هذه المأساة على صورة فيلسوف يحبو على أربع قد علت ظهره امرأة. ويعتبر ديكارت «أن أعظم النفوس عندها استعداد أن ترتكب أفظع الرذائل»، وهي في هذا الحقل معهودة ومعروفة. وإذا كانت حاجة المرأة للمحرم أحياناً بداعي «الأمن»، فإن الذكر يحتاج دوماً إلى

محرم كي لا ينزلق إلى أحضان الأخريات. واعتبرت مدرسة «علم النفس التحليلي» أن «الليبيدو» (LIBIDO)، أي الشهوة الجنسية، هي محرك التاريخ الأعظم، وإذا كانت «الطاقة النووية» هي أشدها في الطبيعة فهي «الجنس» في البيولوجيا، وكل شيء يفسر من خلالها، ومن يتورط فيها هو الرجل عادة، وزُيِّن للناس حب الشهوات. ووقف المؤرخون طويلاً أمام أثر المرأة في التاريخ تحت إغراء «أنف كليوباترة»، بحيث يعتبر «إدوارد كار» صاحب مؤلف «ما هو التاريخ؟» أن التاريخ ينقلب بهذه الطريقة، أمام عدم فهم المرأة، إلى كيان هلامي يتملص من القوانين ويصبح كائناً رخواً عصياً على الفهم والضبط، تتقاذفه الأهواء، ويدمدم فيه عالم اللاوعي، وهو ليس كذلك ولكنه ضريبة تحييد المرأة. وتدخل المرأة مسرحية «علاقات القوة» حيث يظهر الجنس مختلطاً بالعنف كما تبرزها صناعة السينما بكثير من المساحيق، ومعظم الجرائم تدور حول الملكية في المال والمرأة. وتظهر تعابير «امتلاك» المرأة في ثقافتنا من حيث لا ننتبه لأن الوعي يقوم على ظاهرة «الانتقاء»، فهي «جوهرة»، وبهذا التعبير تخسر المرأة بضربة واحدة آدميتها وتتحول إلى عالم «الشيء» و«الممتلكات» لتدخل بأمان إلى «خزانة» الرجل العامرة بالأشياء. حتى ممارسة الجنس بما يختلط من عنف هو بقايا غريزة الغابة، وهو عملية تعبيرية عن خطف المرأة واغتصابها. لا غرابة أن استفحلت قوة ردة الفعل في المجتمع الغربي، فبعد حركة «المساواة» (EMANCIPATION) تبرز الحركات «النسوية - الفيمينست» (FEMINIST) إلى الواجهة، وتتحرك في مظاهرات ضخمة لردّ الاعتبار. وهذه الحركة «النواسية» بين الفعل ورد الفعل تبدّت أيضاً في

حركة «الستربتيز» أي الاستعراء. فبعد موجة الرهبنة وحبس الغرائز جاء الدور لانتقامها، فحطمت كل البنى القديمة. واليوم تتدفق أمواج الإباحية من الملكوت العلوي على ظهر ثبج البحر الأخضر الإلكتروني من المحطات الفضائية، فلا يستطيع منعها إنس ولا جان. لقد كسر العلم الجغرافيا وحطم الرقابة، ولكن قانون الله هو الذي سيثبت في النهاية، فيذهب الزبد جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض، كذلك يضرب الله الأمثال. وعندما بدأت أفلام «الجنس» (SEX) في الغرب غصت الرفوف بها، فلا ترى إلا العري، وانطلقت موجة الستربتيز في الستينات من بريطانيا فزكمت الأنوف وشكلت أشرطة الفيديو 80٪ من خزائن النوادي حسب إحصائيات مجلة «در شبيجل» الألمانية، وبعد عدة سنوات انكسرت حدتها وتراجعت موجتها إلى 20٪، ثم تحولت إلى ظاهرة مخيفة بين «الجمود» و«الانحراف» فالجنس كالسبع الضاري من حرَّضه أكله، ومن رمى له بقطعة لحم عند جوعته أمنه. كما ذكر ذلك «ابن مسكويه» في كتابه «تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق». ولكنها تفعل فعلها السمّي اليوم في العالم العربي لأنها تدخل بيئة عذراء غير مهيئة لهذا النوع من الاجتياح في ظل تابو المجتمع العربي. ولم تتطور الثقافة الجنسية بين الإظهار والإخفاء من فراغ على قاعدة «أرسطو» الذهبية أن كل فضيلة هي وسط بين رذيلتين، فمع الإباحية يتحول المجتمع إلى مستنقع يستحق التدمير، فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل. ومع الكبت تنشأ الأمراض النفسية من الهلوسة الجنسية وتحويل كل النشاط إلى جنس حتى لو كان ظاهرياً عين التقوى بسبب جوعة الجنس، ويصبح «جسد المرأة» المسرح السياسي لطغيان الرجل

وإعلانه الوصاية على كائن متخلف عقلياً في اللباس. ويعلل «مالك بن نبي» في كتابه «شروط النهضة» المعركة حول جسد المرأة بالمزيد من تعريتها أو التشدد في تغطيتها إلى نفس الآلية الخفية من الدافع الجنسي لامتلاك جسد المرأة، مع أن ظاهر الأمر يوحي بالتناقض بين الفحش والتقوى، ولكنه في حقيقته واحد مثل الفيلم الأسود قبل التحميض والملون لاحقاً. إن الأسود الخفي هو قاعدة الملون الفاقع، ولكن أكثر الناس لا يعلمون. إن طغيان الذكر على الأنثى يتبدى في إدعاء الملكية والخجل من ذكر اسم الأنثى وعدم الاستبشار بمولدها ولو كانت أصح من عشرة ذكور، وإذا مشى تركها خلفه لخطوات كما رأينا ذلك في العائلات التركية في ألمانيا. وتطل قسمات الدونية في الخجل من ذكر اسمها، فهي «الجماعة» أو «العائلة» أو «أم الأولاد» أو «أنت أكبر قدر» كمن يتعفف من ذكر مكان الخلاء. هي لا اسم لها، يتم استلامها بالبريد المسجل من الأب إلى الزوج، ومن المهد إلى اللحد. وهناك من يدّعي أن المرأة لها ثلاث «خرجات» من الرحم وبيت أهلها إلى بيت زوجها ومن بيتها إلى القبر، ألا إنهم من إفكهم ليقولون. وعند الزواج يغيب اسمها، فهي «كريمة» فلان تزف إلى الشاب الذي يحمل اسماً ولقباً عريضين. ويسلب حقها من الأرث، ويدفع لها راتباً أقل، وتخشى على نفسها المسغبة عندما يغيض الشباب ويزول الجمال، وتطعن في السن فتراهن على عطف بناتها أكثر من حقوقها إذا كان لها بنات. ويمكن للرجل أن يلقي بها في الشارع بطلاق مع متأخر رمزي دراهم معدودة، هذا إن دُفعت. إن أبعاد الكارثة إنسانية وليست عربية فقط، وإن كانت المرأة العربية تبتلع الجرعة السامة منه ولا تكاد تسيغه ويأتيها الموت من كل مكان. مع هذا فإن المرأة في

بريطانيا لم تصوّت إلا في عام 1912، وهي ما زالت محرومة في بقاع شتى من هذا الحق البسيط والطبيعي. وفي بعض الأماكن ما زال الزمن متوقفاً عند عتبة الأنثى، فتُحرم من قيادة السيارة، في الوقت الذي يطير الشباب الأرعن بدون رخصة سوى فحولته، ويفحطون ألواناً من الأشكال السريالية على رصيف الطرق، محولين الطرقات إلى ساحات حرب تنقل الجثث على مدار الساعة. إن مصادرة المرأة كاملة بما فيها صوتها البشري، فهناك من يعتبر صوتها عورة مع أن القرآن يروي سورة كاملة باسم امرأة جاءت إلى النبي تشكو وترفع صوتها وتجادل، والله يسمع تحاورهما. إنها نكبة ثقافية عندما يصادَر القرآن برأي شخص.

إذا كان ظلم الإنسان لنفسه هو الظلم الأعظم، فهو يؤسس بدوره لفهم جذور المشكلة الإنسانية وفهم الظلم الاجتماعي عندما تتصدع الشرائح الاجتماعية إلى «مستكبرين» و«مستضعفين» في أي مستوى، بما فيه الجنسي. ومصدر هذا الخلل هو طبقة المستضعفين أكثر من طبقة الجبارين المتكبرين. وهذه القاعدة تنطبق على علاقات «المرأة - الرجل»، فلماذا قبلت الأنثى هذا الاضطهاد الطويل؟ إن علاقات القطبين المشؤومين «الاستضعاف - الاستكبار» ذات مصدر موحّد. كذلك كانت علاقات القوة في المجتمع بخلل هذه الرافعة بين بني البشر. ودعوة الإسلام جاءت لإنتاج نسخة بشرية جديدة بالتخلي عن علاقات القوة. فكان أول من آمن به امرأة، وأول من قُتل في سبيل الله امرأة، ومن تسبّبت في إسلام ثاني شخصية في الإسلام امرأة. وفي الثورة الإيرانية كانت المرأة تنزل الشارع جنباً إلى جنب مع الرجل في المظاهرات المليونية، ولم يمنعها «الشادور» من الاستشهاد. فالطريق

إلى الجنة لا تقف في طريقه قطعة قماش. الضعفاء هم الذين يخلقون الأقوياء، والأمم الهزيلة هي التي تنبت الطواغيت. والمستنقع هو الذي يولد البعوض. والغربان تحط على البقرة الميتة. والقابلية للاستعمار هي التي تمهد للاستعمار. والدول تنهزم بتفككها الداخلي. وتنهار الحضارات بالانتحار الداخلي. هذا القانون يمسك جنبات الوجود بوتيرة مكررة بدءاً من الذرة إلى المجرة، ومن أبسط الأفكار إلى أعظم الإمبراطوريات. والمرأة لا تشذ عن هذا القانون، وهي مسؤولة عن تشكيل هذا التراث الخاطئ. ألقي القبض يوماً على امرأة خارجية وجيء بها إلى الحجاج فقال لأصحابه: ما تقولون فيها؟ قالوا: عاجلها بالقتل أيها الأمير. فقالت الخارجية: لقد كان وزراء صاحبك خيراً من وزرائك. قال: ومن صاحبي؟ قالت: فرعون، فقد استشار وزراءه في موسى (عليه السلام) فقالوا أرجه وأخاه.

المثقف وعلاقات القوة

يعتبر «نعوم تشومسكي» عالِم الألسنيات الأمريكي أن المثقف الحقيقي هو من صدع بالحق في وجه القوة. ويعتبر القرآن أن المثقف الذي لا يقوم بتوعية الجماهير وخدمة الفكرة يلعنه الله والملائكة والناس أجمعون. ويرى «علي الوردي» في كتابه «وعاظ السلاطين» أن: «البلاء يعم حين يحفّ بالحاكم مرتزقة من رجال الدين، فهؤلاء يجعلونه ظل الله في أرضه، ويأتون بالملائكة والأنبياء ليؤيدوه في حكمه الخبيث، وبهذا يمسي الحاكم ذئباً في صورة حمل وديع». ويرى «الصادق النيهوم» في كتابه «محنة ثقافة مزورة» أنه: «منذ عصر سومر وحتى ظهور الإسلام كانت الثقافة سلاحاً مهمته تجهيل الناس أكثر من تثقيفهم. ولهذا السبب سكتت جميع الثقافات عن قضايا الإنسان وفشلت في تطوير مجتمعات حقيقية محررة من عبادة الأصنام الحية والميتة». ويقول المثل الإنكليزي: «إذا أردت أن تعرف حقيقة الإنسان فأعطه مالاً أو سلطة». إن نصف المصيبة هي وجود المواطن الأعمى والمثقف الأخرس والحاكم الأطرش، ولكن كل المصيبة هي في التحام مثقف مأجور بعجلة السياسة، أو بتعبير القرآن مزيج «الجبت والطاغوت». ومنه أطلق فولتير شعاره «اشنقوا

آخر إقطاعي بأمعاء آخر قسيس». ولم تنهض أوروبا إلا عندما حطمت قوتي الإقطاع والكنيسة، لينهض مركب جديد متوازن من رأس المال والعمال وامتدادهما من النقابات والصحافة والأحزاب. ويبقى سر الديموقراطية في بذرة المعارضة. ولا معارضة بدون فكر، ولا استقلالية في التفكير بدون حرية «تعبير». و«خياطو» الفكر العربي يفصلون لنا اليوم ملابس بأصناف: فمنهم من يرى أن التفكير حرام وخطر، ومن يرى أن التفكير لا بأس به في حدود، ويجب أن ينسجم التعبير مع نغم الجوقة، وعلى المفكر أن يقول كلاماً لا يزعج مستيقظاً ولا يوقظ نائماً في حفلة الشخير العام، في ظل أنظمة حريصة على راحة النيام. وهناك فصيلة «منقرضة» من المفكرين ترى أنه يجب تحريض التفكير وإطلاق التعبير بدون حدود وبدون خوف من المساءلة، لأن وظيفة الدماغ التفكير مثلما كانت وظيفة القلب ضخ الدم والتنفس للرئتين والكلية للإفراغ. وإذا كانت شاشة الكمبيوتر تظهر ما يجول داخل علبة الحديد المغلقة، فإن التعبير هو شاشة التفكير. ولم يشترِ أحد حتى الآن في العالم كمبيوتراً بدون «مونيتور». ولكن الفصيلة الأخيرة «الشاذة» ليس لها وزن ولا تشكل تياراً يعتد به وسط جماهير عمياء وسدنة يطلقون البخور يسبحون بحمد الحاكم بالعشي والإبكار. ومن تجاوز الخطوط الحمر صعقه التيار مرتين، فاتُّهم بالخيانة عند السياسيين أو الردّة على يد المتشددين. كان الإمام «ابن تيمية» يقول: «إن العلماء يُخطِّئ بعضهم بعضاً وأهل البدع يُكفِّر بعضهم بعضاً». ويجب أن نضيف فقرة جديدة أن أهل السياسة «يُخوِّن بعضهم بعضاً» فيصبح الناس ثلاثة أصناف: من يشير بأصبع الردّة إلى أدنى حركة عقلية، وهكذا شُنق «محمود طه» (75 سنة) في

السودان بتهمة الردة، والرجل لم يرتدّ ولم تشفع له شيخوخته في النجاة من حبل المشنقة؛ ومن يتهم بالخيانة لمن اختلف معه في الرأي، وهكذا غصّت أقبية المخابرات بمخالفي الرأي من كل صنف، وهكذا علق القوميون والإسلاميون المشانق لخصومهم وقتلوهم في البر والبحر والمنفى من أجل الكلمة، وحكم بالإعدام أو أعدم رؤوس التيارات الفكرية، فأعدم «أنطون سعادة» في لبنان مؤسس الحزب القومي السوري، وحكم بالإعدام «ميشيل عفلق» مؤسس حزب البعث، واغتيل «حسن البنا» مؤسس حركة «الإخوان المسلمين» بالرصاص في شارع عام، ومات الشيوعيون في أقبية السجون في كل مكان من أجل أفكارهم؛ وهناك أخيراً من يرى أن المختلف لا يزيد عن مخطئ ضل طريقه إلى الحقيقة فيمكن أن يستفاد منه بالحوار والجدل بالتي هي أحسن. فالله سمح للكافر بالبقاء على قيد الحياة وشمسه تشرق على الأبرار والأشرار، وبنى الكون على التعددية «ولذلك خلقهم»، ومنح الخيار أمام الضمير، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، فلا يمكن ولا يعقل أن تبنى شوارع سريعة باتجاه واحد، ولم يُعتبر «الكفر» مع «الإكراه» كفراً، ولا «الإيمان» مع «الإكراه» إيماناً. وسمح بسب الرسول والنطق بالكفر عند الخوف على الحياة «إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان». ولكن ثقافتنا تريد للحديث أن يكون «مونولوجاً» باتجاه واحد، وتريد أن تصادر كل ألوان التعبير التي لا ترضى عنها، ولا بأس من حشو القوائم السوداء بالكتّاب والكتب، والحدود «بالمطلوبين» في عصر العولمة، كمن يقاتل بالمكنسة طائرة مقاتلة. ثقافتنا تصر أن ترى الوجود بنظارات ملونة، وعدم السماح للآخر بالوجود، واعتبار المرأة كائناً متخلفاً عقلياً يحتاج للوصاية، والطفل أبلهاً لتلقي «الكف»

في التربية والتوبيخ في مخالفة الأوامر، أو هو «عفريت» بحيث أن «تعذيبه» في المدرسة يسمى «تهذيباً». إنها ثقافة تريد خنق مجاري التعبير، وإغلاق سريان أوكسجين الحرية عن كل خلية عصبية تتألق بالتفكير، وإغلاق منافذ الفهم، واعتبار الآخر رجساً وخطراً، وأن عليه أن يحسن الإصغاء ويتقن فن الخرس الجماعي، وأن ثقافتنا كلها صدق وعدل، وأن الخطأ لا يقاربنا والوهم لا يتخللنا، وأن مفاتيح الحقيقة النهائية بأيدينا، فلا يسمح للمواطن أن يفتح فمه إلا عند طبيب الأسنان. ألا ساء ما يحكمون. إنها نكبة ثقافية بكل المعايير. وهذا يفسر سر تعضل الحركة التاريخية ولماذا نفشل في الالتحام بمركبة الفضاء الحضارية. لقد فقدنا التوازن وتهنا في الفضاء التاريخي، ولا نملك أدوات العصر للإقلاع. إن الحل ليس بثورة، وليس بانقلاب عسكري، فلقد فعلنا الكثير وحصدنا الخراب. ومنذ الانقلاب الأموي تتالت الانقلابات واستفحلت الأمور، فالتهمنا السرطان الاجتماعي. كما لن تتحسن الأمور بالاتهام بالردّة أو الخيانة ولا بالإكراه، ولا بهذا التشنج الفارغ والعنجهية الممجوجة التي نجح «الطالبان» في استعراضه أمام العالم كما يفعل المريض النفسي المصاب بمرض «الاستعراء» عندما يكشف سوأته وهو يظن أنه يحسن صنعاً. ألا إنهم الأخسرون أعمالاً. المثقفون اليوم في العالم العربي ثلاثة أنواع: المثقف الوهمي أو الكاذب «Pseudo»، والمثقف «المهاجر»، والمثقف «الحقيقي». والمثقف الوهمي بدوره مركب من ثلاثة أصناف: فيلسوف «السلطة»، ومفكر «الحزب الأيديولوجي»، ومثقف «البضاعة» المشترى بثمن بخس دراهم معدودة. مثقف السلطة يفلسف وينظِّر ويقعِّد لثقافة الاستبداد تحت مقولة «المستبد العادل» كمن يجمع بين الماء والنار،

والشيء ونقيضه، ووجود الشيء وعدمه. ولكن هكذا كانت مهمة مثقف السلطة في التاريخ، فمن مائدة السلطان يأكلون وبمدحه تنشد القصائد العصماء. ومنذ بناء الأهرام وجد مثقف السلطة مكانه تحت مظلة فرعون وكانت مهمته محصورة تحديداً في إقناع الناس بتشييد أهرامات عملاقة لطاغية ميت، وأن يلقوا بناتهم كل عام في النيل. أي أن الثقافة يمكن أن تستخدم سلاحاً مهمته تجهيل الناس أكثر من توعيتهم، وهو ما نشاهده اليوم في كثير من المحطات الفضائية التي تحاول ضخ الحياة في أصنام ميتة. أما مثقف الحزب فهو الذي يستولي عليه شعور امتلاك الحقيقة الحقيقية النهائية، وأن الآخرين يجب أن لا يتجمعوا ولا يتحزبوا لأنهم حزب الشيطان كتب الله عليهم أنهم في الأذلين. وأما المثقف «المشترى» فهو الذي يكتم الحقيقة ويلبس الحق بالباطل، واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون. ويلحق بالمثقف الكاذب أو الوهمي المثقف «التقدمي» بثقافة أوروبية بنسخة «معرَّبة»، حريص على تدمير ثقافته المحلية وحقن وعي المريض العربي بأفكار «قاتلة» منتزعة من وسط غريب، ونقلها بغير شروطها كما يقتل المريض بنقل الدم بزمرة مختلفة على حد تعبير «مالك بن نبي». وهذا يفسر لماذا كانت مجالسنا النيابية مهزلة لا تزيد عن ديكور محنط يضم أناساً أحياء من قبائل شتى. لقد نصحنا «ديكارت» منذ ثلاثة قرون أن لا نهدم بيوت الناس قبل أن نهيّء ما هو أفضل، فإذا دعوناهم إليها هجروا القديمة بدون تدمير. ولكن ما هي وظيفة المثقف الكاذب أو الوهمي؟ إنها ثلاث: «تبرير» و«تخدير» و«تزييف»، فأي شيء صدر من السلطة يحمل التناقض واللامعقولية يمكن صبه في قوالب تبريرية ممتازة، وأي معاناة من الأمة تتم معالجتها «بتخدير

الوعي» العام على يد أطباء خسروا شرف المهنة. إن حرفة الثقافة خطيرة ومليئة بالتحدي وغير مربحة عموماً؛ فالمفكرون في العادة فقراء مفلسون، وهم يتعاملون مع أخطر الكائنات، الكلمة التي اخترعها البشر. وتتحول الكلمات أحياناً إلى مشانق والسطور إلى ألغام أرضية تفجر المثقف ومصيره، ويبقى الخيار ذا ثلاث شعب: الثقافة كرسالة ومسؤولية، أو الالتفاف على الواقع بالكلمات في عمل أقرب إلى السحر أو الجنون، أو تأجير القلم وممارسة مهنة بغير مهنة. الساحر يغمغم بكلمات هي من قاموس كلماتنا، والمجنون يتكلم بمصطلحاتنا بانفكاك كامل عن الواقع؛ فأن يقول تغديت في المريخ تبقى صحيحة في الغداء ووجود المريخ. والجنون هو فقط في انتقال مائدة الطعام إلى المريخ. إن «فلسفة الباطل» تقوم على التلاعب بالحقائق أو ما يسميها «نعوم تشومسكي» في كتابه «ردع الديموقراطية» فبركة المعلومات. وهكذا إذا تكلم الرئيس بكلمات عادية وصفت بأنها درر الحكم وأنها أجمل من المعلقات العشر ويجب أن تكتب بماء الذهب ويحفظها الطلاب المنكوبون بوباء ثقافة مزورة عن ظهر قلب، وإذا تم إنجاز ملمترات في البنية التحتية صاحوا إنجازات ثورية وهي بمقياس التقدم نكسة إلى الخلف. وإذا انهارت البنية التحتية من الفساد والرشوة والمحسوبية قال المثقف المزيف إنها دعاية مغرضة. وإذا غصت الشوارع بالعاطلين عن العمل قالوا إنه الاستعمار. وإذا تراجع الاقتصاد وتضخم ألف بالمائة قالوا كل العالم يمرّ بهذه الأزمة، انظروا إلى تركيا ألسنا أحسن حالاً؟ ونحن نعلم أن كوريا الجنوبية قفز دخل الفرد فيها خلال ثلاثين سنة 13 مرة في الوقت الذي تراجعنا إلى الخلف 13 مرة، بحيث أصبح الفرق 26 درجة، وندلف الآن إلى قبو

بناية العالم المكون من خمسين طابقاً حسب العملة. فلينظر كل امرئ إلى نقده كم يساوي من الدولار الأمريكي. ولكن هل هذه الأمور تحدث بالصدفة أم أنه أمر دُبّر بليل؟ الصنف الثاني من المثقف هو «المهاجر»، وهو أيضاً نوعان: مهاجر إلى ربه إلى دول الديموقراطيات بالزواج واللجوء السياسي وهي الهجرة الخارجية، وتقابلها هجرة «داخلية» بالانسحاب إلى زاوية في وطن لم يبقَ وطناً وليس فيه مكان للمواطنة، والتقوقع في شرنقة يجتر فيها أفكاره، ضمن جدار سميك من العزلة تحفظ عليه حياته وكرامته في ظروف جفاف صحراء الفكر العربية. أما الصنف الثالث فهو المثقف «الحقيقي» وهذا يتم اغتياله بطريقتين: اغتيال أفكاره في لعبة «الصراع الفكري» التي تحدث عنها «مالك بن نبي» طويلاً في كتابه «شروط النهضة»، وإذا حزب أمره تمت معالجته «بالقتل الاجتماعي» بعزله كإفراد البعير المعبد حتى لا تنتقل عدوى أفكاره إلى الجوار، ولا حرج من حشره في زنزانة إفرادية لمدة 17 سنة. وأحياناً تأتي الأوامر بتصفيته جسدياً على التلفون مع تلفيق تهمة مناسبة. قال حاكم في جلسة حميمة لأعوانه: إن هؤلاء المفكرين المشاغبين يجب معالجتهم بحمض ثلاثي المفعول: فإما فرشنا تحت أقدامهم السجاد وأركبناهم صهوات الجياد العتاق من السيارات الحديثة، وإما أغرقناهم في كنبات وثيرة من الديكور السياسي الميت. الشكل شكل حزب وتنظيم ومؤسسات، ولكن لهم أرجل لا يمشون بها ولهم أيد لا يكتبون بها وأفواه لا ينطقون بها. ومن استعصى دواءه وأعيت حيلته وركب «رأسه» لأجعلنَّه من المسجونين، فإما خرج بعاهة يجرّ أقدامه، أو ترنح كالمجانين، أو استقبل شيخوخته مبكراً بدون معاش. ولكن ماذا يفعل المواطن العربي أمام هذا

الاستعصاء الحضاري واليأس المقيم؟ إنه يمارس الانتحار على طريقته. فأما إن كان من أصحاب الصوفية فإنه ينتحر بالمسبحة على دف الشيخ ورقص الدراويش. وأما من صارع الأوضاع المرعبة مثل أي فدائي على حسابه الخاص فإنه ينتحر في زنزانة تتعفن فيها عظامه عشرات السنوات، وهناك من ينتحر بالانسحاب الكامل من الواقع المرير إلى الماضي الزاهي، فيطلق لحيته ويتوقف في الزمن قبل 1000 سنة ليقرأ بعض المتون في إجازة مفتوحة حتى يعود الوعي الغائب من منفاه. إن فكرة العودة إلى زمن عمر بن الخطاب نكتة يضحك لها الفاروق في قبره لأنها ترى أن إصلاح الأمة يتم بتغيير فرد. ولكن هل كان الماضي وردياً إلى هذا الحد؟ إن من قتل في معركة صفين من الصحابة كانوا أكثر من قتل في معركة بدر كما قرر ذلك «ابن كثير» في تاريخه «البداية والنهاية». وعندما مات الحجاج ترك ثلاثين ألفاً من المعتقلين لا يقيهم شيء من حمَّارة القيظ أو صبَّارة القر وفيهم آلاف المعتقلات من النساء. وإن الدولة العباسية قامت على جثث الأمويين فاجتثتهم بالسيف حتى الرضع، والوصية الأولى لأبي مسلم الخراساني كانت: «وأن من رابك أمره ولو كان بطول شبرين قتلته ولا تبالي». وعندما قامت دولة «الموحدين» بالسيف لم يُبقوا من عائلة «المرابطين» المالكة أحداً، وعندما تشفع أحدهم في غلام صغير أجابه شيخ الموحدين: وهل تريد أن يبقى شبل اللبوة؟ أين المشكلة إذاً؟ هل هي في السياسي الحائر أم المثقف الأخرس أم المواطن الخائف، أم هي في الكل؟ فهم في فلك واحد من الثقافة يسبحون. لا شك أن هناك علاقة جدلية بين المرض و«المضاعفات» ولكن فك اللغز في هذا المثلث يبدأ من «المثقف» البريء المختبئ،

فالسياسي حفيد المثقف وتلميذه البار. ولكن كيف يمكن لمثقف وحيد معزول منقرض ممنوع من الكلام في مجتمع محرمة فيه حرية النشر، مهدد بالتكفير أو الخيانة، وتمنع فيه السلطة تبادل الأفكار. كيف يمكن لمثقف في هذه الظروف الجهنمية أن يمارس دوره في التوعية؟ هل هذه صورة سوداوية للواقع بين مثقف مهاجر ومستأجر ومقتول ومن يعيش في شرنقة أو من كان بنسخة أوروبية معربة؟ إن «سبينوزا» قديماً واجه نفس الموقف بين المتشددين والسلطة، فشق طريقه بعصا موسى، فكان كل فرق كالطود العظيم. ويذكر المؤرخ البريطاني «ويلز» في تاريخه «معالم تاريخ الإنسانية» أن: «الورق حرَّر عقل الإنسان» ولم يتقن «الكتابة» أيام الفراعنة وسومر سوى الكهنة، حتى علم الأنبياء الجماهير الكلمة في الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى. فهذه الصحف التي كانت تنقش على الطين تهب اليوم في أمواج عاتية من ثبج البحر الأخضر الإلكتروني من الملكوت العلوي. والعلم يحطم الجغرافيا ويكسر الحدود السياسية وتفلت المراقبة من أيدي رجال المخابرات، فهم في حسراتهم يتأوهون، وبدأوا ينتسبون إلى العصر القديم كما انقرضت الديناصورات من مسرح الحياة وأخلت مكانها للثدييات الصغيرة قبل 65 مليون سنة. فهذا هو منطق التاريخ أنه يمشي دوماً نحو الأفضل.

سيكولوجية الطغاة

تقدم وفد من أعيان البلدة لمقابلة زعيم عربي وهم متذمرون للتقدم بشكوى ضد بعض المظالم. سمع الزعيم بخبر مقدمهم فجهز نفسه بمسرحية. وعندما دخلوا مكتبه كان يتحدث بالهاتف. يبدو أن الزعيم لم يكن في أفضل حالاً، فبدأ يرتفع صوته ثم نطق بجملة مخيفة: أنا آمرك أن تأخذه فوراً إلى ساحة الإعدام ولا ترجع بدون تنفيذ ذلك. نظر الرهط القادم في وجه بعضهم بعضاً وقد امتقعت سحناتهم رعباً. التفت إليهم «الزعيم» مبتسماً وقال: تفضلوا خيراً إن شاء الله، ما الذي أستطيع أن أقدمه لكم؟ صاح الوفد بصوت رجل واحد: أيها الزعيم نحن جئنا فقط لنتشرف بمقابلتك ونهنئك على إنجازاتك. قال: قد أديتم الأمانة فانصرفوا إلى أهلكم راشدين. يقول من كتب «المذكرات»، وكان شاهداً لهذه الواقعة، إن الزعيم بعد انصرافهم انفجر بالضحك وقال: شعب من هذا الطراز يناسبه زعيم من طرازي. ترى مدرسة «علم النفس السلوكي» أنه كلما أظهر الأتباع المزيد من الخضوع «عزّز» مشاعر السيطرة عند القادة. وفي مسرحيات احتفالات العظماء يلاحظ المتأمل كيفية ولادة هذا الوسط من توجيه ألفاظ التعظيم، وأنه المتفضِّل المنعم الواهب الرزّاق ذو

القوة المتين. كل الالتفاتات إليه وكل الإيماءات نحوه. وعند استعراض المحطات الفضائية في لقاء يضم مجموعة من الزعماء تكاد لا تشعر من كل محطة بوجود أحد سوى رئيسها، وأن الآخرين نكرات مهملة. ويستمر التلفزيون المحلي في تسليط الكاميرا على الزعيم من كل الزوايا لكل ملمتر من وجهه وكل حركة من تصرفاته وبالتقريب والتبعيد. وبين الحين والآخر تعرض صوره على المشاهدين في وجه ملائكي يفيض بالسماحة والاقتدار تحيط به هالة القديسين.

الشعوب إذاً هي التي تصنع الطواغيت كما تصنع خلية النحل ملكتها من أصغر العاملات. كل ما تحتاجه حتى تصبح ملكة هو تغذيتها برحيق خاص. وفي عالم البشر يمكن لأي مغامر من أمة مريضة أن يقفز على ظهر حصان عسكري إلى مركز الصدارة والتأله. كل ما يحتاجه أمران: عدم التورع عن سفك الدم، وتجنيد الأتباع بغير حساب وضمير.

وينبني على هذا تغيير زاوية الرؤية بالكامل أن لا نتوجه للزعامات المصنوعة «كرهاً» بالكراهية لأنها من صنع أيدينا، ونحن بالهجوم عليها نهجم على ذواتنا من حيث لا نشعر، فنحن من صنعناها. إذا أرادت الشعوب رؤية وجهها في مرآة تاريخية فليس عليها سوى أن تحدق في سحنة حكامها، وقياداتها السياسية هي أفضل قميص مناسب للشعوب خيط عند أبرع خياط تتسربل به. وسبحان الذي أضلّ بعد أن هدى. لا غرابة أن جاءت سورة كاملة من القرآن باسم «المؤمن»، فهذا الرجل الذي كان يكتم إيمانه أعلن رأيه في الساعة الحرجة أن الإنسان لا يقتل «لرأيه» مهما يكن هذا الرأي في

«رأي» الآخرين خيانة وردّة: «أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله». ومغزى هذه القصة المطولة في سورة «غافر» أن «المعارضة» هي لبّ الصحة السياسية، وهي مفيدة للحاكم قبل المحكوم. فهي جرعة التوازن وملح الطعام وفرامل السيارة الاجتماعية. وفي السيرة الذاتية لهتلر التي كتبها «إيان كيرشوف» (Ian Kershaw) يرسم الرجل الصورة السريالية لمفاصل القوة؛ فالرجل كما وصفه «برتراند راسل» في كتابه «السلطان» عندما يصف علاقات «القادة والأتباع» أنه كان أقرب إلى القديسين من الانتهازيين، ويشبه في هذا «لينين». أما «نابليون» فلا يزيد عن ضارب مدفعية محترف استخدم ببراعة سطوة النيران لتحطيم خصومه، ويشبهه في هذا «موسوليني». ومنذ عام 1933 بدأ هتلر يتقمصه «شيطان القوة»، وبقدر مظاهر التملق والخضوع من الحاشية المحيطة به بقدر ما استولى عليه الشعور أنه القائد الملهم الأبدي المعصوم الذي سيحكم الرايخ الثالث لألف سنة قادمة. هكذا كان يزعق في الجماهير يوماً. ولكن صراخ الرجل كان عند خليفته «أدولف هيس» موسيقى سماوية و«ميلوديا درامية» تأتي من السماء فتنير وتهدي، ومنبعاً للطاقة يكهرب إرادة الجموع، كما وصفه في مذكراته الأخيرة في سجن برلين قبل أن يموت. بقدر كذب الحاشية وتملقها يسقط القادة في قبضة شعور أنهم خير من وطأت أقدامهم البرية، وأن جبلتهم مصنوعة من طينة الإله. هكذا كانت وظيفة الكهنة منذ أيام فرعون وسومر ولم تتغير كثيراً ضمن التحالف الاستراتيجي بين «الجبت والطاغوت»، وأنه مبرر لهم التصرف حيث لا يقدر الآخرون ولا يتجرأون. ولكن عندما تُختزل الأمة في فرد لا يبقى أمة. وكما يقول اللورد «أكتون» إن القليل من السلطة يعني القليل من الفساد،

أما السلطة المطلقة فهي مساوية للفساد المطبق. ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء. بعد أشهر من وضع «هتلر» يده على مفاتيح القوة تغيرت تصرفاته كلياً وبدأ يقع تحت سيطرة فكرة أن «العناية الإلهية» أرسلته لإنقاذ الشعب الألماني. يقول «مالك بن نبي» عن هذا الشعور إن الشعوب تقع تحت سحر من هذا النوع في الأزمات التاريخية فتوظفها قيادات ذكية وخبيثة لحسابها، وتتحرك الجماهير العمياء تحت أحد شعورين، «الإنقاذ» أو «روح الرسالة». ولكن هتلر غرق في اليم وهو مليم ومعه رؤوس النظام النازي، إما بجرعة سيانيد أو على حبل المشنقة في نورمبرغ. غرق هتلر وجنوده أجمعون كما غرق فرعون من قبل لأنه كان بكل بساطة لا يحمل في يده عصا النبوة، بل كان يلوح بالصليب المعقوف، فأضحى سلفاً ومثلاً للآخرين. إن هذه «الحلاوة» المسكرة من الثناء والتبجيل والكذب لا يستطيع الحكام -وهم من البشر- أن ينجوا من سحرها، فلا تسكر النفس بخمر كالثناء. وكان هتلر ينظر إلى كل من حوله مثل جحا الذي كان يقف على رأس جبل فيقول في نفسه: لم أكن أتصور الناس صغاراً بهذا الحجم، بفارق أن هتلر كان يحدق من جبال بيرشتسغادن «عش النسر» في جبال النمسا. وفي النهاية بدأ هتلر يستخف بكل من سبقه، وحتى «بسمارك» لم يعد أمامه شيئاً مذكوراً. لقد كان هتلر يتجرع أفيون القوة بدون توقف. ومع كل إدمان يزداد مقدار الجرعة كما هو حاصل في عالم الإدمان، ليستفحل المرض ويزداد. وفي قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً. وفي النهاية أحاطت بهتلر خطيئته بعدما سقط في حبال المرض المشؤوم (الشعور بالقداسة والعصمة)، فكان يتحدث لمن حوله كالرسول للأتباع، أو

الإله الذي يوحي بأمره ما يشاء. وفي وصيته التي كتبها قبل إقدامه على الانتحار يتبدى ذلك الشعور أنه هو الأعلى وأنه لم يخطئ. وعندما قابله وزير التخطيط «ألبرت شبير» (Speer) في الأيام الأخيرة قبل انهيار «الرايخ» (Reich) أصدر تعليماته بتدمير ألمانيا الكامل بصورة انتحار جماعية، فلا يستحق الشعب الألماني الحياة بعده. كان الشعب الألماني من وجهة نظره قد اختُزل في شخصه. ولكن لماذا تغرق سفن اجتماعية من هذا النوع؟ قام «يورج فيرتجن» (Joerg Wirtgen) من شركة «شنابس بيرشتاين» في برنامج تدريبي لمدة ثلاث سنوات لدراسة هذه الظاهرة المرضية في علاقات القوة، فوصل إلى ثلاث نتائج مذهلة: ثلث القياديين على الأقل الذين يقفزون إلى منصات القرار هم من النوع الذي يفتقد الحس القيادي، ووصولهم إلى المركز القيادي خاضع لظروف لا تعتمد «الكفاءة» بقدر «الولاء»، وهم من أخبث الأنواع قاطبة وأخطرها. وتتبدل شخصية هؤلاء مع الجلوس على عرش القرارات على نحو وصفي، فيكونون من أسوء أنواع المديرين، ويتميزون بما لا يقل عن 16 صفة قيادية فاسدة مثل: مظاهر الاستعراض، وتقريب المهمَلين، وتضييع الوقت في برامج غير مجدية، والحفاظ على مظاهر الأبهة في المكتب بجانب السكرتيرة الجميلة، وحشر الأنف في كل صغيرة وكبيرة، والانفجار بالزعيق على مخالفات لا تستحق، وتحطيم كل نفس كريمة؛ فيجب على الجميع أن يسارعوا إلى الولاء وإظهار صنوف الزلفى، وأن يكونوا جاهزين على مدار الساعة لتقديم «التقارير» في حق زملائهم. ثانياً: يوحي إلى الزعيم من حوله زخرف القول غروراً أن الأمور في أحسن أحوالها، وأن كل شيء تحت السيطرة؛ فلا يسجلون إلا الانتصارات ولا يُظهِرون

إلا عظمة القائد الذي لا يخطئ. وأما المصائب فلا يتم الإخبار عنها إلا بعد أن لا يبقى بدٌّ من الإعلان عنها، مثل القدم السكرية المتعفنة التي تفوح رائحتها ولا ينفع فيها إلا البتر. وجرت سنّة اللّه في خلقه أن هذا عندما يحدث يكون متأخراً جداً حيث لا ينفع الترميم، مثل كسر الزجاج الذي لا ينفع فيه التجبير. وعندها تكون السفينة في طريقها إلى قاع المحيط بأسرع من غرق التيتانيك. ثالثاً: عندما تغرق السفينة تهرب الجرذان. هكذا تبرأ «فون باولوس» قائد الجيش السادس من معلمه «هتلر» بعد أن استسلم للروس ولم يبقَ من جيشه الذي بلغ 360 ألف مقاتل سوى تسعين ألفاً. وهكذا خطط «هملر» رئيس الاستخبارات العسكرية (الجستابو) والحرس الخاص (SS) للانقضاض على السلطة في الرايخ، وبدأ يتفاوض مع الحلفاء سراً مع نهاية هتلر مع أنه لم يبقَ شيء من الرايخ. وعندما تسلل لواذاً شقيق «إيفا براون» عشيقة هتلر من القاعدة تحت أرضية حيث اختبأ «الفوهرر» في أيامه الأخيرة أمر هتلر بمحاكمته وإعدامه في لحظات. وهكذا مات المشير «عامر» منتحراً أو منحوراً بعد طول صحبة وعظيم الخدمات. والأخلاّء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين. ولكن لماذا يحب أحدنا أن يحاط بالمتملقين الذين يركعون له ويسجدون ويسعون له ويحفدون؟ ولماذا كل هذا العناء لشقّ هذا الطريق بين صراع «التراتبية» وكسب العداوات بدون توقف؟ وما هو الشيء المغري الذي يدعو إلى اعتلاء القمة؟ ما هي هذه الحلاوة التي لا يقاوم إغراؤها. للإجابة على هذا السؤال دخل على الخط علماء البيولوجيا ليخلصوا بنتيجة سيئة عن طبيعة الإنسان: «إنه يولد ليس بعطش إلى القوة بل بميل إلى سوء استخدام السلطة»، أي إن السلطة تُفسد الإنسان مهما كان ودان. وهذا يعطي

الإشارة الحمراء لمن يتفاءل بالقدرة الأخلاقية عند بعض الأفراد الذين يصلون إلى سدة المسؤولية أنهم نزيهون، وبالتالي سوف تنصلح الأمور مع قدومهم بضربة ساحر حتى لو كان في بلد وصل العفن فيها إلى قمم الغمام، بما يذكر بهلوسة مدمني المخدرات. ويفوتهم أن الوسط عندما يمرض فلن يرفعه صلاح صالح أو استقامة عادل. والجراثيم عندما تضرب لا تقتل بفوعتها بقدر انهيار الجهاز المناعي. وفي تاريخنا نموذج مزلزل عندما تم اغتيال أعدل الناس، الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وسقوط تفاحة الحكم في يد البيت الأموي الذين كانوا ألدّ أعداء الإسلام في رواية عن سخرية التاريخ. وهكذا نكسنا على رؤوسنا ورجعنا إلى القبلية وحكمَنا السيفُ وما يزال. وتشكل الوسط المريض الذي تسبح فيه الجراثيم الإمراضية، وبدأت نسخة أموية مزورة عن الإسلام في الانتشار. يقول «بروس شارلتون» الباحث في علوم التطور من جامعة «نيو كاستل» إن طبيعة البشر تحمل الميل للمغالبة والقهر. أما الأنثروبولوجي «كريستوفر بوم» من جامعة «جنوب كاليفورنيا» فيعزو هذا إلى أننا «ما زلنا نحمل هذا التنافس العدواني من أسلافنا». وفي عالم البيولوجيا يمكن التمييز بين ثلاثة أنواع من الجماعات: قرود الريزوس، والشمبانزي، والمجتمع الإنساني. إن مجتمع قرود الريزوس يعيش في تراتبية خاصة حيث يسيطر الذكر الأقوى، في حين أن مجتمعات الشمبانزي تطوّر عندها نظام اجتماعي معقد في آلية متبادلة من الانضباط، والرئيس الذي له حظوظ البقاء هو من يخدم مصالح الجماعة أكثر، فتعترف له الجماعة وتنقاد. ويفترض «فرانس دي فال» أن هناك ما يشبه العقد الاجتماعي البدائي في جماعة الشمبانزي. أما في بني البشر فتمضي

السيطرة الاجتماعية إلى أبعد، وفي النسيج المتضافر المعقد في علاقات القوة في المجتمعات الديموقراطية الحديثة لا يمكن لأحد أن يعلو إلى مستوى القوة غير المحدودة وغير المنضبطة. وهكذا فإن النظام هو الذي يفرز الأقوياء والضعفاء، ويسلب الملك من الجبارين ويمنحه للذين استُضعفوا في الأرض، ويجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين. وهذا خاضع لسنّة الله في خلقه، فيؤتي الملك من يشاء. ولقد استطاع الغرب فك هذا اللغز المحير في تبادل السلطة السلمي، ونجح في إزالة الوثنية السياسية. والمشكلة في العالم العربي هي في «نظام الفكر» الذي يقتل «التفكير» ويمنع «حرية التعبير» ويؤسس للغدر، ويرى أن «الإكراه» و«القوة» هما الوسيلتان الوحيدتان لمسك رقاب الناس أو الإطاحة بالأنظمة الاستبدادية، ويشيد صروحاً من الاستبداد العقلي والمذهبي الذي يقود إلى الاستبداد السياسي آلياً، مما يفتح عيوننا على حقيقة كريهة أن جميع الفرقاء يرضعون من نفس ثقافة الإكراه. وهكذا ففي المدارس وفي بلدين إسلاميين يتم الصراع السياسي على جسد المرأة، فمنهم من ينزع حجابها «بالقوة» ومنهم من يفرض حجابها «بالقوة»، وبعيداً عن مماحكات الجدل ودخولاً إلى الآلية السيكولوجية فإن كلا الفريقين ينطلق من مبدأ «الإكراه» باغتيال حرية الإرادة في اختيارها على نحو واعٍ، وفرض النظام بالقوة أكثر من الإقناع. وجرت العادة أن كل شيء تمّ فرضه بالإجبار فقد جاذبيته مهما كان في عيون أصحابه براقاً جميلاً، وفي النهاية تنقلب الأمور، فينشط المنعكس المضاد. هكذا انقلبت الرهبانية في أوروبا إلى إباحية، وفي كل مجتمع متشدّد تنمو تيارات الهرطقة تحت الأرض سراً. وحيث الكبت الجنسي تتولد كل صور الهلوسة والانحرافات

الجنسية المثلية. وكل نظام يقوم في حراسة الإرهاب يحمل دليل فشله. أما في المجتمعات الديموقراطية فلا توجد كائنات أحادية مسيطِرة أو مسيطَر عليها، بل كل واحد وفي نفس الوقت هو مركب من: «مسيطِر ومسيطَر عليه» من رأس الهرم إلى القاعدة. ورئيس شركة عملاقة في أوروبا يحذر من ارتكاس أصغر مواطن، والسلاح الفعال في هذا هو النقد العلني. أما المجتمعات الخرساء فتمنح الصوت لفم واحد، فلا يتكلم إلا فرد واحد متعالٍ. وفي المجتمعات النابضة بالحياة يمكنها تحطيم الأصنام السياسية بكل بساطة وبوسائل سلمية من تجاهل الأوامر والتصويت ضد القرارات وعدم التعاون. إن الذكاء الاجتماعي عند البشر كبير بما فيه الكفاية بحيث إن كل وسائل السيطرة والقمع يمكن مكافحتها دوماً بفعالية، مما يعطي الأمل في التقدم دوماً والتخلص من مرض الطغيان. إن الطغاة أضعف مما نتصور، ولكن السؤال هو في اكتشاف الصادّ الحيوي الفعال ضد هذا المرض. وحتى يحين وقت مجيء المكتشف العظيم تبقى الشعوب ترزح في العذاب المهين.

الجنون الاجتماعي

ألقت المخابرات في بلد عربي القبض على «بدوي» تحت شبهة انتمائه إلى تنظيم سري محظور وأودعته السجن. وبعد أيام من المكث في الإفرادية طلبه المحقق للاستجواب وبدأ في استجوابه على الطريقة المعهودة: من هم أعضاء خليتك؟ من نظمك؟ من كان المسؤول الحزبي الذي يدير حلقتك؟ من نظمت أنت؟ أجاب «البدوي» بعفوية وبساطة: يا حضرة المحقق، أريد أن اختصر لك المسألة: «لا بالله... نحن نريد نزيحكم ونقعد محلكم...». هذه هي الصورة المصغرة لعلاقات تبادل القوة، فلا يمكن لكائنَين إنسانيَّين أن يتعاملا إلا من خلال معادلة واحدة، أن يتحول أحد الطرفين إلى إله له الحكم وإليه يرجعون. وأنه لا توجد في المجتمع الإنساني إلا شريحتان من المستكبرين والمستضعفين، والجبارين والأذلاء، وهو المرض الفرعوني عندما يصاب به المجتمع ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ﴾ (القصص: 4). وهذا يفتح عيوننا على ثلاثة حقائق: 1- أن الجسم يمرض والمجتمع يعتل. 2- وأن مرض الجسم هو بوحدات إمراضية من الجرثوم والفيروس والبروتين الشاذ، كما في مرض جنون البقر والبشر الأخير. وبالمقابل فإن

«الوحدة الإمراضية» في المجتمع هي الأفكار التي تمزق العلاقات. ذلك أن المجتمع هو «شبكة علاقات» بحسب تعريف المفكر «مالك بن نبي» بحيث يصاب المجتمع بالجنون من نوع خاص، فتتسلط أقلية على مصير الأكثرية تسوقها بالسوط والإرهاب. وحسب «توينبي»، المؤرخ البريطاني، فإن أي حضارة تنهض بأقلية مبدعة تمشي خلفها الأكثرية على نغم المزمار، وتنهار عندما تنقلب تلك الأقلية إلى فئة بغيضة مسيطرة تسوق الناس بالإكراه. وإن في مثل انهيار الاتحاد السوفياتي تطبيقاً ميدانياً رائعاً لهذه الفكرة. 3- وأخيراً أن السسيولوجيا (قوانين سير المجتمعات) أهم من البيولوجيا، ولهذا بعث الأنبياء. والقرآن لم يلتفت إلى سنن الفيزياء وقوانين الكوسمولوجيا بقدر سنن المجتمعات وصيانتها وتطويرها، ولكن المشكلة في «سنن» عمل المجتمع أنها معقدة مرتين. التحدي الأول: هل لها قوانين تتشكل بموجبها وتتطور لتموت لاحقاً؟ وإذا كانت موجودة فكيف يمكن اكتشافها؟ ذلك أن الكشف عن أي قانون يمنح إمكانية تسخيره. ومن يدرك هذه القوانين يضع في يده مفاتيح السيطرة والتسخير. والمجتمع الجاهل بهذه القوانين ينحدر إلى مستوى «الأشياء» المسخرة والمتلاعَب بها في يد الأقوياء والمدركين لهذه القوانين، وهذه تعمل بدورها على قانون النسبية. وبين أن تُسَخَّر (بالفتح) أو تُسَخِّر (بالكسر) شعرة، والعالم العربي اليوم هو في خانة الأشياء المسخَّرة (بالفتح) التي لا تملك مصيرها ولا تعرف مكانها في الفضاء التاريخي. وكل المصائب التي تنزل على رؤوسنا هي عقاب التاريخ على أدمغة الجاهلين. مع انتشار مرض جنون البقر وانتقال عدواه إلى عالم البشر، بفعل تناول غذاء معين والإكثار منه، يجعلنا نستوعب أن المجتمعات يمكن أن تصاب

بجنون من نوع خاص حسب الغذاء الفكري. فعندما غُذيت الأبقار باللحم وتحوّلت إلى «Canibals» (آكلة لحوم نفس الفصيلة) عاقبتها الطبيعة بتدمير جهازها العصبي، كذلك فإن البشر بحشو أمعائهم باستمرار بغذاء بروتيني معيّن مثل اللحم يتعرضون للعدوى من هذا المرض. ولكن المجتمع يمكن أن ينسف جهازه القيادي بالجنون عندما يتغذى بالخيالات الفرعونية، ويتشقق المجتمع إلى طبقات، ويفقد الانسجام الداخلي تماماً كما يحدث في مرض جنون البقر والبشر. وكما كانت نهاية البقرة المصابة بالحرق أو الموت الذاتي، والإنسان المعتل بالنهاية في سرير المرض بتعطل أجهزته البيولوجية، كذلك تموت المجتمعات الإنسانية بالانسحاب التاريخي التدريجي وتعطل الوظائف الاجتماعية من البنية التحتية، وفي النهاية بذوبان الشخصية الكامل في مجتمعات قوية، وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم. إن التاريخ يمشي بوتيرة تسارع مذهلة، وإن المجتمعات القوية تلتهم المجتمعات الضعيفة في حركة بنائها كما استفادت روما قديماً من مجتمعات منهارة أو مقتولة مثل القرطاجني والغالي كحجارة بناء ممتازة للصعود بحضارتها. في مستوى الجسم يحافظ البدن على حالة السواء التي نسمّيها «الصحة» بين توازن الهجوم الجرثومي الخارجي ويقظة الجهاز المناعي على مدار الساعة. وأي خلل من أحد الطرفين يُدخل الجسم حالة الاختلال التي نسمّيها «المرض». فنحن في العادة نشيطون حرارتنا معتدلة وأجهزتنا الحيوية تعمل بانتظام، فلا نسعل ولا نسهل ولا نرجف، ولا نقع صرعى في سرير المرض. ولكن في المرض نسخن كالمرجل، ونرجف كورق الخريف، وننفث الدم، وتقذف أمعاؤنا بالمخاط المدمّى. ويُعرِّف الطب اليوم المرض أنه

أحد احتمالين: استفحال وطأة الجراثيم، فينكسر الجهاز المناعي أمام الهجوم، أو هو اختلال آلية عمل الجهاز المناعي، فينهار السدّ، فتتدفق العوامل الإمراضية، فهم من كل حدب ينسلون. ويتدمر جهاز أو أكثر من العضوية في الحرب الدائرة حسب نافذة الهجوم ومساحة التدمير. إن فهم آلية انفجار المرض في غاية الأهمية لأنه يدور حول آلية محددة ويُختصر في جملة واحدة: إنه انهيار الجهاز المناعي على أية صورة. والأمراض الاجتماعية لا تخرج عن هذه الآلية فتعتل المجتمعات بآلية داخلية بحتة. وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين. إن الفلسفة القرآنية تنفرد بهذا الطرح، وهي أننا يجب أن نبحث دوماً عن ظروف الانهيار بتفقد العناصر الداخلية فرداً فرداً. وهو هنا يؤسس لثلاث أفكار جوهرية: 1- أن الانهيار هو داخلي بحت. 2- وأن النهضة والتحرر تأتي من تغيير العالم الداخلي، وإن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. 3- وأن المسؤولية في الآخرة فردية بحتة عندما يفرّ المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه. إذا كان الفرد يأتي يوم القيامة وحيداً فرداً مسؤولاً عما قدّمت يداه فهذا معناه أنه يتوجب عليه أن لا يطيع الفرد أوهام القبيلة والحزب والعائلة والطبقة، وأن يكون شعاره دوماً «الله... لا الملك أو الرئيس». ويجب أن يفكر باستقلالية وتفرد، وهذا تتولد عنه ثلاثة أمور في غاية الخطورة: 1- إن خلاص الفرد أو شقاءه في الآخرة معلق بهذه الاستقلالية في التفكير والتفرد باتخاذ القرار. 2- إن المجتمعات لا تنخلع من الرتابة اليومية نحو الإبداع بدون هذه الاستقلالية في التفكير. والمجتمع له وظيفتان: الأولى هي المحافظة على وجوده النوعي الخاص بإعادة إنتاج أفكاره، وهي حالة المجتمع

التشريحية. ولكنه لا يتطور ولا يمشي على طريق التقدم بدون أفكار جديدة، وهذه تأتي من استقلالية الأفراد، وبقدر انفجار الإبداع الفردي في المجتمع بقدر قفزة المجتمع في منحى التاريخ باتجاه التطور. وهذا سر خاص في نهضة الأمم. وهو الجانب الحركي «الديناميكي» في تطور المجتمع وتغير صيرورته عبر التاريخ. إن العقارب منذ 400 مليون سنة لم يتغير فيها شيء، ولكن الجنس البشري خلال أربعة آلاف سنة أصبح خلقاً آخر، وبعد عشرة آلاف سنة سيتعجب من الوضع الذي نعيش فيه اليوم. 3- إن الفرد يسبح في اللحظة الواحدة بين عالم الغيب والشهادة، وبين العلاقة الفردية والصلة الاجتماعية، بين تميز الشخص والقهر الاجتماعي. فهو يدفع ضريبة ارتباطه بالمجتمع في أشكال شتى من القهر والاحتكار، منها ما يعيها ومنها ما لا يعيها، وهو الأكثر وهي تسبح في عالم اللاوعي وتقرر سلوكنا اليومي. فهو يولد إن شاء أو أبى في وقت بعينه، ومكانٍ لا محيص عنه، ومجتمع معين وثقافة محددة. وهو مربوط بأربعة أنواع من الأغلال، فهي إلى الأذقان فهم مقمحون. إنه يولد من رحم وأبوين لا خيار له فيهما. في قفص من البيولوجيا محكوم بجيناته. مودع في زنزانة الزمن، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون. محكوم بشدة في سلاسل الجنس، فحالما جاء إلى الحياة على شكل أنثى استقبلها من حولها وجهه مسوداً وهو كظيم. وإذا ولدت هذه المخلوقة في بيئة متشددة حكم عليها إلى الموت بالتسربل في إقامة جبرية من اللباس والمكث في أبعاد جغرافية محددة. وإذا سيطرت الثقافة على صاحبها أصبح كالمجانين يرى نفسه أنه خير مَن أخرجت البرية ولو كان غارقاً في التخلف إلى قراريط أذنيه. جنون البقر

يتظاهر بمرض في الرأس، فيفقد الحيوان السيطرة على المنعكسات ويخرّ صريعاً إلى الأرض. وجنون البشر يتظاهر بنكس في المادة العصبية وتحول الدماغ إلى كتلة اسفنجية محشوة بفراغات مثل قرص شمع النحل. ولكن جنون المجتمعات خفي لا يظهر إلا بطول تأمّل واستقصاء وإحصاء، وعند الراسخين في العلم. جنون البقر يفضي إلى نفق الحيوان، وجنون البشر يقتل الشباب، وجنون المجتمع يظهر في نكس القيادة السياسية فيسلّمه إلى حتفه التاريخي. ومن نعمره ننكسه في الخلق أفلا يعقلون. ولكن ما هو الجنون حقاً في عالم الواقع؟ لقد بحث «ميشيل فوكو» فيلسوف الحداثة الفرنسي هذه المشكلة في كتاب كامل. ووجد تطابقاً عجيباً بين الهستيريا واستئصال الرحم عند المرأة. ففي الأصل اللاتيني للكلمة تعني «Hysterectomy» استئصال الرحم، وهكذا فالمرأة تبقى خزاناً لكل أنواع الهلوسة، وبذلك دمغت الثقافة الإنسانية نفسها بختم مزوّر من الفحولة. وهناك حاجز رفيع بين الجنون والعبقرية. وإذا كنا ننظر إلى آخر فنعتبره مجنوناً فهو يرى عالمه الداخلي أنه عين الكمال. إن ما يميز الجنون عند البقر هو فقد السيطرة على الجسم. والدماغ من الناحية التشريحية هو المركز الحاكم والعالم المتصرف. والجسم هو المستقبل المطيع المنفذ. فإذا تدمّر المركز ضاعت السيطرة وفقد الانسجام والترابط. وهو حسب تعريف الكاتب العراقي «علي الوردي» في كتابه «مهزلة العقل البشري» أنه يتظاهر في عالم البشر بصفتين، الانفكاك عن الواقع والسباحة في عالم آخر. وثانياً: التصريح والإعلان عن الواقع الجديد. فأن يظن الإنسان نفسه أنه مركز العالم وأنه أغنى من قارون وأقوى من شمشون وأفهم من آينشتاين، وأن الكل يحسده

ويتآمر عليه، فهي نصف المصيبة طالما كتمها عن الآخرين وانحبس في هذا الواقع سراً، ولكن الإعلان عنها والتصرف بما يتناسب معها يدخل صاحبها عالم الجنون، فيتأمله الناس بابتسامة خبيثة مع توديعه إلى مقبرته الجديدة. والقرآن لا يتورع عن ذكر مثال المجنون أن الأنبياء اتهموا به بسبب أنهم أتوا بمنكر من القول عظيم، وكلام خارج المنظومة الاجتماعية، وأنهم «ارتدوا» به خارج دين المجموعة التي يعيشون بين ظهرانيها في حالة انفكاك كامل عن الواقع ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ (ص: 5). ونحن اليوم نتعجب مما تعجبوا منه. نحن نرى أن الإله واحد، وهو الشيء الطبيعي والمنطقي، ولكن القوم كانوا يرون أن الشيء الطبيعي والمنطقي أن الإله يجب أن لا يكون واحداً. وما زالت الكنيسة ترى أن الإله انشطر إلى ثلاثة بدون أن ينشطر، في مركب أقانيم ثلاثة على شكل أحجية غير قابلة للحل. وإذا كنا نتعجب من سذاجة تفكير مشركي الجاهلية فإن منظومة الفكر هذه من تعدد الآلهة ليست جديدة ولم تختفِ من التفكير الإنساني حتى هذه اللحظة، ويعتنقها أكثر من مليار من البشر، عن معنى أثر التقليد وغياب العقل النقدي. وما قام به الأنبياء في التاريخ هو محاولة كسر هذه المسلّمات الاجتماعية، ولكن بثمن لم يكن اليسير والسهل دوماً. إن أفكار «مارتن لوثر» كلفت حرب الثلاثين سنة (1618-1648)، وحصدت أرواح ثلث الشعب الألماني، وبقيت ألمانيا تبكي من المصيبة قرناً كاملاً. إذا كان جنون البقر هو تعفن الدماغ وانفكاكه عن الجسم، وإذا كان جنون البشر هو الانفكاك عن الواقع، فإن جنون المجتمعات يجمع كلا الميزتين، فهو انفكاك القيادة السياسية عن الأمة، وهو ضياع الجميع في الزمن التاريخي حسب

تعبير «شبنجلر»، وفي الوقت الذي يظن المجنون أن الأمور في أحسن أحوالها وقد يقبض على «كمان» للعزف في مصح الأمراض العقلية، فيعزف عليه بكل سرور وبكل لحن من الموسيقى نشاز، فإن المجتمعات المصابة بالجنون تكثر في محطاتها الفضائية حفلات المجون طرداً بقدر الإحباط، وإن الموسيقى تصدح في الوقت الذي يعجز المجتمع عن حل مشاكل الخدمات اليومية. إن التاريخ يخبرنا دوماً أن المجون هو مشعر الجنون، وأن الحياء والإيمان قرنا جميعاً، وإن الغريزة عندما تتفلت تزداد ضراوة وسرعة وتملصاً من قبضة العقل باتجاه الهاوية في الوقت الذي يسبح الناس في عبق النشوة وخدرها القاتل. يقول «محمد حسنين هيكل» في كتابه «زيارة جديدة للتاريخ» إنه بقدر إعجابه بالهند بقدر نفوره من جواهر لال نهرو حتى اكتشفه في لحظة خالدة، وكانت عندما سمعه يتحدث في جلسة مغلقة في مؤتمر باندونغ. لقد تحدث لمدة ساعة كاملة، وكان حديثه يدور عن الاستقلال والحرية. قال لهم: «إنكم تفزعونني حتى الموت عندما تتناولون هذه القضية الخطيرة. هل تظنون أن الحرية والاستقلال قصاصة ورق يوقعها لكم الاستعمار الذي لا يقدر ولا يرغب في البقاء في أراضيكم؟ حسناً، خذوا هذه الورقة ولكن بدون استقلال وحرية. سمعت بعضكم يتحدث عن عضوية الأمم المتحدة وكأنها ملكوت الله. تطلبون فتجابون. هل هذا صحيح؟ الأمم المتحدة بلا فاعلية ولسوف تكتشفون أنها أصبحت مجرد نادٍ أو مقهى يذهب إليه المندوبون ليشربوا الشاي ويلعبوا. بدل أن يلعبوا بالورق سوف يلعبون بالكلام. إن السيطرة الجديدة لن تكون بالجيوش ولكن بالتقدم... وهناك سبيل واحد إلى التنمية هو العلم، فماذا لدينا منه؟ أخشى أننا سوف نجد مصائر التنمية في أيدي بيروقراطيات متعفنة».

إن مشكلة الجنون أن آخر من يعرف به هو صاحبه، ولكنه لا يظنها أكثر من مزحة فلا يصدقها قط.

صناعة السحر

السحر لا يزيد عن خيال، وليس له قاعدة من الحقيقة. والسيارة لا تمشي بدون وقود حقيقي. ولكن العقل يمكن اغتياله بالخرافة. ويمكن للجماهير أن تعيش على الأحلام. كما أن الإنسان يمكن أن يمشي ببطاقة وهمية. وإذا كان حاوي السيرك يضحك على الجمهور فيُخرج من القبعة الأرانب، فإن السياسيين يمكن أن يخدعوا جمهوراً كاملاً، فيُخرجون من صناديق الانتخابات بطاقات مزورة. وإذا هزم قائد عسكري في معركة مصيرية علا منصبه على قدر الهزيمة. وإذا مات مشت جماهير حاشدة في جنازته تهتف وتنتحب وتلطم الوجوه. ويفكر المرء أحياناً: هل هو مجنون أم هم مجانين أم أن الكل في عالم مطبق من الجنون هائمين؟ هل نحن في وطن أم مصحة عقلية؟ إننا نعيش فعلاً في عالم مسحور. إن هذا لشيء عجاب، ولكنه واقع أثقل من نجم نتروني.

في مطلع القرن العشرين لمع نجم ساحر في أمريكا اسمه «هوديني»، كان يُسَلسَل في الأصفاد بقفل ثقيل، ثم يُحشر في صندوق خشبي عاري البدن إلا من سترة سباحة، ثم يُحكم إغلاق الصندوق بالمسامير على أعين الناس، ثم يطوَّق الصندوق بدوره بحزام جديد

من السلاسل محكمة الرتاج بأكثر من قفل، ثم يُلقى في الماء أمام ذهول الناس الذين يحبسون أنفاسهم، ويطول الأمر أحياناً إلى فترة أربع دقائق، وإذا بهوديني يخرج من الماء يحمل السلاسل المحررة بيديه فيلقيها أمام جمهور يصفق ولا تصدق عيناه. وبدأ الناس يتناقلون إشاعة مفادها أن الرجل يخرج من الصندوق من خلال تحويل جسده إلى روح شفافة تتسلل من المحبس وتتحرر من كل السلاسل والأقفال والمسامير. وقالت طائفة منهم إن هذا هو السحر بعينه، وإلا فماذا يعني السحر إن لم يكن هذا؟ وقال العقلاء من القوم إن هذا الشيطان يتملص بطرق عادية مجهولة الكيفية تدرّب عليها طويلاً ولا نعرف ماذا يفعل الخبيث على وجه الدقة حتى يتحرر من كل هذه الأصفاد. ومات الرجل في النهاية وعمره 52 سنة بالتهاب زائدة دودية، فلم يغنِ عنه سحره وما كسب. وفي نفس الفترة من ثلاثينات القرن العشرين انتشرت حمى جديدة من السحر أشرف عليها رهط من المشعوذين يدّعون أنهم يستحضرون الأرواح ويستنطقونها ويسألونها عن عالم الغيب ومجريات العالم الأخروي ومصير البشرية. فكانت تلك الأرواح تنطق بلسان إنكليزي مبين، وتحكي قصصاً مسلية من عالم الأموات. كل ذلك كان يتم في غرف مظلمة عابقة بالبخور، بين يدي رجال ونساء أشكالهم عجيبة وملابسهم مزركشة وشعورهم منفوشة وأعينهم جاحظة، يمدون أيديهم إلى آخر دولار من جيوب العملاء. ومما روي عن زوجة «هوديني» أنها بقيت تنتظر عودته قبل أن تصل إلى القناعة أن روح زوجها لن تعود، وأن الأموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون. وفي الهند هناك مدينة عجيبة تضم جموعاً من السحرة يمكنهم أن يجعلوا الحبل يقف منتصباً بعد نفخة مزمار،

فيتسلقه طفل، ولكن كل سحرهم لم يحررهم من فقر مزرٍ. وفي بلد عربي اجتمعت بشيخ يدعي وصلاً بعالم الجن قد حمل ذراعه في جبيرة جبسية، قال لي: لقد كنا في الجهاد عندما حمي الوطيس مع نفر من الجن. وكان الكسر من رفسة من مريض نفسي. ثم بدأ يتحدث عن «عيادته» التي يتقاطر إليها المئات من كل الشرائح الاجتماعية ومن الجنسين، ومن أساتذة الجامعة، وأشخاص مهمين في حركات إسلامية، كان قد أسس فعلاً شركة محدودة المسؤولية للتعامل مع الجن بالاتجاهين إدخالاً وإخراجاً على مدار أربع وعشرين ساعة. وطفق الناس في المنطقة يفزعون من دورات المياه والظلمات، فقد تكاثرت الجن فجأة واحتدمت أصواتهم وحمي جدلهم وارتفعت طبقة موسيقاهم وطربهم و«دبكهم». كان الدجال يمر عادة وسط كوكبة من «المهسترين»، فيصيح أحدهم، فلا تلبث أن تنشب حفلة المصارعة لإخراج الجنّي، ولا تكلف سوى بصقة من فم الشيخ يتفلها في وجه المصاب، ثم يبدأ العراك فيبطح الرجل أرضاً على يد أعوان غلاظ شداد لا يعصون الشيخ ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. يبرك الشيخ على صدر المختنق ثم يزيده خنقاً بضغط عنقه، فيستغيث المسكين وتخرج الكلمات من فم الضحية أقرب إلى الحشرجة، فيصيح الشيخ لقد نطق «الجني»، ثم يردف: أخرج أيها الجني المارق، أنا آمرك أن تخرج من رأس إبهام قدمه الأيمن. وليس أمام الجني إلا أن يخرج من حيث أمر. وقال الدجال في شريط استمعت له إنه استطاع أن يخرج جنياً من بطن صبي ابتلع حبة بندورة ولم يسمِّ. وراجت إشاعات قوية عنه أنه كان يطفئ نيراناً لا تنطفئ. وكان من يناقش في دعواه يزندق أنه ينكر حقيقة الجن. ولم يكن النقاش يدور عن الجن، بل وجودها في

بطن الصبي المسكين. كان الشيخ يشرح نظريته للمرتابين: إن عملي يقوم على ثلاث: فأنا أعالج أمراض «دخول الجن»، وأما الأمراض البسيطة في البدن فأتركها للأطباء والمشافي. وثانياً أنا أداوي بالقرآن الكريم، وبالطبع لم يكن ليداوي بالكتاب الأحمر لماو تسي تونغ. وثالثاً أنا أقدر على جن السهول المؤمنة، وليس لي طاقة بجن الجبال المارقة. ويبقى «رابعاً» وهو لا يصرح بها، أنه لا يمتنع عن قبول الهدايا التي سينفقها في سبيل الله أو على «المجاهدين الأفغان»، وكانت معجزاتهم في تلك الأيام ناشطة. كان الدجال يضرب ضربته ويحزم صرر المال ويبني قصره بهدوء، وينظم أوقات عيادته التي غصّت بالزوار والمراجعين في تربة عقلية تم اغتيالها منذ أيام يزيد، ويستمر في العلاج وسحب المال مدراراً، فإذا وصل إلى النهاية بدون شفاء، وهو الذي يحدث، كان سببه أحد أمرين، فإما كانت جن الجبال المستعصية المارقة، أو الأمراض العضوية التي لا سبيل له عليها. إن الإغتيال المنظم للعقل لا نهاية له. واليوم عرف العلم طرفاً من أسرار «هوديني»، فهو تدرّب لسنوات على الغطس في الماء المثلج وحبس أنفاسه الدقائق الطويلة حتى أصبحت في منزلة العادة عنده. وعرف أن معصميه تكيفتا بالتدريب الطويل على التملص من الأقفال. وعرف أنه كان يستخدم أصابع قدميه ببراعة أنامل يديه، وأنه بمسمار صغير كان يفتح أعتى الأقفال. كل ذلك بطول تدريب وبراعة أتقنها، وعشق لا يضاهى للمال والشهرة. وكل إنسان يوجد نفسه بطريقة ما، فمنهم من يمارس السحر ويغتال العقل، ومنهم من يمشي على الحبال ليهوي يوماً من شاهق فيُقتل، ومنهم من يصعد الجبال حتى ينقطع نفسه على قمة «إفرست» فيبقى شبحاً مجمداً في الثلوج آية للمتوسّمين لفي سبيل

مقيم يحدّق في الذاهب والغادي. إن قصة السحر لتسلية الناس جميلة لولا الاحتيال لسرقة الناس واغتيال العقل على نحو خفيّ منظم. وأتذكر من خبرتي الشخصية أنني كنت يوماً في مطار فرانكفورت في ألمانيا عندما انتصب أمامي فجأة رجل مثل الجنّي ثم بدأ يمارس سحره وأنا أحدّق فيه على بعد ثلاث أمتار، ورأيت وأنا أفرك عيني كيف طلب من إحدى النساء الحاضرات التمدد على حافة كرسيَّين، ثم رفع أحدهما فإذا بالمرأة معلقة في الفراغ لا يسند رأسها إلا طرف كرسي. فعل كل ذلك بدون أن يمدّ يده للصدقة، لكن الناس هرعت إليه فتبرعت بما هو أكثر من الصدقة. إن السحر وهمٌ ولا يمثل الحقيقة، لكن الناس تعتقد فيه بأشدّ من الحقيقة، فيلجأ الناس إلى الساحر على نحوٍ ما لفك ألغاز عجزوا عن حلّها، وهذا يحمل ثلاثة مخاطر: الاحتيال على الناس، وتعطيل العقل عن فهم الكون أنه يقوم على سنن الله في خلقه، وثالثاً تعطيل الطاقة عن الدخول إلى مسارها. وإن العلم اليوم ليفعل أشد من جن النبي سليمان. فهذه ثلاث حلقات يأخذ بعضها برقاب بعض. وهذا هو الفرق بين العلم والسحر. ليس فيه سر. ويمكن تبادل الخبرات فيه وتنميتها بدون حدود. ويمكن لأي شخص تعلُّمه وتسخيره. وعندما قرن القرآن تعلم السحر بأنه من الشياطين الذين كفروا يعلّمون الناس السحر، وأنه من أتى كاهناً أو عرافاً فقد كفر بما أنزل على محمد (ص)، أنه كان يريد تأسيس «العقل الاستدلالي» في وجه المعجزة والخارق والأسطوري. وبقدر تركيز القرآن على سنّة الله، بقدر كتابة تاريخنا على نحو منكوس وتشكيل عقلنا على منهج الخرافة في «علل عشرة» يعاني منها العقل العربي، فهو يرزح في الشلل حتى إشعار آخر. هكذا كتبت السيرة في

ظل المعجزة والخارق بحيث استحالت إلى كرونولوجيا غزوات ومسلسل معجزات. إن تحرر العقل من الخرافة أمر شاقّ، ويعتقد الفيلسوف محمد إقبال في كتابه «تجديد التفكير الديني» أن العقل المنهجي الاستدلالي أمر «كسبي»، فلا يولد معنا، بل تشكّله الثقافة، فيجب صيانته وتطويره المرة بعد الأخرى، مثل حالة الطيارة بعد الإقلاع، فبعد تلك القفزة العملاقة إلى فضاء السنن يجب صيانة هذا الكسب وتطويره بدون توقف. يقول «آينشتاين» إن كشف الحقيقة مرة واحدة أمر غير ذي بال ولا يكفي. إن الحقيقة تشبه تمثال الرخام المنتصب في صحراء تضرب فيها عواصف الرمل بدون توقف، والأيدي الدؤوبة الماهرة التي تنفض عن التمثال الغبار بلا سأمة وكلل هي التي تحافظ على لمعانه تحت ضوء الشمس. ويعتبر «ليسنج» من فلاسفة التنوير أنه لو قدم الله لعباده الحقيقة النهائية في يده اليمنى، والشوق الخالد إلى البحث عنه في يده اليسرى ومعها الخطأ لكل من سلك هذا الطريق، كان علينا أن نركع بخشوع أمام اليد اليسرى ونقول: يا رب امنحنا ما في يسراك لأن الحقيقة النهائية والمطلقة هي لك وحدك. إن العقل مهزلة كما يقول «علي الوردي». ويعتبره آلة للإنسان لا يزيد عن أسنان السبع، وقرن الخرتيت، وفك التمساح، وناب الأفعى، وزعنفة العقرب. أي إنه أداة التنافس للبقاء على قيد الحياة أكثر منه أداة في تمييز الخير من الشر والهدى من الضلال. ويعتبر «سكينر» من مدرسة علم النفس السلوكي أن ما يسمّى العقل والكرامة لا يزيد عن خرافة. أما «مدرسة علم النفس التحليلي» فترى أن الدوافع الأساسية التي تحرك الإنسان قادمة كالزلزال من عمق طبقات «اللاوعي»، وهي تتحكم في 95٪ من تصرفاتنا، ويبقى «الوعي» في

ظلمات المحيط يسلط ضوءه مثل منارة الشاطئ بقوة لا تزيد عن 5٪ وبتركيز وعي متنقل. إن الوعي بهذه الصورة لا يزيد عن رأس جبل جليد التيتانيك الشارد. وإن الكثير من الكوارث التي تحدث يحركها اللاوعي، أي جبل الجليد المختبئ تحت السطح. إن معركة «ستالينغراد» التي مات فيها مليونا إنسان في أعظم مذبحة مرّت على وجه الأرض لم يكن فيها أي جدوى استراتيجية، وذبح الناس بعضهم بعضاً في الأوحال في مسالخ فعلية بسبب نفسي بحت بين عناد الطاغيتين هتلر وستالين. وفي النهاية دمر باطل باطلاً إلى حين، ثم اجتثت جذور الباطل الآخر بعد سبعين سنة. ولقد خلت سنّة الأولين إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين. إن السحر في الواقع ثلاثة أنواع: ما يتسلّى به الناس من نموذج «هوديني» وهو غير ضارّ. أو ما تمارس به الخرافة في وسط طلق العقل في «بينونة كبرى». وهو هنا يسرق عقول الناس أو يحدد مصائرهم من زواج وطلاق، وهو ما تحدث عنه القرآن في سحر «هاروت وماروت»، فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه. ولكن السحر الأعظم (الأسود) هو السحر السياسي وصراع موسى مع سحرة فرعون كان يدور حول المصير السياسي لفرعون وهؤلاء المرتزقة (المثقفون الكاذبون في ذلك العصر) قالوا أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين؟ فكان جواب فرعون إنه ليس المال فقط بل المناصب والنفوذ، قال نعم وإنكم لمن المقربين. وعندما ألقوا حبالهم قالوا بعزة فرعون إنّا لنحن الغالبين، وتأثر موسى ذاته فأوجس في نفسه خيفة وخيّل إليه من سحرهم أن الحبال ثعابين تسعى. وما كانت تسعى ولكن الناس اليوم «يسعون» إلى صناديق انتخابات مزورة وهم يعرفون أنها مزورة، ويخيل إليهم أنه

«يجب» أن يذهبوا ولا مفر من الذهاب. ويخيل إليهم أنه «يجب» أن يقولوا «نعم»، فهل هناك سحر أعظم من هذا؟ إن الكهنة السياسيين اليوم لا يختلفون عن كهنة المعبد في الكرنك أيام الفرعون «بيبي الثاني»، فلقد روعوا الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم. كذلك يتظهر السحر السياسي في قصة مجلس الأمن وجمعية الأمم المتحدة وعلاقة الحكومات بأمريكا. فمجلس الأمن اليوم هم كهنة «دلفي» قديماً، وهم المفسدون في الأرض الذين لا يصلحون. ونحن نظن فيهم مثل ظن الدراويش بقبر الشافعي. فكما يعلق الدراويش الحرز على قبره، أو يرسلون له المكاتيب ليستجيب فلا يستجيب، فإن مجلس الأمن اليوم هو كما وصفه عيسى (عليه السلام) أنه ذلك القبر المطلي بالبياض الناصع من الخارج ولكنه من الداخل «نجاسات وعظام أموات». إن مجلس الأمن اليوم الذي نعقد عليه الآمال هو مكان نصب الآلهة الكبرى اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، من بريطانيا وأمريكا وروسيا والصين وفرنسا، فهذه هي الأصنام الخمسة الجديدة التي تعيق بنظام «الفيتو» ولادة العدل في العالم. وهناك في العالم العربي من يتلمظ لمقعد في مجلس الأمن، فيقول كما قال مَن حول موسى له حينما عبر بهم البحر: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف: 138-139). والسحر الثاني هو جمعية الأمم المتحدة التي هي ناد لتزجية الوقت، فبدلاً من «لعب» الطاولة يتم «اللعب بالكلمات» كما وصفها «جواهر لال نهرو». وهي ناد ميت لا يملك ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً. وأما السحر الثالث فهو الفزع الأكبر من هبل الأعظم أمريكا. وسر الخوف بسيط، وهو أن كل طواغيت العالم

الأقزام يأخذون شرعيتهم من الطاغوت الأعظم العملاق، وكل العالم مبني على الشرك والطغيان. إننا في متحارجة صعبة ومعادلة تقترب من الاستحالة في حلّها. فلا نفهم أننا مسحورون عميت أبصارنا، ختم الله على قلوبنا، مرتهنون في شبكة سحرية في قبضة ملك الجان. وليس عندنا رقية نتعوذ بها. وكل الحبال الأمريكية نتوهم أنها أفاعي «الأناكوندا» يخيل إلينا من سحرهم أنها تسعى.

وقف جحا يوماً فصاح بالناس: احمدوا الله ياجماعة، قالوا: خيراً إن شاء الله، قال: لقد ضاع حماري اليوم، قالوا: ثم ماذا؟! قال: احمدوا الله أنني لم أكن على ظهره.

القادة والأتباع

في كتاب «تذكرة ذهاب وإياب إلى الجحيم» يذكر الضابط الذي اشترك في محاولة الانقلاب الفاشلة التي وقعت في قصر «الصخيرات» ضد النظام الملكي في المغرب، والقبور التي ضمّتهم عشرين سنة كفاتاً أحياء وأمواتاً، في مكان لا يعرفه إلا الملك والراسخون في الاستخبارات. يقول المؤلف في المواجهة الدموية التي جرت مع ضباط القصر الملكي جاءته الأوامر بالقتل فقَتَل. ولكن «توقع» الشيء غير «مواجهته» وممارسته، فعندما خرّ الضحية صريعاً يتخبط في دمه شعر الجاني في تلك اللحظة أنه «فقد شرفه». و«هملر» رئيس الجستابو النازي حينما كان يأمر بالقتل الجماعي كان سهلاً وبجرة قلم، ولكنه عندما أجهز على أحدهم في قبر جماعي يضم حوضاً من الجثث والدماء أصيب بنوبة إقياء حادة. واليوم لم يبقَ من أثر للسجن، فقد أزيل كما بني في غفلة عن أعين الناس، ويزور الناس المكان فيضيئون الشموع على أرواح الضحايا الذين قضوا في سجن «تزرمات» في المغرب. إنها عظة لجميع الأطراف أن المشاكل لا تُحل بالانقلابات ولا بالانتقام، ولا بدفن الناس تحت الأرض في القبور أو السجون، وأن بذور الكراهية في النهاية لا تحصد إلا نبات الأحقاد. والبلد الطيب

يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً. إن القارئ يتألم عن قبور الموت في تزرمات التي مات فيها معظم الضباط الانقلابيين في المغرب، ولكن لو جلس أولئك على سدّة الحكم هل سيكونون في رحمة النبي يوسف (عليه السلام) عندما قال لإخوته: لا تثريب عليكم اليوم؟ أم أنها عملة اجتماعية متبادلة؟ منذ عام 1945 كانت البلدية في مدينة هيروشيما قد وضعت لافتة تذكارية تحمل عبارة «لن نجعلهم يكررون الخطأ»، ولكنها غيّرتها حديثاً إلى عبارة أشد دقة «لن نكرر الخطأ». إنها آلية قاسية للنقد الذاتي. وفي معركة ستالينجراد كان المفوضون السياسيون من رجال الحزب الشيوعي يدفعون الشباب الروسي إلى الموت بمئات الآلاف. أولاً بزربهم في قطارات كالأنعام إلى الجبهة، ثم حشرهم في زوارق تحت قذف المدفعية والطيران الألمانيين لخوض مياه نهر الفولجا التي انقلب لونها إلى الأحمر القاني، ومن تردد أو حاول الهرب سارع «الرفاق» إلى قتله فوراً. ومن نجا من رصاص «الحزبيين» وقاذفات النازيين دفع إلى خنادق الألمان فحصدتهم الرشاشات، والأفراد القلائل الذين نجوا فحاولوا العودة من جدار النيران قتلهم «الرفاق» باعتبارهم خونة جبناء لم يموتوا بشرف في الدفاع عن مدينة ستالين. كانت معركة «ستالينجراد» جنازة مليونية، ومسالخ بشرية، وجنوناً مطبقاً، وعربدة للموت، وبحاراً من دماء، وجبالاً من جثث، وأنهاراً من دموع، وزوجات وأمهات تم الضحك عليهن بأنها معركة الشرف من أجل الوطن. كما تفعل الكثير من الأنظمة حتى اليوم فتحتفل بـ«عيد الشهداء» أو «الثورة»، وهي في الحقيقة أعياد التقدم بالقرابين والخيانة. إن ابراهيم (عليه السلام) لم يلغِ القربان البشري عبثاً، وموسم الحج كله يدور حول هذا الترميز.

كما أنه غير مفهوم وضد كل منطق أن من يفشل بالانقلاب يصبح خائناً وإذا نجح سُمّي بطلاً. ذكر الكولونيل «هيربرت سيلي» في رسالة كتبها إلى عائلته من الأتون عندما احتدمت حرب الشوارع في ستالينجراد: «إن دموعاً كثيرة ستنهمر اليوم في ألمانيا. طوبى لمن ليس مسؤولاً عن هذه التضحيات غير المبررة». واليوم مات ستالين باللعنات وهتلر بالانتحار، ولم يبقَ شيوعية أو نازية، وإنما ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. والسؤال من هو المسؤول وغير المسؤول عن هذه القرابين البشرية؟ هل هو ستالين وهتلر؟ هل هو الجنرال فون باولوس وتشيكوف؟ أم هم الجنود «الأدوات» التي تنفذ الموت بالأوامر؟ إن هذه المشكلة أقضت مضجعي منذ الصغر وأنا أسمع قصة جريمة مؤثرة كانت ترويها لي والدتي اشترك فيها أكثر من طرف. كان السؤال مَن هو المجرم؟ من ذَبح؟ أم من دلّ؟ أم من أعان؟ أم من خطط؟ وفي مذبحة «صبرا وشاتيلا» لم يباشر «شارون» القتل بنفسه، ولكنه طوق بيت الدجاج، ثم فتح كوة فيه دخل منها الثعبان الماروني، ثم جلس في الظل بريئاً يسمع فحيح الأفاعي ونقنقة الدجاج. وعندما همّ اليهود بقتل المسيح وقف «بيلاطس» يغسل يديه ويقول: إنني بريء من دم هذا البريء، فرفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً. إن أعظم مشكلة إنسانية هي علاقة الإنسان بالإنسان في مجتمع بني خطأ على الهرمية والتراتبية والأوامر، وأعظم مرض إنساني قاطبة هو خلل هذه العلاقة بين تسلط واستكانة. حينما ينفرز الناس إلى شريحتين تصعد فيها قلة إلى قطب «الاستكبار» وتنهار الأكثرية إلى درك «الاستضعاف». ويزداد الفقراء فقراً وتعاسة وذلاً، والأغنياء غنىً ونفوذاً وفسقاً، ويمرض الاثنان بالتخمة والمجاعة،

ويصاب المجتمع كله بالداء الفرعوني في ثنائية مانوية: الأقوياء أمام الضعفاء، والعبيد تحت السادة، والجبارون فوق الأذلاء، والمستكبرون يسوقون المستضعفين. إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً. إن تضخم الذات في حوض اجتماعي مشترك يدفع بقية «الذوات» إلى الانكماش والضمور. وعندما ترفع الصور والتماثيل في الساحات العامة لفرد واحد لا يبقى أمة. وكارثة 1967 كانت بسبب قرار من رجل واحد لم يُرِهم إلا ما رأى وما هداهم سبيل الرشاد. وعندما تختل رافعة القوة في المجتمع فإن صعود شريحة معناه مصادرة القوة من البقية. وانتفاخ جيوب البعض يعني خواء جيوب الكثيرين. وعندما يرتفع مليونير إلى سدة الثراء فإنه يعني دفع بقية الرقم دون المليون من الطبقة الوسطى إلى حزام الفقر. وكما في الميزان أو «مراجيح» الأطفال، فإن هبوط كفة أو طرف يعني تلقائياً صعود الطرف المقابل. وكما يقول «الغزالي» في «الإحياء» إن المال عندما يسقط في يد يكون قد طار من يد أخرى، ليتحول المجتمع إلى مغارة لصوص يسرق كل واحد من جيب الآخر. ويصبح المال دولة بين الأغنياء، ويفقد وظيفته كـ«دم» في «الشرايين» الاجتماعية. مع هذا فإن التاريخ يصنعه الأفراد والنخب، وسارت الأكثرية دوماً خلف الأقلية المبدعة بآلية المحاكاة والتقليد. وكما يقول «ابن خلدون» في «المقدمة» إن المغلوب يقلد الغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده لما يستولي عليه من توهم «كمال» الغالب. يقول «ابن خلدون»: «والسبب في ذلك أن النفس أبداً تعتقد الكمال في من غلبها وانقادت إليه... لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي إنما هو لكمال الغالب... ولذلك ترى أن المغلوب يتشبه أبداً بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه، بل وفي

سائر أحواله. وانظر ذلك في الأبناء مع آبائهم كيف تجدهم متشبهين بهم دائماً، وما ذلك إلا لاعتقادهم الكمال فيهم». الديانات الكبرى جاء بها أنبياء، وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم. وولادة البلشفية تمت على يد لينين في يوم عسر. وتأسيس الحزب النازي كان في مدينة نورمبرغ بجهود هتلر. ويعتبر «ميشيل عفلق» الأب الروحي لحزب البعث. ومؤسس «الإخوان المسلمين» كان شاباً صغيراً هو حسن البنا تم اغتياله بسرعة. وأسس المدرسة الفلسفية «الأكاديمية» أفلاطون. وأعدم «أنطون سعادة» رئيس الحزب القومي السوري دينامو الحزب وعقله النابض. وترك «أتيين دي لابواسييه» مخطوطة من أعظم ما كُتب في تحليل الاستبداد بعنوان «العبودية المختارة» ، ومات بعمر الثلاثين. ويدين وجود حزب التحرير الإسلامي بدرجة كبيرة إلى «تقي الدين النبهاني» وكتبه العشرين التي تركها. ويعود الفضل لقيام دولة الموحدين في المغرب إلى «محمد بن تومرت». ويعتبر «برتراند راسل» في كتابه «النظرة العلمية» أن كل النهضة الحالية تدين ربما إلى مائة دماغ، ولو تم اغتيالهم لما بزغت عصور التنوير، ولعل أهمهم في الواجهة هو «غاليلو». ولم تكن الثورة الإيرانية لتنجح لولا شخصية «الخميني». وكتب «توماس كارليل» في مقاله عن «الأبطال وعبادتهم والبطولة في التاريخ» عام 1841 أن: «تاريخ العالم ليس إلا سيرة الرجال العظماء». وكرر «إمرسن» في مقالة بعنوان «التاريخ»: «ليس هناك تاريخ بالمعنى الدقيق للكلمة، هناك فقط سير شخصية». ينطبق هذا على تأسيس الديانات، وبناء المدارس الفلسفية، وقيام الأسر الحاكمة، وتحول مصائر الدول بمعارك حاسمة على يد قواد عسكريين. هكذا ولدت البوذية تحت الشجرة التين على يد راهب،

وأصبح اسم «سقراط» منارة للهدى، وعمرت الدولة الإيلخانية في إيران أكثر من قرن على يد «هولاكو» مدمر بغداد. وانتهت الدولة الساسانية عام 333 قبل الميلاد في معركة أربيلا على يد «الإسكندر الكبير». كما قرر مصير قرطاجة عام 146 قبل الميلاد بعد هزيمة «هانيبال» في معركة «زاما». كذلك فإن الفرد لا يحكم لوحده لولا «النخبة» التي تأتمر بوحيه والرعية التي تنصاع. كما أن الديانات لم تنتشر بدون الحواريين. ولم ينتصر «سكيبيو» الأفريقي على «هانيبال» بدون تطوير أداة الحرب من خطط وأدوات وجنود. والطاغية عندما يمسك رقاب الأمة لا يستطيع أن يفعل هذا بمفرده، بل لا بد له من رهط حوله يسبّحون بحمده بالعشي والأبكار، وزبانية يربطون مصيرهم بمصيره. كل واحد منهم له ذيل ضخم من الأتباع، وهذه الحاشية من الأتباع تزداد طرداً كلما اتجهت إلى الأسفل بحيث تتحول في النهاية إلى شبكة جهنمية تربط الأمة كلها إلى مقود العبودية. يقول «أتيين لابواسييه» في كتابه «العبودية المختارة»: «هم دوماً أربعة أو خمسة يبقون الطاغية في مكانه، أربعة أو خمسة يشدّون له البلد كله إلى مقود العبودية. في كل عهد كان ثمة أربعة أو خمسة تصيخ لهم أذن الطاغية. يتقربون منه أو يقربهم إليه ليكونوا شركاء جرائمه وخلان ملذاته وقواد شهواته ومقاسميه في ما نهب. هؤلاء الستة ينتفع في كنفهم ستمائة يفسدهم الستة مثلما أفسدوا الطاغية، ثم هؤلاء الستمائة يذيلهم ستة آلاف تابع يوكلون إليهم مناصب الدولة ويهبونهم إما حكم الأقاليم وإما التصرف في الأموال. ما أطول سلسلة الأتباع بعد ذلك. إن من أراد التسلي بأن يتقصّى هذه الشبكة في وسعه أن يرى لا ستة آلاف ولا مائة ألف، بل أن يرى الملايين يربطهم بالطاغية

هذا الحبل مثل جوبيتر، إذ يجعله هوميروس يتفاخر بأنه لو شد سلسلته لجذب الآلهة جميعاً». وفي سورة النمل إشارة خفية إلى هذه المافيا التي تمسك البلد عادة: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ﴾ (النمل: 48). ويذكر إدوار سعيد في كتابه «خارج المكان» هذه الظاهرة أيضاً في مستوى الطلبة وجو المدارس حينما تبرز إلى السطح بدون تعيين من الإدارة أو انتخاب من الطلبة شخصيات من المجهول تشكل زعامات طلابية من خلال مواصفات ليست هي الأفضل عادة، وكيف أنهم يتحولون تلقائياً إلى مجموعات متنافسة يسيطر عليها زعماء من خلال تراتبية خاصة تعتمد ليس صفات الرحمة والاجتهاد، بل الشقاوة وقوة البنية الرياضية و«البلطجية» وعدم التورع عن العنف وليّ أكواع الآخرين. إن هذا التميز وانقسام الطلبة إلى «شلل» يقودها في العادة الطلبة الأشقياء أمر معروف، وما يحدث في السياسة يشبه هذا، فيتقدم ليس الأتقى، بل الأقسى والأخبث والأجرأ على الشر. وهذه الظاهرة تتكرر في السجون حيث يهيمن على «العنبر» في العادة عتل زنيم، وفي أحد المصحات العقلية كادت المجموعة أن تقضي على النزيل الجديد لولا تدخل «الزعيم» الذي يتمتع بالعادة بجسم ثور ودماغ ضفدع. ويروي «فيكتور فرانكل» في كتابه «الإنسان يبحث عن المعنى» تجربته من معسكرات الاعتقال أن المهجع كان يسيطر عليه «الكابو»، وهو في العادة من نفس المجموعة ولكنه الألعن بسبب تودّده إلى قيادة المعسكر. وفي العادة فإن من يبطش بتنظيم ما هو من نفس التنظيم. والذي أسلم المسيح إلى محكمة «السانهدرين» كان يهوذا الأسخريوطي حينما قال: أيهم أقبِّله سيكون هو. ولم تنشب عداوة بين بلدين كما حصل مع بلدين

عربيين متجاورين وبنظامين متشابهين، حذو القذة للقذة، مثل التوأم من بيضة واحدة ونفس الرحم إلى درجة أن جوازات السفر التي تصدر في البلدين مفتوحة على العالم كله إلا البلد الشقيق. إنها أعظم من مأساة. كما أن من بطش بالإخوان المسلمين كان منهم. والذي فضح التنظيم العسكري لهم في بلد عربي كان من بين صفوفهم. وفي العادة عندما يستلم في الغربة شخص منصب المسؤولية يضحي بأولاد بلده أكثر من غيرهم حرصاً على نظافة سمعته من التحيز لبني قومه. وهو إنذار لكل من اجتمع بأهل بلده في بلد بعيد أن يبني علاقاته هناك على الجهد والإنتاج والعلاقات الإنسانية أكثر من القربى والعنصرية. يحاول «دين كيث سايمنتون» في كتابه «العبقرية والإبداع والقيادة» فهم هذا السحر الخاص «الكارزما» عند بعض الأشخاص بحيث يستقطبون جماهير تمحضهم الولاء، كما قاد «الخميني» الجماهير إلى الثورة في إيران، وكما بقي «تشي غيفارا» في الذاكرة كمناضل للحرية، أو غاندي الذي هزم الإمبراطورية البريطانية بدون طلقة واحدة. لقد اصطدم بظاهرة عصية على الفهم، ويبدو أن خاصية «الكارزما» التي ترجمت بـ«الشخصية الساحرة أو الآسرة» بأنها: «لاعقلانية لا تذعن لتطبيق المنهج العلمي». وعندما قام «تشارلز سيل» (C. Cell) بتطبيق قياسه المكون من 11 نقطة حول 34 من زعماء الدول المعاصرين، كان الزعماء الذي ركبوا القمة من أسوئهم مثل موسوليني وهتلر، ونزل إلى القاع أشهر رئيس ألماني هو «أديناور» عند النقطة صفر، وفي الوقت الذي حصل الطاغية «سوكارنو» على 9 نقاط حصل تشرشل على نقطتين. ويروي «برتراند راسل» عن «برونو موسوليني» ابن الطاغية تجربته حينما كان يسلط النيران على قرى

التعساء في الحبشة من طيارته «كان العمل مسلياً للغاية، وعندما اندلعت ألسنة النيران في سقف زريبتهم خرجوا يتواثبون ويتراكضون كالمجانين وأحاطت دائرة النيران بنحو خمسة آلاف حبشي فلاقوا حتفهم. كان المكان كالجحيم». جاء في الحديث أن الله عاتب رجلاً أنه أحرق قرية للنمل أن أحرقْتَ أمةً من الأمم تسبح الله. إن العمل الاجتماعي مشكلته أنه لا ينجز من شخص واحد ولا يمكن، بل يتوزع عبر سلسة من الأفعال ينجزها أناس لا يشعرون بخطورة ما يفعلون، كما يحدث في الحروب الحديثة التي تقوم على كبس الأزرار لأناس يمارسونها خلف شاشات، فلم تعد في صورة المذبحة القديمة التي كانت تخوضها «اللجيونات» الرومانية بالسيف القصير. سأل رجل من الجلادين معتقلاً سياسياً: كيف تنظرون إلى مهنتنا؟ أجاب: هناك شهادة فيكم. ذعر الرجل وقال: كيف؟ قال: لقد وصفكم القرآن ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ (القصص: 8). اضطرب الرجل وهتف: ولكن هذه مهنتي وأعيش منها. قال: أن تفعل أي شيء أفضل لك من كتابة التقارير الكاذبة أو جلد العباد أو اقتحام بيوت الناس بدون مذكرة قضائية. إن ستالين قضى على بوخارين، وهو الرفيق الكبير، بإيماءة من عينه وكلمة من فمه، ولكن من نفذ الجريمة كان رجل الاستخبارات بيريا، ثم أعدم بدوره عندما دالت دولة ستالين.

جدلية المستضعفين والمستكبرين

في السبعينات من القرن الفائت كانت حمّى الانقلابات العسكرية الثورية ناشطة في العالم العربي. وفي عام 1971 وقعت محاولة انقلاب عسكرية فاشلة في بلد عربي، حيث احتجز في ضربة واحدة مئات الشخصيات التي تمثل «دماغ البلد»، وكانت فرصة ممتازة لضابط مليء بالعقد النفسية أن يمارس طغيانه ويتمتع بالضحايا. فعندما اقترب منه صديق له وكان بين الأسرى عانقه ثم أفرغ الرصاص في بطنه فأرداه قتيلاً. وعندما لاحت منه نظرة ليكتشف غريمه رئيس الدرك أخرجه من صف الرهائن ليقول له: أهلاً بك إن الدنيا صغيرة، ثم يأمر بإطلاق الرصاص عليه. وعندما يخبره منفذ الجريمة أنه ما زال به رمق، يضرب صدغه بقدمه ويقول: هنا مكان القتل، وإذ تدوي الطلقة مفجرة الجمجمة يرتعش الضحية ثم يهمد نهائياً. وفي كتاب «تذكرة ذهاب وإياب إلى الجحيم» لمؤلفه «محمد الرايس»، وكان يومها ضابطاً تحت أمرة جبار الانقلاب، فيؤمر بقتل رجل بريء. يقول «الرايس»: «ثم استدار نحوي ومسدسه مصوب إلى صدري ثم أصدر إليّ الأمر التالي: الرايس اقتل هذا الخائن. تردّدت وحسبت أنني أحلم، وأنها مجرد تهيؤات لا أقل ولا أكثر، لكن «أعبابو» كرر الأمر

بلهجة تهديد وقد صوب الماسورة نحوي، والتمعت في عينيه شرارة حقد ورعب. وكان ينتظر رفضي ليرديني قتيلاً دون شفقة أو رحمة. نظرت إليه نظرة المتسول الذي ينتظر صدقة، وكانت صدقتي التي أنتظرها من هذا الإنسان البشع والمنعدم الضمير هي تراجعه عن قراره القاسي. والحال أنه أصر بألحاح وهدّدني بالقول: حذار، لا تدفعني لكي أقتلك أيضاً. هذا الإنذار هز كياني فطفا إلى السطح جبني الذي طالما أخفته أنفتي الزائفة، واستولى عليّ جبن رهيب وقاهر، وتاهت نفسي في سراديب الخوف من الموت في عز شبابي. اهتز جسدي كله وأنا أفكر بأنني سأقتل إنساناً لا شك أنه بريء وأعزل على الخصوص. لم يكن أمامي اختيار، فإذا ما أنا رفضت تنفيذ هذا الأمر الوضيع سيقتلني أعبابو لا محالة، ويقتل القبطان أيضاً. وإذا قتلته ستظل الجريمة عالقة بي إلى الأبد. حتى لو كانت فعلتي غير إرادية وإجبارية تحت تهديد أعبابو فستظل جريمة وعملاً غير عادل ولا إنساني في حق شخص اتهمه المتآمر الرهيب بأنه خائن. كنت أفكر في ما سأقدم عليه. اختلطت أفكاري وتشوشت ذاكرتي مع تسارع الأحداث ورعب الفعلة. لم أستطع أن أقاوم طويلاً إحساسي الإنساني الذي منعني من القيام بما أُمرت به، وانتصر الجانب المدنس فيَّ ودفعني إلى الضغط على الزناد. حتى إن دويّ الطلقة فاجأني. خرَّ القبطان صريعاً وسقط معه ليس فقط كل ماضيّ الذي كان مصدر عزتي وافتخاري تاركاً وراءه إحساساً بالعار، بل سقط معه أيضاً مستقبلي. أصبحت إنساناً محطماً لأن «أمحمد أعبابو» نزع مني في رمشة عين أعز ما لدي: شرفي». إن القرآن الكريم يذكرنا بواقعة مشابهة عندما يهم فرعون بقتل موسى ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى

وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ (غافر: 26)، ولكن القرآن يخلد الواقعة التاريخية في سورة كاملة تحمل اسم صاحبها (سورة المؤمن) لرجل واحد يوازي بموقفه حقبة تاريخية بأكملها بين جموع فاسدة باعت ضميرها للشيطان عندما يقف فيعلن رأيه: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ﴾ (غافر: 28). ولكن السؤال: من أين تأتي القوة النفسية لهذا فيعترض على حكم الإعدام مع أنه لم يُدعَ لفعله، فلا يسكت على الظلم، في الوقت الذي ينفذ «محمد الرايس» ما أمره به «أعبابو»، فيقتل رجلاً بريئاً لأنه أمر بذلك. إن هذا يحتاج إلى تفكيك سيكولوجي اجتماعي. ينقسم الناس عند الفيلسوف البريطاني «برتراند راسل» إلى قادة وأتباع خاصة في الظروف الخطيرة التي تتطلب الحسم في اتخاذ القرارات. وهناك طراز ثالث من: «الذين ينسحبون ويجدون في أنفسهم الشجاعة الكافية لرفض الإذعان». ولكن الانسحاب بذاته يمكن السادة المسيطرين أن ينظروا إلى المادة الإنسانية: «نفس النظرة التي تعلموها بالنسبة لآلاتهم ويرون فيها شيئاً لا إحساس فيه»، ولكن نظرة من هذا النوع كفيلة بإنتاج عصر مرعب: «تغلب عليه صفة من اللاإنسانية المجردة تفوق كل ما عرفه العالم في عصوره السابقة». إن القيادة تختلط بالعبقرية والإبداع كما جاء ذلك في الدراسة التفصيلية التي تقدم بها «دين كيث سيمنتون»، ولكن العبقرية لا تعني القيادة والعكس صحيح، فلا يشترط في القائد التميز والإبداع. وأسوء الأنواع هم العسكريون عندما يتحوّلون من مواقعهم التنفيذية إلى مراكز التفكير كما لو أدخلنا خلية عضلية أو عظمية لتحتل موقع خلية عصبية. إن الدماغ محاط بأربعة أنواع من الحماية بين قحف عظمي وعضلات حافظة وأغشية مغلفة ثم الماء الذي تسبح فيه المادة

العصبية، أما الدماغ بحد ذاته فهو في غاية الهشاشة. ولكن أن تزحف خلية عظمية إلى داخل الدماغ فهو وضع سرطاني. وفي المجتمع يحدث نفس الشيء عندما يقتحم العسكر مراكز التفكير ليفرضوا التوجيه. إذا كان العباقرة يتميزون فليسوا بالضرورة قادة. وكان «هنري كفنديش» (H.Cavendish) مثلاً (الذي اكتشف الهيدروجين، وقام بحساب كتلة الأرض) لم يكن يخاطب النساء، ولم تزد كلماته لأي رجل عن بضع كلمات، وكان له مدخله الخاص إلى المنزل، وقد بنى هذا المدخل بحيث كان يمكنه الذهاب والإياب دون الالتقاء بأحد، في الوقت الذي كان هتلر خطيباً مفوهاً يسحر الألباب ويتلاعب بمشاعر الجماهير. جاء في مذكرات «رودولف هيس»: «حضرت يوماً اجتماعاً شعبياً كان يتحدث فيه هتلر، وكانت تلك المرة الأولى التي كنت أبكي وهتلر يتكلم. كان حديث هتلر أشبه بالميلوديات الخالدة، يربط بين ما هو قديم وجديد، والناس تعتصرهم الأحاسيس الجياشة، مرة تصعد بنا كلماته إلى السماء وتارة تهبط بنا إلى الجحيم، وغالباً كلاهما معاً، وكانت المتعة في الألم والخوف والبهجة ممزوجة بأعجوبة. هكذا كان يتكلم الزعيم». كذلك وحسب إحصائيات مجلة «در شبيجل» فإن القادة العسكريين كانوا أقرب إلى الحمق منهم إلى الذكاء. وفي الدراسة التي أجرتها «كاثرين كوكس» عن القادة الـ 109، كان أقلهم ذكاء الـ 27 من القادة العسكريين. وفي القرآن الكريم تم تشريح مشكلة «الأتباع» في العديد من المواضع، حيث يتبرأ كل طرف من الآخر. ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ (البقرة: 166–167). وفي سوة سبأ

نرى مسرحية كاملة «للظالمين» ونفاجأ أن شريحة الظالمين مكونة من لونين من الناس كل فريق يلقي اللوم على الآخر: المستضعفون والمستكبرون. ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ (سبأ: 31). إن كلمة «ظالم» توحي بأنه عمل يوقعه شخص بآخر، وهو فعلاً كذلك بالمعنى الفلسفي عندما يوقع الإنسان الظلم بنفسه. فهذا الانشطار بين الإنسان ونفسه هو جذر المشكلة. وعندما يتشكل وسط الاستضعاف فإنه يقود مثل الانشطار النووي إلى سلسلة مضاعفات. فالاستضعاف يولد الاستكبار. وكلما استسلم الأتباع أكثر زادت شراسة الزعماء وشعورهم بأنهم فوق الخطأ ومعصومون. إن «الاستكبار» حالة ورمية غير صحية لأنها نفخ وحقن «ذات ضعيفة» بصفات كبيرة كما أن العكس صحيح. فمع تفريغ القوة من الشخص المتورم يحيله إلى كائن ضامر. وهذا التردد أو الانقلاب بين الضعف والتجبر هو مؤشر فقدان التوازن وغياب الصحة النفسية. ونحن نعرف هذه الظاهرة المرضية في العديد من المستويات. ففي مستوى الفيزياء نعلم أن تدفق التيار الكهربي هو شحنة سلبية، ولكنها تردد بين قطبين موجب وسالب. كما أن الصورة الفوتوغرافية تبدأ من صورة سلبية سوداء داكنة قبل «تحميضها» وإخراج صورة ملونة منها. وكذلك في مرض «الاستكبار»، فقد توحي مظاهر القوة بالجمال كما نادى فرعون في قومه ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ﴾ (الزخرف: 51-52). كان موسى في نظر فرعون شخصاً تافهاً عيياً في النطق، أما هو فهو الذي يملك المقدرات والمصائر ويحسن النطق، فيقول ما

علمت لكم من إله غيري، وما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد. وفي علم النفس نواجه في عالم «الجنس» مرض السادي والمازوخي. وفي شمال ألمانيا توجد مؤسسة عملاقة في مدينة «فلنسبورغ» تحصّل المليارات من الماركات سنوياً من نشر بضاعة الجنس على كل المقاييس والأذواق، ومنها توريد أدوات التعذيب من سلاسل وأحزمة وسياط، ذلك أن السادي لا يصل إلى الذروة إلا بممارسة التعذيب. ويذكر «كولن ولسن» في كتابه «أصول الدافع الجنسي» عن مرض «النيكروفيليا» و«الفتيشية» الشيء العجيب من ممارسة اللذة مع الجثث أو الإثارة برؤية الملابس الداخلية. والسادي تعريفاً هو الذي يتهيج جنسياً عندما يلحق الأذى بالآخر. كما أن المازوخي لا يتمتع جنسياً ما لم يُجلد ويتألم. ونحن نعرف أن هذا الخلل النفسي هو وجهان لعملة واحدة، فالسادي هو مازوخي، وبالعكس. وتصلح هذه القاعدة لعلم السياسة، فالجبارون ضعاف لأن المحتوى النفسي الداخلي كاذب غير حقيقي، كما أن سطوتهم لا تزيد عن أوهام، والديكتاتورية شجرة هشّة لأنها نبتت في جو اللاشرعية والجريمة، والكلمة الخبيثة شجرة خبيثة تسقط في النهاية تحت ثقلها الخاص فيكون انجعافها مرة واحدة. إن الاستضعاف والاستكبار عملة مزدوجة وطاقة تبادلية مثل توتر الكهرباء بين السالب والموجب، أو مخطط القلب الكهربي من ذروة فوق خط السواء وموجة أسفل منه. وهذه الحركة النواسية المزدوجة التبادلية هي سر المرض برمته. وهو معمم داخل النفس الواحدة وانتهاءً ببناء عالم ثنائي الأقطاب مشوه الصورة مريض الأداء. إن منظر الشرطي والسائق في العالم الثالث يفضح هذا المرض. لنتأمله وهو يوقف سائقاً مضطرباً جاف

الريق ممتقع القسمات وهو يقدم أوراقه، وبين الشرطي وهو يتقدم شامخ الرأس واثق الخطا مباعداً بين رجليه، يطالب المجرم بتقديم أوراقه. ومن الغريب أن المنظر قابل للتكرار بقلب الأدوار وبفارق تغيير الملابس، أي القشرة الخارجية لا أكثر. فعندما نحشر الشرطي في مقعد السائق ونلبس السائق قبعة الشرطي فإن المنظر يتكرر بحذافيره في شاهد واضح أن «الوحدة الإمراضية» واحدة بسبب خلل رافعة القوة. فالمستكبر في أعماق نفسه هو مستضعف، والعكس بالعكس. وباتجاه ثانٍ عندما يتقدم الشرطي إلى الضابط الأعلى منه فإنه يصبح مستضعفاً، وهو كان قبل لحظات مستكبرا أمام السائق. كما أن الضابط أمام الجنرال يصبح حقيراً. أما الجنرال أمام الحاكم الأعلى فهو بين يدي الإله لا يتكلمون إلا من أذن له وقال صواباً. هذا المرض يتخلل كل المستويات بين الشرطي والسائق، والرجل وزوجته، والموظف والمراجع، وبين ضابطين بفارق نجمة واحدة ما لم يكن هناك خلل من نوع ثانٍ، فقد يكون هناك ضابط بنجمة واحدة ولكنه يحل المشاكل بأفضل من جنرال كبير، أو ممرضة في الجناح أهمّ من رئيس قسم الجراحة بكل ثقله العلمي بسبب أنهم مدعومون بشبكة جديدة تمسك بالبلد من عائلة أو طائفة أو قبيلة أو حزب، فهنا تتبدل الحسابات من جديد وتدخل مفردات جديدة في المعادلة. وينتقل هذا المرض إلى مستوى نوعي جديد بين الحاكم والأمة أو بين دولتين. فتُمسح الأمة «المستضعفة» لصالح الحاكم الفرد «المستكبر»، أو بين دولة مستكبرة مثل أمريكا ودولة ضعيفة من العالم الثالث. المرض كما نرى إنساني عميق الجذور خبيث الطبيعة، مثل السرطان الذي يتظاهر بالتمرد الخلوي في الوظيفة والمكان، فعندما تترك خلايا

الثدي مكانها لتنشط في الدماغ، أو تضرب خلايا الكولون بإعصارها في الكبد، كذلك يحدث الخلل الوظيفي الاجتماعي والعالمي، فمن كانت وظيفته الحراسة ينقلب إلى قائد، ومن كانت مهمته الأمن ينقلب إلى جهاز رعب، ومن كان في القاع يصبح له جناحان فيطير إلى السقف. إن الإنسان عندما يمشي على رأسه يفقد رأسه ورجليه معاً. ومن نتائج هذا الخلل النفسي أن الانشطار الداخلي هو تفكك الشخصية لتتحول إلى شخصيتين (جايكل وهايد) في فصام نكد ومرض بدون علاج، لأن صاحبه آخر من يدرك أنه مريض، كما في علّة قصر القامة، فهي علّة وراثية غير قابلة للعلاج ولو بلبس بنطلون طويل. وهنا تبرز إلى السطح ثلاث ظواهر على مستوى الفرد: «الإنسان العصا»، أو «إنسان الفكرة»، أو «إنسان المبادرة». الإنسان العصا أو البوق أو المسدس هو من يؤمر فيطيع بدون تردد، وهو يقول: حاضر سيدي، حتى لو أمر بهدم الكعبة كما فعل الحجّاج. وفي جيوش العالم العربي يستفتح الجندي أول أيامه بحفظ القاعدة الذهبية «نفذ ثم اعترض». وهكذا وتحت هذا الاغتيال المنظم للعقل والإرادة أمكن تحويل الجنود إلى «روبوتات»، والجيوش إلى «مطارق لحمية» خرساء عمياء، تقوم بالتهام الجيران، واستباحة الأمة، وهدم المدن بالصواريخ، ورش الغازات السامة على المواطنين ليتساقطوا كالذباب، ودفن الناس في قبور تحت الأرض عشرات السنوات كفاتاً أحياء وأمواتاً في سجون خاصة كما فاحت من رواية «بطاقة ذهاب وإياب إلى الجحيم». وإذا كانت بعض الدول العربية لم تصل إلى هذه الدرجة من الشراسة فليس بسبب الحصانة، بل لغياب ظروف إبرازها إلى السطح. وكل ذلك بسبب إنتاج نموذج الإنسان المريض «المستضعف المستكبر».

أما «إنسان الفكرة» فهو الذي تحررت إرادته، فيطيع في الطاعة ويعصي في المعصية، ولا ينفذ إلا ما يقتنع به، ويناقش الأوامر وصلاحيتها. ولكن «إنسان المبادرة» هو من نوع مختلف، وعندما تأتي الأوامر بهدم الكعبة يقول: لن أقف مكتوف الأيدي، ولا يمكن أن أبقى على قيد الحياة وأنا أرى ذلك. وفي كتاب «زيارة الجحيم» يسأل الجنرال «أوفقير» ضابط الانقلاب: «كان عليكم أن تشغلوا دماغكم، فأنتم ضباط ولستم حميراً». فكان جوابه: «لقد نحتوا في أذهاننا الطاعة العمياء والخضوع المطلق وفي كل لحظة دونما سؤال أو رفض». من أجل تعرية هذه الآليات النفسية قمت بتجربة على طبيب كان صديقه في زيارته سألته: لو أُعطيت مسدساً ووُضِع على صدغك مسدس، ثم طُلب منك، تحت التهديد بقتلك، قتلَ هذا الذي أنت في ضيافته ما كنت فاعلاً؟ فوجئ صاحبي بالسؤال، فتردد بعض الشي ثم اعترف بأنه سيقتُل، إلا أنه اكتشف نفسه قد تحول إلى مجرم. عندها تدفق من فمه سيلٌ من المبررات ليس آخرها أن الله سيغفر له لإنه «مُكْرَه». هنا أدركت أن هذا الصنف من الناس ليس بالقليل ولا النادر، وأن نماذج «محمد الرايس» و«أعبابو» موجودة بكثرة بأسماء مختلفة، وأن عصر الظلمات السياسي في العالم العربي تحصيل حاصل.

والآن بعد هذا الاستعراض المطول تعرض مسألة نفسها على النحو التالي:

المخاض الكوني

في عام 249م أحاط الرعاع بابنة أحد أعضاء المجلس البلدي الهامين في مدينة الإسكندرية لأنها كانت تحمل أفكاراً خطيرة، فهجموا عليها فحطموا أسنانها ثم جمعوا حطباً أوقدوا به ناراً عظيمة ثم طلبوا منها التوبة عن الأفكار التي تعتنقها وإلا كان مصيرها النار، فألقت المرأة نفسها في النار فاستراحت وأراحت. ووقف القوم يتأملونها بمتعة وهي تُشوى ببطء على النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود، وهم على ما يفعلون بهذه الشهيدة شهود. روى هذه الواقعة المؤرخ «أويسبيوس»(Eusebius) في كتاب «تاريخ الطب». وبعد استشهادها بعشرة قرون، في القرن الثالث عشر للميلاد، بدأت شخصيتها الثقافية تنتشر عبر أوروبا. وفي عام 1634 أصبحت «أبولونيا» (Apollonia) قديسة يتشفع بها الناس لمعالجة وجع الأسنان.

هذه القصة ليست الوحيدة في التاريخ الإنساني التي تحكي حماقة الجنس البشري وجدلية القوة والفكرة. فقد تم افتتاح القرن السابع عشر بنار متوهجة أنارت أفق أوروبا حينما أُحرق الفيلسوف الإيطالي «جيوردانو برونو» في 17 فبراير من عام 1600 حياً في روما وعمره 52 سنة، بعد اعتقال مضنٍ دام ثماني سنوات في الفاتيكان،

والخضوع لكل أنواع الإذلال والتحقيق الاستخباراتي ليتم اصطياده برأيه الكوسمولوجي عن كون بدون حدود ومجرات لانهائية تتزاحم في الملأ العلوي. قال الرجل: «الأرض ليست مركز العالم ولا الشمس، وفي ما وراء العالم الذي نراه عوالم أخرى إلى ما لا نهاية، وربما كانت هناك كواكب كثيرة تسكنها كائنات حية ذكية، فهل مات المسيح من أجلهم كذلك؟». وفي الوقت الذي أعادت الكنيسة الاعتبار لـ«غاليلو» حرمت منه «برونو» حتى اليوم.

وفي الثالث من نوفمبر 1411م اعتُقل المصلح الديني «جان هوس» (Jan Hus) التشيكي، وأُخضع لحفلة تحقيق جهنمية من أجل كتاباته، وأُدين في 6 يوليو 1415م بسبب ثلاثين جملة اعتُبرت «هرطقة»، وحُكم بأن يُحرق «حياً»، ونُفذ الحكم في نفس يوم إصداره.

وفي 27 أكتوبر 1553 أدين الطبيب الإسباني «ميشيل سرفيتوس» (Michel Servetios) مكتشف الدورة الدموية الصغرى، بسبب قوله بالتوحيد وتعميد البالغين، وكان خلف إصدار الحكم «كالفن» المصلح الديني في سويسرا، ولم تشفع له توسلاته في تحويل الحكم إلى الشنق، فأحرق «حياً» ولم يرمش لكالفن جفن.

وفي 21 آذار 1556 كان المصلح الديني البريطاني «توماس كرامر» (Thomas Crammer) «أسقف كانتربري» وأول مترجم للإنجيل إلى اللغة الإنكليزية يضبط على آرائه الخطيرة في الإصلاح الديني ويساق إلى المحرقة ليشوى على نار هادئة.

وكانت احتفالات حرق الهراطقة في «بلد الوليد» (Valadvalid) بحضور الملك فيليب الإسباني أمراً روتينياً. ويحصي فولتير إحراق

ملايين الناس من أجل أفكارهم بدعوى السحر. وكادت أم الفلكي الألماني «كبلر» أن تنتهي مشوية على الحطب مثل أي فروج. في الوقت الذي كانت الكنيسة تبيع تذاكر لدخول الجنة. وبقيت أوروبا لألف سنة تعالج السعال الديكي بلبن الحمير، وتطارد القطط والساحرات وتحرقهم مع الكتب في الساحات العامة. وحسب تقديرات مجلة «در شبيجل» الألمانية فقد أحرق ما بين عامي 1450 و1750م مليون امرأة بتهمة السحر، إلى درجة أن يدلي رأس الكنيسة الكاثوليكية البابا البولوني «كارول فويتايلا» (Karol Wojtyla) يوحنا بولس الثاني (Jean Paul II) بهذا التصريح: «إن ما حدث في تاريخ الكنيسة عار كبير. كيف يمكن أن تنتهك حقوق الإنسان على هذه الصورة من الوحشية باسم الدين؟ كيف يمكن أن تمارس هذه الألوان من العنف في حروب دينية تشن ومحاكم تفتيش تصب العذاب على البشر باسم الإيمان صباً؟ إن ما فعلته محاكم تفتيش العصور الوسطى كان التمهيد الفعلي لقيام أنظمة «توتاليتارية» (Totalitarism) في القرن العشرين، وأنظمتها القمعية من نموذج «الجستابو» (Gestapo) النازي، وجهاز الاستخبارات الـ (K.G.B) الشيوعي، و«الاستازي» (STASI) الألماني.

وبقي السجل الأسود للكتب الممنوعة في الكنيسة ساري المفعول حتى الخمسينات من القرن العشرين قبل أن يفتح الفاتيكان الباب للاطلاع والنقد لـ 4500 ملف سري تعود لمحاكم التفتيش واستخبارات الكنيسة. ولكن سجل الكتب الممنوعة ما زال ساري المفعول في أقسام من العالم العربي حتى إشعار آخر.

وقصة التضحية بالإنسان من أجل أفكاره ليست امتيازاً للكنيسة، بل هي مرض إنساني عام نجده في كل الثقافات. وفي سورة إبراهيم بانوراما لكل الرسل ولكل الأقوام الذين وضعوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنّا كفرنا بكم وإن لم تنتهوا عما تقولون لنرجمنكم.

هكذا فرّ أرسطو من أثينا بجلده إلى آسيا الوسطى. وضحت أثينا عام 399 قبل الميلاد بأعظم فلتة عقلية في التاريخ البشري سقراط، وهو شيخ مسن بدعوى أنه يفسد عقول الشبيبة بفكرة الوحدانية. فبكت زوجته وقالت: ولكنك بريء؟ قال لها: ياكزانتبي، وهل يسرّك أن أعدم وأنا مدان؟

وهكذا سُمّم الفيلسوف الفرنسي «ديكارت»، في تحقيق ظهر للسطح مؤخراً، غيلة بالزرنيخ بعد أن هرب إلى برد السويد. ولم تطبع بعض كتب اسبينوزا إلا بعد موته في ظروف مخيفة ألقي القبض فيها على مفكر معاصر له هو «أدريان كويرباغ» حاول نشر آراء مماثلة له، فحكم بالسجن عشر سنوات مات بعد قضاء ثمانية عشر شهراً منها. وعندما أراد اسبينوزا نشر كتابه «الأخلاق مؤيدة بالدليل الهندسي» أشاع عنه رجال الدين أنه يريد نشر كتاب يقيم فيه الدليل على عدم وجود الله، وتمّت محاولة اغتياله بطعنة سكين في الرقبة، ثم مات منفوثاً بالسل مطارَداً بقرار لعنة رهيب من المجمع اليهودي: «أن يكون مغضوباً وملعوناً نهاراً وليلاً وفي نومه وصبحه، ملعوناً في ذهابه وإيابه وخروجه ودخوله، وأن لا يشمله الله بعفوه قط، وأن يخلص أولو الأمر منه وأمثاله، وأن لا يتحدث معه أحد بكلمة، وأن لا يقدم له أحد مساعدة أو معروفاً، وأن لا يعيش معه أحد تحت سقف واحد، وأن لا

يقترب منه أحد على مسافة أربعة أذرع، وأن لا يقرأ أحد شيئاً جرى به قلمه أو أملاه لسانه».

وتتكرر قصة اسبينوزا في أيامنا على صورة كتاب يناقش «النزعة المادية في العالم الإسلامي» فيصف مفكراً مسلماً هكذا: «مادي ماركسي وضعي دارويني قدري معتزلي باطني شيعي ماسوني غاندوي يعتنق المادية وينشر الزندقة ويدعو لها بصراحة»!

التاريخ الإنساني كما نرى حافل بتعذيب الإنسان وحرقه وقتله من أجل رأيه، فليس غريباً أن يفرد القرآن سورة خاصة لهذا الفصل المروع بعنوان «البروج» عندما تلقى الجموع في خنادق الموت تحرق بالنار من أجل آرائها.

ولا يشذ تاريخنا عن هذه القاعدة، فقد ذبح التيار العقلاني، وساد التيار الدوغمائي المتشدد المعروف بأهل السنّة والجماعة، وهو في الحقيقة تيار نقلي متحجر، حجر على العقل وأهله ونفى «ابن رشد» إلى قرية الليسانة اليهودية. وذكر صاحب كتاب «الذيل والتكملة» ابن عبدالملك نص الإدانة الكاملة له، أي ابن رشد، بأنه من «قوم خاضوا في بحور الأوهام فخلدوا في العالم صحفاً ما لها من خلاق، مسودة المعاني والأوراق، ونشأ منهم شياطين يخادعون الله والذين آمنوا، فكانوا أضر عليها من أهل الكتاب قصارى همّهم بث عقاربهم في الآفاق، فاحذروا هذه الشرذمة حذركم من السموم السارية في الأبدان، ومن عُثر له على كتاب من كتبهم فجزاءه النار التي بها يعذب أربابه، والله تعالى يطهر من دنس الملحدين أصقاعكم، إنه منعم كريم». ثم طرد الفيلسوف من المسجد الكبير في قرطبة وابنه، ومات

شيخاً محطم القلب ليطرد بعدها خلال جيل واحد كل أهل قرطبة في عقاب كوني جماعي؛ فلا يبقى في المسجد إلا المحاريب تبكي وهي صامتة، والمنابر ترثي وهي عيدان.

وحسب المفكر «أحمد أمين» في كتابه «ضحى الإسلام» فإن إحدى الكوارث العارمة في التاريخ الإسلامي كانت في تسلط تيار «أهل السنّة والجماعة» وقتل حركة «المعتزلة». وهو يقول إن التيارين يشبهان من وجه حزبي «الأحرار» و«المحافظين»، وأنه كان بالإمكان أن يتعايشا ويعدل أحدهما الآخر. ولو حصل هذا لتدفق التاريخ الإسلامي في مجرى مختلف، ولربما ولدت الثورة الصناعية عندنا قبل بألف سنة. وهو الرأي الذي ذهب إليه «غالب هلسا» في كتابه «العالم فكرة ومادة»، وكانت كل الشروط متوفرة، ولكنه انحط وكتب سفر الحضارة معكوساً من اليسار إلى اليمين.

وقتل «شهاب الدين السهروردي» بفتوى من المتعصبين، ووصفه ابن أبي أصيبعة بأنه كان «أوحد في العلوم الحكمية، بارعاً في الأصول الفقهية، مفرط الذكاء، جيد الفطرة»، ولكن خصومه شنعوا عليه ورموه بالتفلسف والإلحاد بعد أن ناظرهم في حلب فأفحمهم، فعملوا محضراً بكفره ورفعوه إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي بدمشق وطلبوا منه استئصال الشر بقتله حتى لا ينفث إلحاده بكل بلد يحل فيه، فكان لهم ما أرادوا، فقتل سنة 587هـ عن 36 عاماً، وأخذ لقب «الشاب المقتول» في التاريخ. وكان مصير الحلاَّج أشنع، فضُرب ألف سوط، وقطعت أطرافه وأحرق. واعتُقل ابن تيمية في سجن القلعة حتى الموت، وحُرم من القرطاس والقلم حتى كتب بالفحم على الجدران

مثل المجانين. وأما «سلطان العلماء» الشيخ «العز بن عبد السلام» فقد أغرى به خصومُه الملكَ «الأشرف» بن الملك العادل الأيوبي أنه «زائغ العقيدة منحرف عما صح من العقائد الدينية الصحيحة»، وأفتوا بأنه كافرٌ حلال الدم. وضُرب ابن حنبل إلى حافة الموت، وسُمّم الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان، ودُفن ابن جرير الطبري المفسر والمؤرخ سراً تحت جنح الظلام خوفاً من الرعاع الذين اتهموه «بالرفض» كما يُدفن الأشقياء واللصوص. ووضع كل مشبوه ولو كان طوله خمسة أشبار بنصيحة أبي مسلم الخراساني على خازوق المماليك والسلاطين العثمانية. وذبح الحجاج سعيد بن جبير وهو يشخب في دمه ويقول له: لأبدلنك ناراً تتلظى. وفي يوم العيد الأضحى يقف أحد الجلادين يخاطب الجمهور أنكم تضحون اليوم وأنا سأضحي الجعد بن درهم، ثم ينحره كالكبش الأملح.

ووضع العالم الإسلامي من مذابح الجزائر، مروراً بحطام الصومال، وانتهاءً بجبال تورا بورا، تحصيل حاصل لاغتيال الفكرة وبزوغ مجتمع الوثن. وحيث تغيب شمس العقل يسود ليل الأصنام. ويطرح الكاتب «علي الوردي» سؤالاً خطيراً فيقول: لو عاصرنا النبي (ص) وهو يُضرب بالحجارة في الطائف هل كنّا معه أم كنا سنكون مع الضاربين؟

والسؤال الكبير هو: لماذا هذه المعاندة العجيبة «للكلمة»؟ إن هذا السؤال يفتح لنا الطريق لاستعراض أنثروبولوجي لتاريخ الإنسان والكلمة، فالإنسان لم ينشأ على ظهر الأرض إلا مثل كلمة أخيرة من السطر الأخير في الصفحة النهائية لسفر الخليقة المكون من ألف

صفحة. فعمر الأرض 4,6 مليار سنة، ولكن الحياة لم تبدأ إلا قبل 3,8 مليار سنة. وبقيت الأرض قفراً بدون حياة لمدة 800 مليون سنة. وبدأت عديدات الخلايا بالظهور قبل 530 مليون سنة في انفجار بيولوجي استغرق عشرة ملايين من السنين. وحسب أحدث الكشوفات الأنثروبولوجية التي كشفها العالم الفرنسي «برونيت» في تشاد، فإن تاريخ الإنسان يعود إلى أكثر من سبعة ملايين من السنين. ولم يكن الشكل الإنساني واحداً، بل مشى على ظهر الأرض أكثر من عشرة أنواع انقرضت كلها بما فيها إنسان نياندرتال الذي ظهر قبل 150 ألف سنة، وكانت نهايته على يد جدنا الهومو سابينس قبل ثلاثين ألف سنة حسب معلومات قناة «ديسكفري». وكان هذا إيذاناً بتفوق الإنسان القاتل الناطق الذي بدأ رحلته من أفريقيا قبل مائتي ألف سنة، فوصل أوروبا قبل 35 ألف سنة، واجتاز مضيق بهرنج مشياً على الأقدام حتى جبل النار في أقصى أمريكا الجنوبية قبل 12 ألف سنة. وحتى قبل عشرة آلاف سنة كان الإنسان يأكل الوحوش والوحوش تأكله، وكل همّه أن يملأ معدته خوف الموت جوعاً. وبقي أحقاباً يعتمد الصيد وجمع الثمار حتى قلبت المرأة شكل الحياة حسب «ديورانت» في «قصة الحضارة»، حينما اكتشفت الزراعة، فأدخلته الحضارة وأمن على نفسه أن يموت جوعاً، ففاض الطعام ونشأت المدينة، وتم تقسيم العمل، ونشأت التخصصات، وولدت الدولة ومعها الطغيان السياسي، وبنى الذكور كل الحياة على شكل الثكنة، وتطور السلاح، واندلعت الحروب، وحصل أعظم خطأ كرموسومي في بناء الإنسانية بتهميش المرأة واستيلاء الذكور على تشكيل مجتمع أحول يمشي بساق واحدة كما في أسطورة شق وسطيح، وبنوا مرافق الحياة على شكل عسكري، وشنوا الحروب

وما يزالون، ونشأت ثقافة العنف والقتل وما زالت. وكانت الحروب تسلية الملوك كما يقرر توينبي. وكانت سنوات الحرب في مدى 3400 سنة بمعدل 13 سنة من الحرب مقابل سنة واحدة ينعم فيها الأنام بالسلام. ولم تنشأ الحضارات إلا قبل ستة آلاف سنة، وزادت عن 32 حضارة انبثقت من 600 مجتمع بدائي كما كشفها المؤرخ «توينبي» (Toynbee). واخترع الإنسان الكتابة قبل خمسة آلاف سنة. وطبع «جوتنبرغ» الكتاب المقدس في أول مطبعة قبل خمسة قرون. وتم تسخير طاقة البخار قبل مائتي سنة. واستخدمت الكهرباء قبل 120 سنة. ودشن ماكس بلانك عام 1900 قواعد ميكانيكا الكم عن طريق ظاهرة إشعاع الجسم الأسود. ولم نعرف تطبيقات الإلكترونيات إلا منذ ثلاثين سنة حسب «ستيفن هوكنج» في كتابه «قصة قصيرة للزمن»، ودخلنا عصر الفضائيات قبل خمس سنين. ويتسارع العلم بأشد من تباعد المجرات. وتم تفتيت الذرة، وعرف البناء دون الذري حتى الكواركز واللبتونات، وسحق الزمن حتى الفيمتو ثانية، وتم فك الشفرة الوراثية للإنسان وتركيب مضاد المادة صناعياً، وعُرف مصير الكون، وسوف يستقبل العالم قريباً حقيقة الإنسان المستنسخ جسدياً. ودخل البشر عصر السلم من بوابة الردع النووية على الرغم من طبول بوش الذي يعيش بعقلية الحروب القديمة. وكما يقول «غورباتشوف» في كتابه «البروستريكا»: «إن العصر النووي لا يسمح بأن يعيش الإنسان عقل الغابة والهراوة».

قبل عشرة آلاف سنة كان الإنسان يأكل الوحوش والوحوش تأكله، ولكن ما مصيره بعد عشرة آلاف سنة؟

إن المخاض الكوني الذي تجلى في النهاية بظهور الإنسان وولادة المجتمع يحمل جدلية محيرة بين الفرد والمجتمع والتطور. فلولا المجتمع لا يتحول الإنسان من مادة خام إلى كائن اجتماعي. وأظهرت الكشوفات الأنثروبولوجية هذه الحقيقة كما في قصة «صبي أفيرون الوحشي» التي عرضها «بيتر فارب» في كتابه «بنو الإنسان». ولكن المجتمع له غريزته الدفاعية ضد أي فكرة جديدة. وهو هنا يشبه عالم البيولوجيا؛ فالجسم يرفض أي غريب من فيروس وخلية ميكروبية وانتهاءً بزرع الأعضاء، مثل الكلية لمريض مصاب بالفشل الكلوي وهو في أمس الحاجة لكلية. وهذا القانون سليم من جانب لأن الجسم لو سمح لكل غريب بانتهاك أرضه لتقوّضت مقومات وجوده وأصبح مزرعة جرثومية، وهو ما يحدث مع مرض الإيدز بانهيار الجهاز المناعي. ولكن الجسم يقلب هذا القانون كاملاً وعلى نحو معاكس في حالة واحدة فقط، باستقبال الأنثى الحيوان المنوي، فتنقلب كل آليات الجسم للترحيب بهذا الغريب. ولكن الفرق بين «البيولوجيا» و«الثقافة» أن العقارب على وجه الأرض لم تتطور منذ 400 مليون سنة أما المجتمع الإنساني فهو يتطور مجدداً نفسه بدون توقف بأفكار المبدعين وإلى الأحسن. وكما أفادتنا البيولوجيا في إنارة هذا السر فإن علم البيطرة يسعفنا بنموذج آخر لعذاب الأفراد المختلفين. فالدجاج ينقر المجروح بينهم في مكان النزف مع رؤية الدم حتى الموت. ويذكر الفيلسوف «برتراند راسل» عن حماره الذي اشتعلت النار في زريبته أنهم احتاروا في إخراجه وهو يحترق. والمجتمع يتصرف بغريزة الدفاع عن الذات بهذه الطريقة، فيقضي على «المختلفين» ولا يبالي. ولكن التطور قانون كوني، وهو بطيء في

البيولوجيا ولكنه سريع في الثقافة بواسطة هذه الخلايا المتمردة من العباقرة المبدعين، وقليل ما هم. وهو قانون يمشي بتسارع، فلم يُشنق من أعلن عن استنساخ الإنسان في كندا، بل اعتبرت مجلة «در شبيجل» الألمانية أنه تعوزه البرهنة. وفي مؤتمر «مصير الصحافة المكتوبة في عصر الوسائط المتعددة» الذي عقد في أبوظبي في يناير 2003 اجتمعت نخبة من الأدمغة الذين لا يوصفون بأنهم يوافقون آراء المجتمع. مع هذا فهم يُدعون ويُكرّمون ليقولوا ما يوقظ النائم ويزعج المستيقظ أحياناً.

عاش الإنسان مئات آلاف السنين أقرب لغريزة الحشرات بدون نمو لأنه كان يموت وتمحى الذاكرة مع الموت، ولكن اختراع الكتابة قبل خمسة آلاف سنة منح الذاكرة خلوداً غير متوقع، فلم تعد المعلومات تُمحى مع موت الجيل، بل حفظتها الكتابة. وبذلك نشأت ذاكرة هائلة جماعية لا تكف عن النمو.

وفي الوقت الذي ضمّت مكتبة نبوخذ نصر 25 ألف لوح من الطين المنقوش بالكتابة المسمارية، فإن مكتبة لينين تضم أكثر من ستة ملايين عنوان. ويحاول الألمان ضغط كل الذاكرة الإنسانية حالياً في ميكرو فيلم وشيبس في مستودعات جبلية قريباً من فرايبورغ ليوم الفصل العظيم، على فرض حدوث كارثة نووية أو كونية وانقرض كامل الجنس البشر وجاء من يبحث عنا. وتسبح حالياً المركبة الفضائية «بايونير عشرة» على بعد 12 مليار كم خارج النظام الشمسي بسرعة 44 ألف كم في الساعة للتعريف بنا إلى كائنات خارج مجموعتنا الشمسية.

وإذا كان كهنة سومر وسحرة فرعون كتبوا على الطين والبردى واحتفظوا بالمعلومات سراً عن جماهير مغيبة الوعي تعتقد بإلوهية فرعون، فإن الأنبياء جاءوا بالكلمة من أجل تحرير الإنسان. والصحافة اليوم تنقل الأفكار منقوشة على الهواء. ولم يعد مكان لسرية المعلومات بعد انفجار الإنترنت. ولا يملك الإنسان نفسه من الضحك والشعور بمتعة التحرر وهو يرى رجال المخابرات اليوم وهو يتصرفون مثل ساحرات العصور الوسطى الذين يستخدمون المكانس لاصطياد الأطباق الطائرة فوق رؤوسهم تئز بسرعة الضوء أزاً.

كهيعص...الم... إنها حروف مداخل السور تقول إن الوعي مربوط بالكلمة والقلم وما يسطرون. ومن هذه الحروف أضيفت إلى ذاكرة كل فرد ذاكرة كل البشرية، فواحدنا حجمه فردي ودماغه بقدر الجبال الشاهقات، وقبل أن يدخل الطفل المدرسة يختزن كل ذاكرة أسلافه، ويتعلم في سنوات ما جمعه حكماء القرون في سبعة ملايين من السنين. وكسر احتكار الكلمة هو الذي نقل البشر من العصر الصناعي إلى عصر المعلومات ونشوء ديموقراطية عالمية بدون برلمان منتخب. ولم يعد يمسك البشر السلاح والمال بل «المعلومات». وإذا سرت المعلومة تحرر عقل الإنسان. وكان القرآن محقاً في وصف من يكتم الحقيقة أن يكون ملعوناً من الله والملائكة والتاريخ والناس أجمعين، لأنه يعيق التقدم. فلم يتقدم الجنس البشري إلا بالعلم، ومن جهل خاف، ومن خاف تم استعباده كما يقول «الكواكبي» في كتابه «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد». وبذلك نفهم حقائق القرآن اجتماعياً وليس ثيولوجياً، سياسياً وليس غيبياً، وتنتقل من عالم الميتافيزيقيا إلى الواقع، وتصبح مسألة «التوحيد» ليست «علم كلام» بل مسألة حيوية في السياسة والاجتماع.

وهذا المرض هو السبب في موت المسجد، وأن تصبح وظيفة القرآن تلاوته على الأموات وليس بعثاً للحياة، وظهور نموذج مشوّه هو «إنسان ما بعد الموحّدين» وفق مصطلحات «مالك بن نبي»، يمتاز بالكلال وتقبل الظلم وقراءة النصوص بعيون الموتى.

كانت الكلمة في ما سبق تكلف الحياة، وابن المقفع دفع حياته محروقاً في تنور من أجل فكرة. ولكن التطور الإنساني يمتاز بثلاث: التسارع، والتقدم نحو الأفضل، والانفجار المعرفي. فبين انفجار «الإيدز» ومعرفة مسبّبه أنه فيروس أربع سنين، في حين أن انفجار مرض «الإفرنجي» كان عام 1496 ولم يكشف أن سببه اللولبية الشاحبة إلا فريتس شاودين عام 1912، ولكن معالجته بالبنسلين الذي اكتُشف صدفة على يد فلمنغ فكانت عام 1928. وعندما سقطت القسطنطينية لم ينتشر الخبر المزلزل في أوروبا إلا بعد سنتين، أما ضرب أبراج نيويورك في 11 سبتمبر 2001 فكان يُنقل لستة مليارات من البشر فوراً بالصوت والصورة. وكان النسّاخ في بغداد في العصر العباسي ينقشون على الورق كتاباً في شهر، والآن يمكن نقل عمل كل النساخين في ثوانٍ على قرص كمبيوتري يتسع لمكتبة بغداد والإسكندرية.

وأما الميزة الثانية فتطابق المبدأ القرآني أن الزبد يذهب جفاءً وما ينفع الناس يمكث في الأرض. هكذا ساهمت القنبلة النووية في توليد السلام العالمي. وكان الإنترنت مشروعاً عسكرياً فأطلق حرية الكلام بين البشر بأنفاس إلكترونية، فأصبح الناس بنعمة الإنترنت إخواناً. وفي الوقت الذي خاف غاليلو من نشر أفكاره، ولم يحلّ كوبرنيكوس بصره بالطبعة الأولى من كتابه حول دوران الأرض حول

الشمس إلا قبل موته بساعة، فإن آينشتاين كان يعمل في مكتب براءة الاختراعات في سويسرا. ومن يتقدم بأفكار جديدة لا يُشنق بل يُكافأ، وكل مجتمع يخنق الفكر ينفصم عن المركبة الفضائية العالمية، فيتيه في أجواء الفضاء معرضاً نفسه لإشعاعات قاتلة. والفكر الذي يختنق في بيئة لا يموت، بل يبحث عن مسارب أخرى فيشق طريقه مثل الماء ينبجس ينابيع في أمكنة أخرى، فيخرج حدائق ذات بهجة للناظرين. وعندما قضى العالم الإسلامي على فكر ابن رشد التمع في بادوا في إيطاليا، وعندما أهمل فكر ابن خلدون جاء توينبي لينفض عنه غبار التاريخ. وعندما فتح محمد الفاتح القسطنطينية وحول كنيسة آيا صوفيا إلى مسجد مخالفاً طريقة عمر (رض) في تعامله مع كنيسة القيامة حين رفض الصلاة فيها حتى لا يتذرع جاهل في تحويلها إلى مسجد، هرب علماء القسطنطينية إلى أوروبا فكانوا بذور النهضة العقلية لاحقاً.

وأما الانفجار المعرفي فطبيعة الكون أنه يبدأ بسيطاً ليتوسع ويصبح منوعاً. هكذا بدأ الانفجار العظيم الكوسمولوجي من كون مضغوط في حيز أقل من بروتون. وهكذا بدأت عديدات الخلايا رحلتها قبل نصف مليار سنة في انفجار بيولوجي. وهكذا حصل الانفجار الثقافي قبل 200 ألف سنة بظهور الإنسان الناطق المنتصب. فمع تحرر اليدين وتفاعل الدماغ مع الراحتين بدأ ببناء الحضارة. والكون يمشي على هذا النَظْم لا يتخلف. فحيث كانت الحضارات تتعاصر ولا تتراءى مثل حضارة الصين والإنكا فإن الحضارة الإنسانية اليوم واحدة برؤوس شتى. ومن يظن أن العالم تحول إلى أمريكي وأنها نهاية التاريخ فهو لا يصلح أن يكون تلميذاً في علم التاريخ. وإذا كان العلم

قد أعلن نهاية الجغرافيا فتكسرت الحدود وأفلت الأمر من يد الرقابة فإن التاريخ له نظمه الخاص، فهو لا يتوقف بل يتقدم نحو الأفضل. وعلى هذا النظم هلكت حضارات وبادت ثقافات. هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم رِكزاً؟ والتاريخ دفن روما، والكولسيوم ليس منه سوى الأطلال آية للمتوسمين. وسيدفن روما الجديدة عندما يبلغ الفساد عتبة الانهيار. وكما جاء في الإنجيل أن «الكبرياء يسبق السقوط» فليس هناك أحد محصن ضد الموت والاندثار.

وفي ضوء هذا الثلاثي يمكن رؤية الصحافة، فهي في تنافس مع «الفضائيات» و«شك القارئ» و«قبضة رجال الأمن» و«حصار الثقافة» و«الانسداد» في قناة لغة بعينها. ولكن الفضائيات قفزت فوق المراقبة ودخلت سوق التنافس وأطلقت ما في البطون على اللسان، وهو جيد من جانب علم النفس في تحرير المريض النفسي من عقده في عيادة، ولكنه ليس كذلك في تعميم السباب في قناة تقتحم كل بيت. وعيبها ثلاثي: تكريس الصنمية، ونشر ثقافة النهش، وتعميم السطحية على يد كهنة جدد من مقدمي البرامج، وعدم التركيز، فيقلب المشاهد عشرين قناة في ثلاث دقائق. وهو في وجه كما يقول «توينبي» عودة إلى عصور الكهف باعتماد الصورة أكثر من الفكرة المجردة. ولا يعني هذا أن الفضائيات ليس فيها المفيد، بل هي تخضع لقانون الحذف والإضافة.

والصحافة التي تكذب على المواطن تكذب على نفسها، وانتهى عصر الكذب لمن يعقل. وأما رجال الأمن والمراقبة فهم ينتسبون إلى العصر الجليدي السابق. وأما الثقافة التقليدية فهي تتكسر أمام

أمواج عاتية كالجبال من الثقافة العالمية لحسن الحظ. والعولمة اليوم تزحف كما يزحف الشتاء أو تتساقط الأوراق في الخريف في قدر كوني لا فكاك منه، والويل لمن لا يملك دثاراً وحطباً للإيقاد. وأما اللغة فالفكر يحتال عليها بالترجمة السريعة ونشوء لغة فكرية عالمية. ومع اندماج البشر المتسارع لن يكون ذلك الوقت بعيداً حينما تنشأ ثقافة كونية تنتشر بلغة كونية كما تفعل مجموعة من الأطفال الصم الذين يجتمعون لأول مرة، فيخترعون لغة خاصة بهم، أو كما يقوم عالم في الألسنيات في وكالة سوني في باريس بإيجاد لغة تخاطب بين الكمبيوترات الصماء. ويجرى حالياً إيداع كل لغات العالم في قرص كمبيوتري باسم حجر رشيد أمام انقراض اللغات المتسارع.

مغزى هذه القصص أن المجتمع لا يتقدم إلا بالفكر على جسر من المعاناة فوق نهر من الدموع، وأن الجديد يعارَض دوماً، وأن النافع يثبُت، وأن التاريخ تقدمي، وأن الطيران للمستقبل سيكون بجناحين من العلم والسلم، وأن العالم لم ينتهِ خلقه بعد. وكل يوم هو في شان.

القرآن يعلمنا أن الطغيان مرض الإنسان حينما ينتفخ بالغنى، كما جاء في أول سورة نزلت من القرآن، ومن أول الآيات ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ (العلق: 6-7). والضمير هنا لا يقول، ولم تأتِ العبارة على هذا الشكل «إن الإنسان ليطغى حينما يصبح غنياً»، بل العبارة تقول أن «رآه»، وكأنه رأى شخصاً آخر. فهنا يحصل انفكاك في الشخصية، فيرى نفسه وكأنه شخص جديد، فقالت الآية: أن رآه، وكأنه يرى شخصاً آخر غيره ولم يعد هو... هو.

وهكذا فكل زيادة في «الغنى» فيها خطر على «الإنسان» أن ينزلق إلى «الطغيان» بسبب فقدان التوازن. والدين يدخل على الخط هنا

من أجل تحرير الإنسان من علاقات القوة، ليس بالوعظ، بل باعتماد آليات نفسية اجتماعية. وعندما ينشطر الإنسان إلى كائنين «مستكبِر» (بالكسر) و«مستضعَف» (بالفتح) فلأنه يؤمن بالقوة. فإن امتلك القوة تحول إلى «رب» فصرخ: أنا ربكم الأعلى. وإن سُحبت منه القوة تحول إلى لا شيء. فهذا القوة تملأ وعاءً فارغاً إن نُفخ امتلأ وإن نُفِّس انكمش وتجعّد. والقرآن والأنبياء جاءوا لملء قلب الإنسان بشيء آخر ليس هوائياً يحمل انتفاخاً وهمياً، بل يملأ بسائل يَتصلب فلا يمطّ أو ينكمش، بل يحافظ على كيانه بدون انتفاخ وانكماش، وهي «الفكرة» مقابل «القوة». ويمكن فهم هذه النقطة على نحو أفضل لأننا نعيش عصر المعلومات.

ولفهم هذه الفكرة فإننا سوف نعرض لفكرة الطبيعة البشرية والاستعداد للفجور داخلها، ثم عن علاقة المعرفة بالسلطة، والمثقف والقوة، وعن جدلية القادة والأتباع. ومن أكثر فصول المعرفة تراجيدية هي علاقة الجنس بالقوة، فيمكن شرحها بالسياق. ولكن لنبدأ أولاً بفك فكرة هامة في جدلية العناصر الداخلية والخارجية، وبماذا تفيدنا في فهم مشكلة الطغيان.

ولكن أكبر سؤال هو:

هل يمكن «للفكرة» أن تواجه «القوة»؟

وهل يمكن للعصفور أن يواجه مسدساً؟ فهنا نحن أمام جدلية جديدة، وهي أصعب من كل ما مرّ، ولكننا اقتربنا في وصف الطغيان وتشخيصه ووضعنا اليد على جذوره وعرفنا منابعه من العين الحمئة.

وفي القرآن تعرض مسرحية الظالمين، ويخيل إلينا أنهم فصيل واحد. ولكننا نفاجأ بأن الظالمين صنفان، وليسوا صنفاً واحداً. لنقرأ هذه الآيات من سورة سبأ ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ (سبأ: 31). وهكذا نكتشف أن هذين الفريقين هما المستَضعَفون (بالفتح) والمستكبِرون (بالكسر). ويخيل إلينا مرة أخرى أنهما فريقان متمايزان، ولكن الفحص الدقيق يرينا أن الفريقان لا يزيدان عن عملة واحدة بوجهين مختلفين. وحسب قوانين علم الاجتماع فإن طبقة المستضعفين الأغلبية هي التي تولد طبقة المستكبرين الأقلية. ونحن ننظر بحقد وكراهية إلى المستكبرين وننسى مكان العلة. وهنا تقلب المسألة بالكامل أشبه بنظرية كوبرنيكوس في علم الاجتماع، ونقل كامل المسألة من السياسة إلى

الثقافة، وأن أصل الاستبداد السياسي ديني، وأن السياسي تلميذ المثقف، وأن الأمراض الاجتماعية جراثيمها أفكار.

ولكن ما هو الغريب والجديد في نظرية كوبرنيكوس؟ كان الناس قبله يرون أن الشمس تدور حول الأرض، وأن الأرض مركز الكون، وأنه إذا كانت هناك بديهية واضحة لا تخضع للنقاش فهي الشمس في رابعة النهار، فهدم كوبرنيكوس الثلاث، فلا الشمس تدور حول الأرض، وكل في فلك يسبحون، ولا الأرض مركز الكون، بل هي كوكب تافه في ملكوت لا يكف عن التوسع إلى أجل مسمى. ومن أجل هذا أحرق جيوردانو برونو الإيطالي، ولم تعِد الكنيسة تأهيله حتى اليوم. وهذه الفكرة التي كانوا يراهنون على صحتها ويُقتل الناس من أجلها تبيّن أنها لا تزيد عن وهم. وعلاقة أو دوران الدولة والأمة، وأيهما يدور حول الآخر، وأيهما المركزي والمحيطي، وأيهما الأصل والتابع، هو الذي يقتتل عليه الناس وما زلوا. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (البقرة: 253). والقرآن قلب النظرية، فجعل الحاكم كوكباً يدور في مدار شمس الأمة ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد: 11). وإن التغيير التاريخي تم بعبور جسر من المعاناة فوق نهر من الدموع.

وينقل لنا التاريخ فظاعات من قتل الناس واضطهادهم في شكل مخاض كوني مروع.

كيف يمكن للضعفاء مواجهة الأقوياء؟

وكيف يمكن للعُزّل مواجهة المخابرات؟ والإجابة على هذا السؤال تفك السحر، وهي المسألة المركزية في المجتمع كما سمّاها

الكواكبي. وهي القضية الأولى التي تناولتها أول سورة نزلت من القرآن (سورة العلق). ففي أولها الضوء الذي يكشف الظلمات، ومن القراءة يوقد السراج، فتبدد الظلمات. اقرأ باسم ربك الذي خلق. وفي آخرها التكتيك الفني للخلاص من الطاغوت: «كلا لاتطعه». وهي بعدم قتل الطاغية، بل عدم طاعته، لأن قتل الطاغية سيأتي بطاغية جديد فلا يتغير شيء. وهذا فرج ومحافظة على كل الأطراف بمن فيهم الطاغية كما حصل مع شيفرنازده في جيورجيا، فتم التخلص منه سلمياً ولم يُقتل. والطاغوت لا يولد من بطن أمه طاغوتاً، بل هو صنع الثقافة. ولو بعث الفرعون شنقيق الثاني من الأسرة الفرعونية 22 ودرس في جامعة هارفارد لأصبح مثل أي أمريكي يحترم الديموقراطية، ولو أرسل كلينتون الرئيس الأمريكي السابق إلى الألف الثانية قبل الميلاد لتحول إلى فرعون يطلب من الناس أن يبنوا له صرحاً لعله يبلغ الأسباب.

وعندما تناول الكواكبي وسائل تغيير الاستبداد أشار إلى نقاط محددة مثل معادلات الرياضيات في علم المثلثات بثلاثة قوانين رياضية اجتماعية نعرضها على الشكل التالي:

ما هي قوانين رفع الاستبداد؟

الشعور بالحاجة إلى التغيير والتغيير سلمياً، ولا بد من تصور البديل. هكذا صاغ الكواكبي وصفة الخلاص مثل قوانين الرياضيات

بثلاث جمل اختصر «عبدالرحمن الكواكبي» الوصفة مثل قوانين الرياضيات في كتابه «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» في فصل: «مبحث السعي في رفع الاستبداد»: «الشعور بالحاجة إلى التغيير»، ويتفق بهذا مع الفيلسوف «إيمانويل كانت»: 1- «الأمة التي

لا تشعر كلها أو أكثرها بآلام الاستبداد لا تستحق الحرية». و«يجب أن يتم التغيير سلمياً وبالتدريج»، ويتفق بهذا مع قانون الأنبياء في التغيير الاجتماعي أن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وليس بقتل الحكام أو الانقلابات العسكرية في الظلام. 2- «الاستبداد لا يقاوم بالشدة إنما يقاوم باللين والتدرج». وثالثاً «لا بد من تصور البديل». 3- «يجب قبل مقاومة الاستبداد تهيئة ماذا يستبدل به الاستبداد». ويتفق بهذا مع «ديكارت» الذي يرى في كتابه «المقال على المنهج» أنه يجب عدم هدم البيوت القديمة مهما كانت سيئة، فلا يفعل هذا مهندس عاقل ويضع أصحابه تحت المطر والريح، بل لا بد من تهيئة البيت الجديد، فإذا انتقل إليه لم يرجع إلى القديم قط. من الملفت للنظر أن القوانين الثلاثة التي وضعها الكواكبي قبل قرن من الآن (1902) للتخلص من الاستبداد تفتح الوعي على طريقة جديدة في التفكير بعد أن جرب العالم العربي وصفة الانقلابات فلم يزدد المرض إلا نكساً ووخامة، وتدهورت الأحوال بدون توقف منذ نصف قرن وبتسارع في علاقة جدلية موجعة بين «المرض» و«الاختلاط»، ونحن نعلم أن المريض في العناية المشددة عندما يستمر في النزف لا يقف عند نقل الدم ولكنه يصل إلى القصور الكلوي. والأمة العربية التي تسكن اليوم العناية المشددة التاريخية تحت إشراف أسوأ الأطباء وأقلهم خبرة وأضعفهم اختصاصاً، نزفت بما فيه الكفاية وهي الآن في حالة قصور اجتماعي وهذيان على صورة صراخ الجماهير الهستيري في تمجيد الأصنام. لقد كانت الأمور سيئة بما فيها الكفاية من الانفكاك عن صيرورة التاريخ وأحداث القرن، ولكن التطور المهين خلال النصف قرن الفائت يجعلنا نتساءل: إلى أين ستمضي الرحلة؟ وهل هناك ثمة

قاع ترسو عليه سفينتنا الغارقة في عمق المحيط؟ وهل انتهينا من قدر الهبوط أم مازال أمامنا فصول أشد بؤساً؟ لا أحد يعلم. يؤرخ الفيلسوف «عبدالرحمن البدوي» في كتابه «سيرة حياتي» التطور المأساوي في بلد عربي في مسلسل أحداث القرن شاهداً على القرن، وهو الذي أنتج 120 كتاباً فلسفياً في حياة علمية حافلة بالإنتاج وإتقان اللغات والاطلاع على ماأنتجه الفكر الحديث، وهو يصلح للتطبيق على أماكن ليست بالقليلة في العالم العربي بسبب المرض الثقافي المشترك في «النوعية» مع الاختلاف في «الدرجة»، كما في الحمى «التيفية» التي قد تصيب أحدهم بالترفع الحروري والإنهاك، ولكنها قد تضرب عند مريض آخر عضلة القلب، فلا أحد يستطيع التكهن بمخطط رحلة المرض طالما تمكن من مفاصل المريض. وكذلك هي مصائر بلدان عربية منوعة بين العجز أو الكارثة الاجتماعية لأمم تعيش خارج التاريخ كمريض مصاب بأفظع حمّى. سنّة الله في خلقه وخسر هنالك المبطلون. يصف «البدوي» هذا التطور المرضي على نحو مفزع نقتطف منه حزمة بشيء من الاختصار والتصرف: «كانت الحرية نعمة... وإذا بها حكراً جديداً على فرد تحيط به عصابة. كانت الكرامة من أعز ما يعتز به... فصارت هدفاً لكل اضطهاد ومصدراً لكل حرمان وشقاء. كان الأمن على النفس والأموال موفوراً لكل شخص، فصار الخوف على كليهما يقض مضجع كل فرد وأسرة. كان النفاق مقصوراً على فئة من الوصوليين وعديمي الضمائر، فأضحى خصلة لشعب بأسره يتنافس الجميع في ممارسته ويتباهى بالتفوق فيه. وكان التفريط في أي حق من الحقوق الوطنية خيانة تنهار بسببها الحكومات، وإذا بالتخلي عن أكبر الحقوق إنجاز يتباهى به الحكام.

وكانت الهزيمة سنة 1948 كارثة تزعزعت بسببها الثقة في الحكام، وإذا بالهزيمة الساحقة الماحقة عام 1967 تحتشد لها جماهير للهتاف بحياة من تسببوا في الهزيمة. وكان النقص في السلع أمراً نادر الوقوع، فصار القاعدة. وكانت العلاقات مع البلاد العربية والإسلامية تتسم بالمودة وتبادل المنافع، فصارت القطيعة والعداوة هي الصفات السائدة. وكانت حقوق الإنسان مكفولة بالدستور والقوانين، فإذا بها تصبح تعطفاً متعالياً من الحاكم على المحكومين. وكان الاقتصاد يقوم على أسس راسخة وأرقام صادقة، وإذا به يصبح أرقاماً بهلوانية يتلاعب بها وزراء لا علم عندهم ولا ضمير، يقدمون موازنات زائفة، مما أدى بالاقتصاد إلى الإفلاس وتكاثر الديون وانهيار العملة انهياراً متواصلاً. وكان الإسكان ميسوراً في كل مكان، وإذا بالملايين لا يجدون مساكن لهم. وكان لكل مواطن الحق في أن يغادر وطنه طلباً للرزق أو للعلم، وإذا بالوطن يتحول إلى سجن كبير. وكانت أدوات الثقافة تتدفق في حرية تامة، وإذا بها تمنع تدريجياً حتى فقدت الاتصال بمصادر الفكر العالمي».

وقد يتساءل المرء وهل كانت الأحوال قبل هذا التطور المريع مع منتصف القرن العشرين رائعة؟ والجواب أن الأمور نسبية، وقد استدركها «البدوي» فقال: «ولكن الأمر كما قال الشاعر:

رب يوم بكيت منه فلما ... صرت إلى غيره بكيت عليه

وهذا المرض السياسي قديم على كل حال نشأ، مع الانقلاب الأموي ومصادرة الحكم الراشدي، وتابع رحلته الإمراضية عبر القرون. وكل من حاول استعادة الرشد من بعد، لجأ إلى الغي، أي

نفس الأداة المروانية الجاهلية السيف. هذا ما فعله العباسيون ومن بعدهم قرون كثير، فلم ترجع الحياة الراشدية، واستمر «السيف» فوق «القانون» ، فحيث شق السيف طريقه لحقه الكتاب، كما في تعبير «ابن تيمية»، فبارك وصدق وختم على ما فعله. هكذا كانت علاقة «القوة بالمشروعية» في تاريخنا. وما زال السيف أصدق أنباءً من الكتب في حدّه الحد بين الجد واللعب، كما وصف شاعرنا قديماً الوضع بصدق وقناعة، واحتضن اللاوعي الشعبي هذه الجرثومة الثقافية أن «البطل» من يأخذ حقه بيده في مصادرة كاملة لكل الإنجاز الإنساني في معنى الدولة والقانون.

ونرجع إلى الكواكبي الذي صاغ «قوانين التغيير» على نحو مبلور قبل قرن بدون أن يترك أثراً في الثقافة الجماهيرية، وانتكست الأوضاع إلى ما هو أسوأ مع كل الوعي الاجتماعي الذي كان تحلّى به الرجل، وهو يوحي أنه كان على اتصال بغذاء فكري «غير تقليدي» حتى استطاع صياغة هذه القوانين. ويبدو من كلماته اتصاله بالفكر الغربي الحديث مع إيمان عميق بقيَم الإسلام وانتباه حساس وإدراك لطبيعة الفروق الثقافية بين الشرق والغرب، بل حتى خصوصية كل مجتمع غربي، مثل إدراكه للفروق الدقيقة بين المجتمع الألماني والفرنسي «فالجرماني جاف الطبع، وهو يحب العلم من أجل المال. واللاتيني مطبوع على العجب والطيش، ويرى العقل في الإطلاق والحياة في خلع الحياء» مما يدل على احتكاكه المباشر بهذه المجتمعات.

إن الفكر الذي خلفه لنا آباؤنا أعجز من أن يفرز مثل هذه الرحيق لأنه لم يقطف من زهور الحرية ولم يعد فيه ما يحرك إلى التغيير، وانفصل عن حركة التاريخ، وكما يقول «مالك بن نبي» إن أكرم

مكان لجثث الموتى هو إيداعها المقابر، كذلك يجب أن يكون مصير «الأفكار الميتة» من تركة الآباء التي توقفت فيها حركة الصيرورة وماتت، فمكانها مقبرة التاريخ، بكل احترام كقيمة في الذاكرة وليس كوجود في الحياة. إن الفكر التقليدي يحمل إشكالية عميقة انتبه لها الفيلسوف «محمد إقبال»، فأشار إلى أن الكثير من تراثنا كتب في ظروف مشبوهة، ويبقى القرآن هو الكتاب الوحيد الذي حفظ بدون عبث من تغيير رسمه، ولكنه مع هذا لم يسلمٍ من ثلاث: توظيفه للسلطان، وكتم حقائقه، وأن يُشترى به ثمناً قليلاً. وهذا يفتح الطريق إلى الاستنفار لمحاولة إضاءته على نحو عصري بتطويع العلوم الحديثة لفهم حقائقه. كذلك نفهم لماذا استنفر علماؤنا أنفسهم سابقاً لغربلة الحديث، فينتقي البخاري من نصف مليون حديث ألفين ويزيد، ويعلّم ابن حنبل ابنه خمسة آلاف حديث شائع ليفاجئه لاحقاً أنها مكذوبة، فيتعجب، فيقول له: كي تعرف أنها موضوعة فتحترز منها. وأما بقية التراث فكتب كله في ظل السلاطين وفي أجواء سياسية تقوم على الغدر وقنص السلطة الدموي المحموم. كان النص يلعن فرعون، ولكن فرعون وجنوده كانوا في القصر يحرسهم جيش من المرتزقة في دولة ودّعت الخلافة وتحوّلت إلى نموذج بيزنطي. أمامنا اليوم، كما نرى، عمليتان في الجراحة الفكرية، الأولى: في غربلة التراث بالحفر المعرفي لاكتشاف ذاتنا الحقيقية بدون مكياج وقناع. والثانية: الاتصال بالعصر لنعرف إضافات المعرفة. وكما يقول «مالك بن بني»: كل من يدخل العصر ولا يدرك إضافات المعرفة الإنسانية لن ينجو من سخرية التاريخ.

في 29 سبتمبر مات الرئيس الكندي الأسبق «بيير إيليوت ترودو» في خريف العمر في منزله عن 81 سنة بدون اغتيال وانقلاب أو

نفي. مات مواطناً عادياً في بيته خارج الحكم بعد أن حكم كندا ثلاث مرات، ولكنه اعتزل الحكم والسياسة منذ أكثر من عقد، وأهم ما أنجز مرسوم «الحريات والحقوق»، ووضع كندا على الخارطة العالمية كبلد مسالم في استقلال عن أمريكا. إن تاريخ كندا كان معظمه سلمياً، ولم يكن انفصالها عن بريطانيا دموياً على غرار الثورة الأمريكية، وهو نموذج للتغيير جدير بالتأمل. واجتمع في جنازته النقيض، بمن فيهم أشد خصوم أمريكا كاسترو. وما زال الناس يزورون منزله حتى اليوم بحب وتقدير وبدون خوف من الاستخبارات. إنها مشاهد رائعة من كندا تشبه ألوان أوراق شجرة القيقب المضرجة بالاحمرار المتساقطة مع خريف كندا الرائع. ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ (العنكبوت: 43).

ومن القرآن نعرف أن قوم موسى ألحوا عليه أن يخلّصهم من المهانة التي هم فيها، فلفت نظرهم أن العبرة ليست في الخلاص من فرعون، ولكن أن لا ينتقلوا من قبضة فرعون إلى قبضة فرعون جديد. وبذلك يقول الكواكبي إن التحرير النفسي يحافظ على فرعون بأن يضع له كوابح الطغيان، وهذا هو طريق ولادة الأمة على نحو سليم. وعند هذا المفصل نفهم الأساس الأخلاقي لفكرة اللاعنف في التغيير، ولكن قبل هذا يجب فهم نظرية القابلية للاستبداد. أي أن أمامنا شرح الفكرتين بالتتالي:

القابلية للاستبداد

في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي وقف خروتشوف يتساءل: كيف يتسنى لشخص واحد مثل ستالين أن يتحكم بمصائر ملايين البشر ويرسل إلى الموت مليون شخص من أوكرانيا فقط؟ ليست المشكلة في تعطش فرد لسلطة لانهائية، ولكن كل المشكلة كيف تركع الجماهير لآلهة كاذبة؟ ماهو سر هذا السحر وكيف نفك طلسمه؟

لعل أفضل من حلَّل ظاهرة «المرض الاجتماعي» هو مالك بن نبي حينما وجه نظره إلى «الاستعداد» كتربة جاهزة لانغراس جراثيم المرض، وبذلك قام بانجازين هامين في الفكر العربي: أولاً في نقل المعركة من الميدان السياسي إلى الثقافي، ونقل الصراع العربي الإسرائيلي من جوهري إلى هامشي ؛ فالمرض العربي قاد إلى الاختلاط الصهيوني.

قاد مالك بن نبي بتحليله إلى قلب ترتيب الأولويات عندما اعتبر «القابلية» للاستعمار تشكل وضع «امتصاص»، وبذلك وضع تشخيصاً بارعاً لمرض الحضارة الإسلامية، أن ظاهرة القابلية للاستعمار

تشكلت في وقت مبكر تحت قباب القيروان ودمشق وبغداد، قبل أن تزحف جيوش الاستعمار لاحتلالها. هذا المرض هيأ للتفسخ الداخلي قبل الاجتياح الخارجي، وهو الذي يفسر تسلط الديكتاتوريات وبزوغ نجم داود. نحن لم نتحرر بعد من هذا المرض الذي يعس كالروماتيزم الخبيث في مفاصل ثقافتنا.

يُعتبر القرآن كتاباً متفرداً في طرح مصطلح لم يعتده الناس تحت عنوان «ظلم النفس» لأن الناس اعتادت أن تلوم كل شيء إلا نفسها، وبذلك قام القرآن بتوفير الطاقة لدفعها في المسار المنتج. ليست المشكلة بعدم وجود عناصر خارجية تفجرها، ولكن القطاع الفعلي الذي نتمتع بالتحكم فيه هو عالمنا النفسي، وليس عندنا إمكانية لدخول المشكلة إلا من بوابته، وبتعطيل هذا المسار يتعضل حل المشكلة فلا يرى الضوء.

طرح القرآن «ظاهرتين» لعلهما أهم الأمراض الإنسانية قاطبة: «علاقات القوة» بين المستضعفين والمستكبرين، ومشكلة القصور التي واجهت «آدم وإبليس» وتحديد الموقف منها. لم يدخل إبليس طريق اللعنة واللاعودة إلا عندما اعتبر نفسه مبرَّئاً من الخطأ، وأن «الله» هو الذي أغواه (بما أغويتني)، في حين أن آدم وقف هو وزوجته يعللان سبب السقوط بقصور داخلي (ربنا إننا ظلمنا أنفسنا) كمنهج صحيح في مواجهة المشاكل.

إن المشاكل ليست فيها تحديداً، بل بموقفنا منها، فلا تعود مشاكل بل تحديات لاستنفار الجهد، فهذا المنهج يدفع نحو تراكم الخبرات.

عرض القرآن مسرحية «الظالمين» أنهما شريحتان تتقدم الأولى حاملة لواء «المستضعفين» قبل ظهور مجموعة المنتفخين المستكبرين، تماماً كما في الفيلم بأصله الفاحم (Negative)، تستخرج منه الصور الإيجابية زاهية الألوان. المستضعفون هم تربة إنجاز وتفريخ طبقة الطواغيت المستكبرين، وهي كما نرى مشكلة ثقافية قبل أن تكون سياسية.

هذا القلب في التصور يصبح نظرية كوبرنيكوس اجتماعية، فلم تعد الشمس تدور حول الأرض، ولم يعد الحكام يفعلون مايشاءون، ولا يعني قلب أنظمة الحكم الدخول إلى العالم السحري الفجائي لتغيير الأوضاع، لذا طرح القرآن نظرية تغيير ما بالنفوس كأساس لتغيير الأوضاع ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الأنفال: 53).

في عام 1562 كتب «أتيين لابواسييه» في شرح آلية الطغيان أن الطاغية يقف على رأس هرم محفوف بنظام متدرج من ستة من الأشخاص يزينون له ما يفعل، يوجهون بدورهم 600 شخص من تحتهم في شبكة عصبية متمادية إلى ستة آلاف وستمائة ألف، بحيث يفعل الطاغية ما يفعله الدماغ من إفراز كيمياوي بسيط من جرعة النانوغرام كي تنقل له الشبكة كل الأخبار وتحرك له كل العضلات وتفرز كل الهورمونات.

ويقترح «لابواسييه» ترياقاً ضد هذا السمّ الاجتماعي يقوم على سحب الطاعة فقط ؛ فلا يمكن لأي ديكتاتور أن يستمرّ في الحياة لو

أن الناس جلسوا في بيوتهم ولم ينزلوا إلى العمل، ولم يتعاونوا معه. ولكن الأمر يحتاج إلى ثلاثة شروط: الوعي والتنسيق والتضحية. لذا يخاف كل طاغية من رائحة أي تنظيم، ويتمنّى، بل يدفعه إلى، أن يكون سرياً لاشرعياً أو عنيفاً مسلحاً، فيتم اصطياده باللاشرعية ويقطع رقبته بكل سهولة وراحة ضمير. من هنا كانت دعوة الأنبياء علنية وجماهيرية وغير مسلحة ولاعنفية، أما الحركات السياسية في العالم العربي في معظم شرائحها فتفرح بموت أو اغتيال الحكام، وعندما ينطفئ هذا اللهيب من قلوبنا ؛ فلا نفرح بموت حاكم او اغتياله و«لا نفرق بين أحد منهم» ملكاً كان أم جمهورياً ؛ نكون قد بدأنا سيكولوجياً نمشي سوياً على صراط مستقيم.

ليس من الضروري قتل الباطل، بل ممارسة العصيان المشروع فقط. ولو فعلت المعارضة الجزائرية هذا لخرج كل المجتمع من عنق الزجاجة بأقل الضحايا. يكفي ممارسة العصيان بعدم التعاون معه والرضوخ له، ولكن مشكلة الإنسان أنه يعتقل بأوهامه ويمكن أن يسحر ويسترهب.

ما جاء به الأنبياء هو محاولة تحرير الإنسان من هذا الوهم، وتحرير العقل المعتقل، وهذا هو لب التوحيد الذي يقوم على إنكار كل الآلهة قبل الإقرار بالله العزيز الحميد.

يتساءل «برتراند راسل» في كتابه «السلطان» عن الشهوة البشرية أن يكون الفرد نبياً أو حتى إلهاً، أنها مشروع قائم، وهي متعة لذيذة خفية وشهية، وما يمنع تحققها وقائع ساحقة ماحقة من مرض قاتل وموت مدمّر وشيخوخة قاهرة، في شواهد أننا بشر فانون ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِيْنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ (الأنبياء: 34).

لا يستطيع كل إنسان تدشين ديانة جديدة مع طموحه لذلك ؛ وكل إنسان عالم قائم بذاته يعتبر نفسه أفهم الناس جميعاً ، كما يرى أنه لا ينقصه شيء أن يكون أعظم الفلاسفة أو أهم الأنبياء، ويذهب الغزالي في كتابه «الإحياء» أن أعظم اللذات في الحياة هي «التسلط» لأنها من صفات الإلوهية، كما أن الدين يراهن على هذه القطعة «الترانزستور» فينا من نفخة الإله، وإلا ما معنى أن يغرينا بجنة الخلد كصفة إلهية.

لعل آخر ما يسحب من قلوب الصالحين هي روح التسلط والعلو في الأرض والشعور بالتميز، فيا حبذا الإمارة ولو على الحجارة، وهذا يفسر أحد الأسباب الخفية المسيطرة للصراع السياسي بين الشرائح الاجتماعية، ومن أجل هذا جاء الأنبياء لكسر احتكار الإلوهية البشرية، واستنبات مجتمع محرر من علاقات القوة، فلا يوجد مستضعفون أو مستكبرون، وهو ما فعلته الديموقراطية حالياً.

لو أن كلينتون أو تاتشر حالفهما الحظ فحكموا بلداً عربياً لاعترفوا بدون ذرة تردد أن جدّهم العاشر كان من يعرب أو قحطان ؛ فكرسي الحكم في العالم العربي ممتع لذيذ إلى أبعد الحدود، لا تراقبه لجنة ضرائب أو مجلس شيوخ، ولا تطاله يد محاكمة في مساءلة. كما أن العكس صحيح، لو أن حاكماً عربياً قفز به الحظ ليصبح رئيس دولة غربية، فسوف يتحول في فترة قصيرة من إله إلى إنسان، في شاهد صاعق على ما تفعله الثقافات في البشر.

ثقافتنا تنتج عبيداً وآلهة في مستنقع لم يجفّف بعد، تفوح منه الروائح الكريهة، ويعج فيه البعوض إلى أجل غير مسمى.

ذكر «أتيين لابواسيه» في كتابه العبودية المختارة أن اليونان أرسلوا رجلين إلى بلاط عاهل الفرس، فاستضافهما حاكم حدودي، فأطعمهما إلى ما فوق الشبع، ووأكرمهما إلى ما فوق الضيافة، وقال لهما: «ألا تريان هذه النعمة التي أسبح فيها وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تعقلان وتنضمان إلى عبيد مولاي الملك؟». نظر الرجلان القادمان من ثقافة سقراط وقالا له: «لك الحق أن تقول ما تقول، ولنا الحق أن نرفض كل ما تقول؛ لأن نعمة الحرية لم تذقها بعد، ولو ذقتها لرميت كل ما عندك برجلك هذا مغتسل بارد وشراب، ولقاتلت عن الحرية بأظافرك وأسنانك».

نحن نثرثر بكلمات الديموقراطية وننسى ثلاثة أمور: وعياً جماهيرياً يصلح أساساً لصناديق الاقتراعات، ومثقفاً ملتزماً بقوة الحقيقة قبل حقيقة القوة تحرّر من الخوف والإغراء وودع ثقافة وعاظ السلاطين، وأخيراً توديعاً للعنف بكل أسبابه. فلا تجتمع الديموقراطية مع العنف إلا عندما يمتزج الماء مع النار.

الأساس الأخلاقي لفكرة اللاعنف

استطاع غاندي إنهاء الاحتلال البريطاني من الهند بدون أن يموت خمسة ملايين كما حدث في فيتنام. ليس هذا فقط، بل باحترام الخصم وإعجاب العالم وامتلاء القلب بالإعجاب بهذا الرجل بتطويره طريقة عجيبة محتواها أخلاقي، أن الخصم يمكن هزيمته من داخل ضميره أكثر من قتله أو دحره في ساحات القتال. إنها طريقة جديرة بالتأمل ، تعتمد المحتوى الأخلاقي لفكرة اللاعنف على أفكار تأسيسية: أولاً: العنف هو سعي إلى مصادرة حق الآخر في الوجود كذات مادية، وهذا هو العنف المادي، أو كذات فكرية وهو العنف الرمزي، سواء كان فعلاً مباشراً أو رد فعل على عنف الآخر. ثانياً: العنف يبدأ فكرة في الذهن أو شعوراً في القلب من تحقير الآخر والانتقاص منه والاستخفاف به واعتباره الأدنى الذي يجب تطهير الأرض من دنسه، وينتهي دماءً على الأرض وفساداً في البر والبحر. ثالثاً: العنف لا يحل المشاكل إلا بتعقيدها أكثر وتوليد المزيد منها، ولا يقود إلا المزيد من العنف ولو على المستوى الزمني البعيد. والسلم لا يؤدي إلا إلى مزيد من السلم ولو على المستوى الزمني البعيد. ويعلمنا القرآن قاعدة ذهبية في التعامل إن استطعنا أن نصعد إلى مستواها ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت: 34).

رابعاً: في عالم الطفل قد نستطيع ردعه كطريقة تربوية فاشلة بضربه فيتوقف عن ممارسة بعض السلوكيات، ولكنه داخل نفسه لن يتوقف عن ممارستها ما لم يقتنع بذلك ويعود إلى نفس السلوك بمجرد زوال التهديد والعقاب. ويذكر القرآن بهذه السيكولوجية ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ (الأنعام: 28)، أي إن المنعكس الشرطي النفسي قائم، وحال زوال الردع ترجع النفس لممارسة السلوكية السابقة. وهذا يعني في حقل التغيير أن العنف لا يغير لأنه لا يلامس الوتر الذي يجب أن يعزف عليه أهل الإصلاح والتجديد، وهو وتر تغيير ما بالأنفس. بكلمة ثانية تشبه القانون الرياضي: هناك عنف ليس هناك تغيير. هناك سلم واقتناع، هناك تغيير في السلوك. خامساً: هناك علاقة تلازمية بين العلم والسلم. كلما ازداد الإنسان نضجاً ورشداً وتسلح بالعلم، مال إلى حل المشاكل سلمياً، والعكس بالعكس. سادساً: وصل عالم الكبار إلى إدراك هذه الحقيقة مرغماً وبمعاناة شديدة وبكلفة مريعة من الضحايا والدماء، ولكنه ما زال متخلفاً أخلاقياً، ويبيع السلاح للدول الفقيرة أو الجاهلة مع معرفته الأكيدة أنها عتاد ميت، وهكذا فإن الحرب توقفت ولكن الوهم ما زال قائماً أنه يمكن الاستمرار بحل المشاكل بالحرب كما ظن ميلوسوفيتش. سابعاً: الحرب تهدف إلى كسر إرادة الخصم، أي إلغاء الآخر، وبالتالي فإن نهاية الحرب هي تحطم إرادة وبقاء إرادة وحيدة تملي القرار في الساحة، وهذا خطر على الطرفين، فوسط من هذا النوع يولد كائنين مريضين: مستكبر ومستضعف. وهذا يفتح دورة الصراع من جديد. فهذه سبعة أفكار تأسيسية في المغزى الأخلاقي العميق لفكرة اللاعنف.

وخير ما نختم به بحثنا قصة جحا وتعريف الموت عنده وأثر الأوهام في عقول الناس.

تعريف الموت عند جحا

سأل جحا يوماً زوجته: كيف تعرفين الحي من الميت؟ قالت: إن الرجل إذا مات بردت أطرافه الأربعة، فإذا رأيت إنساناً قد برد على هذا الشكل فسارع في دفنه. فحفظ ذلك جحا في مخيلته، وقال إن الموت أقرب للإنسان من شراك نعله. حتى كان يوم بارد تجمد الصقيع فيه على النوافذ، فاحتاج أن يجمع فيه الحطب للتدفئة فخرج يحتطب في غابة قريبة، فطال في البحث حتى ملأ وعاءه من بقايا الأخشاب وأفنان الشجر. وإذ استغرق مكثه في البرية في ذلك اليوم البارد فقد لاحظ جحا على نفسه أن أطرافه الأربعة بردت، فقال في نفسه: يا جحا لقد مت ولا شك حسبما قالت لك زوجتك. فاستلقى على ظهره وهو يتأمل نفسه الميت وترك حماره يسرح أمام عينه. وبينما هو على هذه الحالة إذ جاء قطيع من الذئاب فهجم على الحمار فافترسه في ساعة من نهار في ذلك اليوم البارد، وجحا يتأمل المنظر ولا يفعل شيئاً لحماره لأنه ميت، والميت لا يملك نفعاً ولا ضراً. وأخيراً رفع جحا رأسه قليلاً ثم تمتم قائلاً: أيها الجبناء، تعرفون أن صاحبه ميت فأكلتموه، ويم الله لو كنت حياً لعرفت كيف أؤدبكم على فعلتكم هذه.

وهذه القصة تحكي الأوهام عند الإنسان. ومن يتوهم يظن أن الأوهام حقائق. والحقيقة الأولى تقول إن الحقيقة غير الوهم. ولكن

هذه الحقيقة وهم فليس هناك حقائق أشد وقعاً على الناس وتأثيراً في حياتهم من الأوهام. وعندما يعبد البشر القيادات السياسة يتعجب الإنسان كيف يستطيع بشر فرد أن يضع يده على رقبة شعب يعد بالملايين. فهذا وهم كبير ولكنه حقيقة تفقأ العين أكثر من كل حقيقة. ولو اجتمع ثلاثة أشخاص لأمسكوا بالطاغية وكتفوه، ولكنهم يخافونه أشدّ من الموت، فهذا وهم ولكنها حقيقة أشدّ من كل حقيقة سطوعاً. ويروى عن طاغية مشرقي أنه كان لا يدخل عليه رؤوساء الفروع الأمنية سوية، وعددهم بقدر ملائكة العذاب تسعة عشر. وإنما يدخلون عليه آحاداً فرداً فرداً، لأنه لو اتفق ثلاثة منه على تكتيفه والاستيلاء على البشر فيمكن أن يمشوا بوقود وهمي من الشعارات الفارغة. والدول الثورية روّجت من الشعارات ما سار تحتها الملايين وهم يهتفون بحياة بشر مثلهم يأكلون مما يأكلون ويشربون مما يشربون. والناس في عدد من دول العالم الثالث يذهبون للانتخاب وهم يعلمون أن الموضوع كله كذبة كبيرة ووهم عظيم، ومع ذلك فالكل يذهب إلى هذه الانتخابات تحت وطأة هذا السحر. والقرآن يقول عن موسى والحية مقاليد الأمر كما فعل لتمكنوا. والسيارة لا يمكن أن تمشي بدون وقود حقيقي. أما والعصا والثعابين، أنه خيل إليه من سحرهم أنها تسعى، ولم تكن تسعى. والسحر في السياسة هذه الأيام أكبر من سحر كهنة فرعون الذين قالوا: إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين؟ قال: نعم وإنكم إذاً من المقربين. فألقوا عصيهم وحبالهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون، فوقع الحق وبطل ما كانوا يفعلون. وحينما يلعب السحرة ولا يوجد موسى فلا نتوقع سوى سيطرة الأوهام على عقول الناس كما جاء في قصة جحا عن تعريف الموت ومتى يموت الإنسان. والشعوب تموت

مرات قبل أن تُبعث. والأرض الميتة يحييها الله، وكذلك النفوس.
﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ (الأنعام: 122).

فهذه هي حكاية العربان والأمريكان والطغيان.

الاستبداد المعاصر

ربما كان كتاب الكواكبي عن الاستبداد أجمل ما كتب، ولكن يبقى الباب مفتوحاً إلى تطوير وإضافة أفكار جديدة في نماذج الطغيان التي تتحف التاريخ الإنساني دوماً.

مع هذا يجب أن لا تستولي علينا الكآبة؛ فالكون يمشي نحو الأفضل، والجنس البشري يتخلّص من هذا القيح تدريجياً. ولَتعلمنَّ نبأه ولو بعد حين.

الكون لم يُبنَ عبثاً، ولا فوضى ولا سُدىً، بل بالحق والغائية والجمال والقانون. الاستبداد مرض اجتماعي يمكن أن يصيب أي مجتمع، وليس من مجتمع محصَّن ضدّه. وانتشار الاستبداد في العالم العربي يجب أن نفهمه مقلوباً، ليس في وجود المستبدّين، بل في الاستعداد لنمو مثل هذه الحشائش السامة في التربة العربية.

في نفس كل واحد منّا فرعون وشيطان وهامان والنمرود، جالسون يتربصون، وعلى المؤمن دفع هذا الوَسواس الخناس من الجِنَّة والناس.

أخطر التجليات هي عدم وجود المعارضة التي تمنح التوازن في المجتمع، ولذا فالمشكلة ليست في إزالة الطاغية، بل في بناء مجتمع محصن ضد الطغيان.


ISBN 978-614-429-007-1

